

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

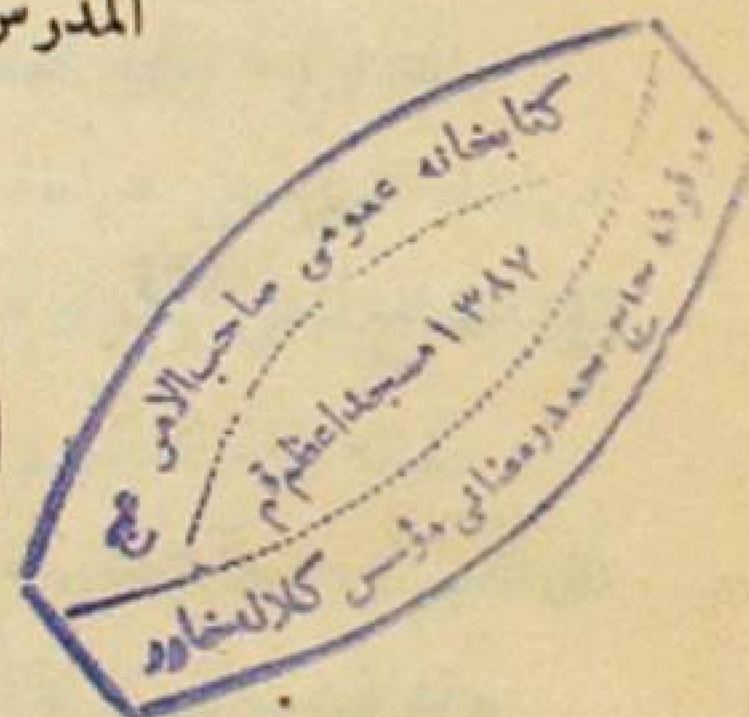
كتاب الأخلاق

تأليف

أحمد أمين

المدرس بمدرسة القضاء الشرعي





الطبعة الثانية — منقحة وموسعة

المطبعة الرحمانية

بالخرنفش بمصر رقم ٣٥

الطبعة الاولى سنة ١٩٣٠

الطبعة الثانية سنة ١٩٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الاولى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

هذا كتاب وضعته للطلبة ليكون مرشداً لهم في حياتهم الاخلاقية، يلفتهم الى نفوسهم، ويبين لهم أهم نظريات العلم، ويوسع نظرهم فيما يعرض عليهم من الاعمال اليومية، ويعدهم للتوسع في علم النفس والاخلاق والاجتماع

راعيت فيه الجهة العملية أكثر مما راعيت الجهة النظرية. وفضلت مراعاة المعنى على مراعاة اللفظ، فلم أعمد الى تزويق اللفظ كما عمدت الى ايضاح المعنى ليكون سهل التناول

كتبته بلغة العصر وبروح العصر، فان لكل زمان لغة هي أقرب الى الفهم وروحاً تتطلب معاني جديدة، ونمطاً في الكتابة جديداً

وقد قسمته الى ثلاثة أقسام، بحثت في القسم الاول في موضوعات نفسية لا بد منها للاخلاق كالعادة والارادة — وذكرت في القسم الثاني أهم نظريات علم الاخلاق وتاريخه — وعنيت في القسم الثالث بالمسائل العملية التي تعرض للانسان في حياته — هذا مع اقتصار على ما يناسب الطالب ويليق به

ولعله أول كتاب في اللغة العربية من نوعه. من حيث موضوعاته ونمطه، على حاجتنا الشديدة الى كثير من الكتب في هذا الموضوع الذى

عنيت به الامم الحية فالفت فيه الكتب العديدة ، مطولة ومختصرة ، تناسب كل طبقة فى درجاتها العقلية المختلفة

والله أسأل ان ينفع به ، ويوفق العاملين لمتابعة التأليف في موضوعه النافع

ابريل سنة ١٩٢٠ أحمد أمين

مقدمة الطبعة الثانية

أن مالقيه هذا الكتاب من اقبال الجمهور عليه ، واهتمام كثير من الادباء بتقريظه ونقده حملنى على بذل الجهد فى توسيعه وتنقيحه فزدت فصولا رأيت الحاجة ماسة اليها كالغريزة والوراثة والبيئة. وتوسعت فى موضوعات رأيت خيراً أن أوسعها ، كالحرية وضبط النفس والمحافظة على الزمن ، وانتفعت بنقد الناقدين فأصلحت من الكتاب ما رأيت صواباً فى نقدهم

فاتقدم الى القراء بهذا الكتاب فى شكله الجديد وأرجو أن يقع عندهم موقعاً حسناً

اكتوبر سنة ١٩٢١

فهرست الكتاب

الموضوع — الصفحة

مقدمة

فى تعريف علم الاخلاق وموضوعه

تعريفه : كلنا يحكم على الأعمال بأنها خير أو شر ، صواب أو خطأ ، وهذا الحكم متداول بين الناس رفيعهم ووضيعهم ، كبيرهم وصغيرهم ، فى جليل الاعمال وحقيرها ، على لسان القاضى فى المسائل القانونية ، وعلى ألسنة الصناع فى صنائعهم بل والاطفال فى ألعابهم

فما معنى الخير والشر ؟ وبأى مقياس أقيس العمل فأحكم عليه بأنه خير أو شر ؟ وبعبارة أخرى ما الغاية التى أسعى للوصول اليها حتى إذا قربنى العمل منها كان خيراً وإذا أبعدني كان شراً ؟

هذه كلها أسئلة يجيب عنها علم الأخلاق

فعلم الأخلاق علم يوضح الخير والشر ويبين ماينبغى أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضاً، وينير السبيل لعمل ماينبغى، وكثيراً مايرد على الذهن هذا السؤال : هل في استطاعة علم الاخلاق أن يجعلنا صالحين أخياراً ؟ والجواب أن علم الاخلاق بمنزلة الطبيب فهو يستطيع أن يخبر المريض بضرر شرب المسكرات ويصف له تأثيرها فى العقل والجسم ثم المريض بعدُ بالخيار ان شاء ترك لتحسن صحته وان شاء تعاطى ، وليس في استطاعة الطبيب منعه . كذلك علم الأخلاق ليس فى مقدوره

أن يجعل الانسان صالحاً ولكنه يفتح عينيه ليريه الخير والشر وآثارهما . فعلم الأخلاق لا يفيدنا فى العمل ما لم تكن لنا ارادة تنفذ أوامره وتجنبنا نواهيه

نعم يمكن لمن لم يدرس الأخلاق أن يحكم على الأشياء بأنها خير أو شر ويمكنه أن يكون صالحاً حسن الخلق . ولكن مثل دارس الأخلاق ومن لم يدرس كتاجر الصوف ومن ليس بتاجر اذا أراد كلاهما أن يشترى نوعاً من الصوف . كل يقع نظره على ما يقع عليه نظر الآخر وكل يلمس ويمتحن ولكن ممارسة الأول وكثرة تجاربه تجعله أصدق حكماً وأحسن تقويماً

موضوعه : يؤخذ من هذا أن علم الأخلاق يبحث فى أعمال الناس فيحكم عليها بالخير أو الشر ولكن ليست كل الاعمال صالحة لأن يحكم عليها هذا الحكم ولبيان ذلك نقول

تصدر من الانسان أعمال غير ارادية كالتنفس ورمش العين عند الانتقال فجأة من ظلمة الى نور ، فهذه ليست من موضوع علم الاخلاق ، فلا نحكم عليها بخير ولا بشر كما لا نحكم على فاعلها بأنه خير أو شرير ولا يحاسب الانسان عليها

وتصدر منه أعمال بعد تفكير فى نتائجها وارادة لعملها كمن يرى أن بناء مستشفى في بلده ينفع قومه ويخفف مصائبهم فيفعل ، وكمن يعزم على قتل عدوه فيفكر فى الطريق لذلك وهو هادىء الفكر ثم ينفذ ما عزم عليه ، فهذه الأعمال تسمى أعمالا ارادية

وهى التى يحكم عليها بأنها خير أو شر ويحاسب الانسان على ما أتاه منها

وهناك نوع من الأعمال آخذ بشبه من الطرفين قد يغمض الحكم فيه : هل هو من موضوع علم الاخلاق أولا وهل صاحبه مسئول عنه أولا كما فى الأمثلة الآتية

(١) من الناس من يأتي أعمالا وهو نائم فلو أن أحدهم أشعل ناراً بمنزله وهو في هذه الحالة أو أطفأ ناراً كادت تحرق المنزل فهل يكون مسئولا عن عمله خلقياً ويحكم عليه بأنه مجرم في الحالة الاولى خير فى الثانية ؟

(٢) قد يصاب الانسان بالنسيان فيترك عملا كان يجب عليه أن يعمله فى وقته

(٣) قد يستغرق الفكر في عمل كمن يشتغل بحل مسألة هندسية أو يقرأ فى رواية لذيذة فيفيته ذلك وعداً أو درساً

هذه الاعمال كلها بالتأمل فيها نرى أنها أعمال غير ارادية فليس النائم فى المثال الاول قد تعمد احراق المنزل وقدر نتائجه ، لذلك لم يكن مسئولا وقت أن أتى بهذا العمل لانه لا ارادة له وانما يسأل ويحاسب اذا كان يعلم انه مصاب بهذا المرض وأنه يأتى أعمالا خطرة وهو نائم ثم لم يحتط وقت صحوه وانتباهه لما قد يحصل عند نومه بأن يحول بين نفسه وبين النار وأدواتها . فنحن مسئولون خلقياً عن عدم الاحتياط للاوقات التى نكون فيها غير مسئولين .

وكذلك الشأن فى الامثلة التى ذكرناها، فلو انك نمت وتركت النار مشتعلة في موقد ثم طارت شرارة أحرقت المنزل لم يسمع لقولك « ان هذه ليست خطيئتى ولست قادراً أن أمنع النار أن ترمى بالشرر وأنا نائم » اذ يقال لك أنك عالم أن ستنام وقد أردت النوم وعالم أنك ستكون فى حالة عدم شعور فكان ينبغى أن تستعد وقت شعورك لما قد يطرأ وقت عدم شعورك وذلك باطفاء النار

ومثل ذلك الاتيان بعمل مع الاعتذار بجهل النتائج التى تصدر عنه ، وكمن كان يعلم من نفسه أنه حاد الطبع غضوب لا يضبط نفسه عند سماع كلمة تؤلمه فيخرج عن وعيه ويسب أو يضرب — فلو أنه غشى الجمعيات التى هى مظنة لاثارة غضبه وأتى بما يستنكر كان مسئولا عن عمله لما ذكرنا ، وكذلك الاعمال التى اعتيدت حتى صار يأتيها صاحبها لا عن إرادة فانه يسأل عنها لان الاعتياد نتيجة عمل ارادى متكرر

حكى دانتى (١) أنه عند مازار الجنة وجد فى أحط درجاتها سيدة كانت قد عرفت فى حياتها بالصلاح والتقوى حتى كادت تبلغ مبلغ القديسين — وكانت تفضل المعيشة فى الدير والانقطاع للعبادة ثم أكرهت على الخروج منه وأرغمت على الزواج وعيشة

(١) دانتى Dante شاعر ايطالى مشهور (١٢٦٥ — ١٣٢١) وله تآليف كثيرة كان لها أثر كبير فى نهضة ايطاليا ومن أشهرها رواية تسمى « ديفينا كوميديا » وصف فيها جهنم والفروس ومن فيهما

الاسرة . فعجب دانتى أن لم تكن فى أعلى عليين وسأل عن سبب ذلك فأجيب بانها وان أكرهت على الخروج ومعيشة الزوجية إلا أن هذا الاكراه لم يستمر طول معيشتها بل قد رضيت بعدُ بمعيشة الزوجية مع انها كانت تعتقد أن عيشة الدير خير منها — فهى ليست مسئولة عن خروجها من الدير مرغمة ولكنها مسئولة عن رضاها فيما بعد واستمرارها فى معيشتها بارادتها

وخلاصة هذا أن موضوع علم الاخلاق هو الاعمال التى صدرت من العامل عن عمد واختيار، يعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمل . وهذه هى التى يصدر عليها الحكم بالخير أو الشر وكذلك الاعمال التى صدرت لا عن إرادة ولكن يمكن الاحتياط لها وقت الانتباه والاختيار ، وأما ما يصدر لا عن إرادة وشعور ولا يمكن الاحتياط له فليس من موضوع علم الاخلاق



الكتاب الاول

فى مباحث نفسية لابد منها فى الاخلاق

أسس السلوك

كل عمل إرادى يسمى «سلوكا» ، كقول الصدق والكذب وأعمال الكرم والبخل ، ولسلوك الانسان أُسُسٌ نفسية يصدر عنها كالغريزة والعادة، ولا تقع حواسنا على هذه الاسس ولكن على آثارها وهى السلوك فنحن لا نحس بالغريزة مثلا ولكن نحس بما يصدر عنها

فكل سلوك لابد أن ينبع من مصدر نفسى ، وليس يقنع الباحث فى الاخلاق بالنظر إلى ظواهر الأعمال كما لا يقنع الطبيعى بالنظر إلى ظواهر الجو، بل لا يقنع إلا إذا عرف عللها وأسبابها ، وبمعرفة أسس السلوك نستطيع أن نعالجه ان كان سيئاً ونشجعه إن كان حسنا ، فلو أنك قلت للكاذب لا تكذب وكررت ذلك على سمعه مراراً ولكنك تركت حالته النفسية التى يصدر عنها الكذب كما هى لم يكن لقولك أثر ، ولكن لو بحثت عن حالته النفسية وعرفت السبب الذى من أجله يكذب ثم عالجت ذلك بما يناسبه كان هذا علاجا ناجعاً

أثبت العلم أن أخلاق الانسان ليست حظًّا يُمْنَح حسب

المصادفة والاتفاق ، ولكنها تصلح وتفسد وترقى وتنحط تبعاً لقوانين ثابتة لا تتخلف ، وأنا إذا عرفنا هذه القوانين وعملنا على وفقها استطعنا أن نصلح أخلاق الانسان بقدر ما تسمح طبيعته

وهذه القوانين — سواء منها ما يتعلق بنفس الانسان أو ما يتعلق بالبيئة التى تحيط بها — معقدة مركبة ، لم تستكشف استكشافاً تاماً حتى الآن، وهذا لا يمنعنا من السير على ما علم منها والجد في تعرف ما لم يكشف

ان الناس مع الاختلاف الكبير فيما بينهم عندهم جميعاً — إلا الشواذ — ميل إلى الشرف والحق والصدق وسائر الفضائل وإن كان هذا الميل يختلف فيما بينهم قوة وضعفاً ، والتربية الصحيحة تقوى هذا الميل وتصل بالانسان إلى أقصى ما يمكن أن يصل اليه كما أن التربية السيئة تضعف هذا الميل وقد تفنيه — من الخطأ أن يقرر الاب أن ابنه سيكون طبيباً أو مهندساً أو قاضياً ثم يرغمه على السير فى السبيل الذى يحدده فقد لا يكون عند الناشىء استعداد طبيعى للطب أو الهندسة أو القانون ولكن من الصواب دائماً أن يقرر الاب أن يجعل ابنه أمينا شجاعا مجداً لانه ولد وعنده استعداد لذلك الى حد ما ، ودراسة الأسس النفسية ومعرفة قوانينها تمكّن الانسان من التربية الصحيحة . ونحن نكتفى هنا بذكر أهمها

الغريزة

اعتادت الفلسفة القديمة أن تقول أن الانسان يولد صحيفة بيضاء ينقش فيها المربى ما يشاء، أو تقول أنه كالعجينة المرنة يصورها المربي حسب مايهوى — وقد تبين خطأ هذه النظرية وظهر أن الانسان يولد صحيفة منقوشة نقشها أسلافه، لانه يخرج إلى هذا الوجود وسرعان مايعمل أعمالا بالغريزة كما يفعل الحيوان ونحن نذكر لك أهم الغرائز :

(١) . حفظ الذات — نرى كل حيوان كبيراً كان أو صغيراً، راقيا أودنيئا، يسعى — دائما من يوم أن يولد — في أن ينمو. ويجاهد ماأمكنه للحصول على قوته، ويمعن فى الهرب من الموت، ونرى الانسان يحاول أن يعيش فى أية بيئة مهما ساءت ولا يألو جهداً فى أن يعدل نفسه لتلتئم مع البيئة التي يعيش فيها

وانه ليأخذك العجب حين تلاحظ أن الجسم الحي اذا صادفته حالة حرجة تكاد تقضى عليه قد تسلح باسلحة عديدة يتقى بها الخطر، بل أكثر من هذا ترى في نفسه ميلا طبيعياً يدعوه لان يعيش عيشة أرقى من عيشته

هذه الغريزة هى التى ملأت وجه البسيطة بالملايين التى لا تعد من الاجسام الحية فهى تعيش لان فى غريزتها أن تعيش

(٢) غريزة حفظ النوع — هى من أقوى الغرائز وأكثرها

مظاهر فى الحياة، ومن أكبر مظاهرها الميل الجنسى أعنى الميل المتداول بين الذكر والانثى، وهو منبع لكثير من السلوك، فاكثر أعمال الشباب — من جد فى الدرس ورغبة فى نيل شهادة ومحافظة على حسن سمعة وسعي فى الكسب — الغرض منه — على الاكثر — خدمة هذا الباعث الغريزى وهو الميل الجنسى، وهو السبب أيضاً فى حياة العواطف من أدب وفن — وهذا الميل اذا نظم واعتدل كان منبعاً للسعادة والافللشقاء

ومن مظاهر هذه الغريزة أيضاً العاطفة الابوية وهى فى المرأة أقوى منها فى الرجل، وهى شديدة التأثير فى الحياة الاخلاقية، فهى تحول الفتاة المرحة الملول الاثِرَة الى أم رزينة صبور مؤثِرة كما تحول الشاب المستهتر الماجن الى رجل مفكر يشعر بالتبعة (المسئولية)

وتقوى غريزة حفظ النوع أحياناً حتى لتضعف امامها غريزة حب الذات، فقد يهجر الابوان راحتهما لراحة أولادهما ويحرمان أنفسهما ليتمتع نسلهما، بل قد تضحى الام نفسها لتحفظ ولدها بهذه الغريزة والتى قبلها عَمَرَ العالم وحفظت الاشخاص والانواع، وبها أيضاً كان العالم ميداناً للتزاحم والعراك ومجزرة تسفك فيها دماء الاشخاص والانواع

وهاتان الغريزتان أساس لكثير من أعمال الانسان حتى

لقد ذهب بعض علماء النفس الى حصر سائر الغرائز فيهما

(٣) غريزة الخوف — هذه الغريزة متأصلة فى الانسان ، تصحبه من أيام طفولته الى أن تسلمه الى القبر المخيف ، وكثيراً ماتتصادم هـذه الغريزة مع الغرائز الاخرى كالغضب وحب الابتكار وحب الاستطلاع والميل الجنسى فتمنعها من الظهور أو تكون سبباً فى التردد

وان رقى الانسان العقلى ومدنيته أزالت كثيراً من أسباب الخوف التى كان يخاف منها المتوحش ولكنها أوجدت أيضاً أسباباً أخرى أصبح يخاف منها المتمدين ، كان المتوحش يخاف من الرعد والبرق والمذنبات والخسوف والكسوف ونحوها فلما علم المتمدن بأسباب هذه الاشياء زال خوفه منها ولكنه أصبح يخاف من الامراض والميكروبات ومن أن يمس شعوره ومن أن يتعدى على أمته الى كثير من أمثال ذلك

فالخوف ملازم للانسان فى وحشيته ومدنيته ، يخاف على نفسه وعلى ملكه وعلى صحبه ، يخاف من الاوهام ويخاف من الفقر ومن كبر السن ومن الموت فهو عبد للخوف أبداً حتى يموت

ومن جهة أخرى فالخوف من أكبر عوامل التربية ، ولابد من الخوف المعتدل لاصلاح الحيوان والانسان ، تخولنا أنواع من الاعداء تود الايقاع بنا فى أنفسنا وأموالنا وأخلاقنا وليس

ينجينا منها الا الخوف من الألم المتوقع من حدوثها ، وكثيراً ما يحملنا على النجاح فى أعمالنا خوفنا من ألم الفشل ، وان أخلاقنا وحسن سلوكنا لتكون عرضة للفساد اذا لم تكن محصنة بالخوف من ذم من حولنا واحتقارهم ايانا . أضف الى ذلك أن الخوف من النتائج السيئة المستقبلة هو الذى ملأ المصلحين غيرة على أممهم وجعلهم يتحملون كل مكروه فى سبيل تنفيذ اصلاحهم —

* * *

وهناك غرائز أخرى لا يتسع المجال لشرحها تفصيلا فموضع ذلك علم النفس كغريزة الملكية أو الحيازة — وتظهر فى ميل الانسان الى الادخار واقتناء الثروة وهى كثيراً ما تكون باعثاً للانسان على أنواع من السلوك ، وكغريزة حب الاستطلاع وهى تدفع الذهن الى استكشاف خفايا المسائل وتحصيل المعلومات ، وكغريزة حب الاجتماع وهى السبب فى تكوين الاحزاب والجمعيات والنقابات ووضع النظم المختلفة لها ، وكل هذه الغرائز وأمثالها منبع خفى لاعمال الانسان الظاهرة

تعريف الغريزة وخصائصها — اختلف علماء النفس اختلافاً كبيراً فى تعريف الغريزة ، وأقرب التعاريف الى الصواب ماعرفها به الاستاذ جيمس فقال «الغريزة ملكة يقتدر بها على عمل يوصل الى غاية من غير سابق نظر الى تلك الغاية ومن غير سابق تدريب على هذا العمل»

ويكفينا هنا ذكر هذا التعريف من غير مناقشته، وان ذكر خصائص الغريزة أكثر ابانة لها من ذكر التعاريف المختلفة

فأولا — أن قوة الغرائز تختلف باختلاف الاشخاص والامم، وهي تقوى وتضعف بنسبة الرقي العقلي للشخص والامة، وبنسبة الظروف المحيطة بها، وهذه الغرائز المختلفة — مع عوامل رقيها وانحطاطها المختلفة — هي السبب في الخلاف بين الناس

(٢) موعد ظهور الغرائز المختلفة ليس محدوداً ولا منظما في الانسان انتظامه في الحيوان

(٣) كثيراً ما تتعارض الغرائز وينشأ عن ذلك اضطراب في السلوك أو تردد، كالذي عنده غريزة حب الملك شديدة قوية وعنده أيضاً ميل غريزي قوي نحو تحصيل الخير للمجتمع فتراه يقف أحياناً مواقف اضطراب تتنازعه فيها الغريزتان

(٤) تظهر الغرائز في شكل بواعث على العمل فغريزة الغضب تبعث على القول الحادّ أو الانتقام أو نحو ذلك، وغريزة حب الاستطلاع تبعث على كثرة السؤال وقراءة الكتب والبحث عن المجهول وهكذا

(٥) الغريزة أساس لاعمال الانسان، فهو يأتي باعمال عديدة في يومه من قيام من النوم ولبس وافطار وعمل في شؤون مختلفة وأنواع من الاعمال يسر بها نفسه الى كثير من أمثال ذلك وهو يكرر ذلك كل يوم، ومهما كثرت هذه الاعمال وتعددت فانها

عند التحليل يمكن رجوعها الى غرائز معدودة تبعث عليها، وبهذه الغرائز يمكن شرح كل سلوك الانسان فهو يأكل لان الجوع الغريزي يبعث على الاكل وتأتي العادة بعد ذلك فتنظم أكله في أوقات معينة وباشكال مخصوصة، وهو يعمل ويتحمل الصعاب في عمله ليحصل على نقود، وهو انما يحصلها لينفقها على نفسه وأهله يسد بها أميالا غريزية دعا اليها حب الذات وحب النوع وهكذا يمكن رجوع كل عمل الى الغريزة مباشرة أو بالواسطة مهما دق العمل، فحب الآباء والابناء والاصدقاء وحب الغنى والمال والخوف من الموت والاستيحاش من الوحدة والرغبة فيما يسر والنفور مما يؤلم كلها ناشئة عن غرائز طبيعية، وهي تشكل سلوك الانسان باشكال خاصة

وما أبعد عن الصواب المذهب القديم القائل بان الحيوانات تصدر أعمالها عن غرائزها أما الانسان فتصدر أعماله عن عقله، والحق أن الانسان يعمل عن غريزته وعقله معاً ولا يمكن انفصال أحدهما عن الآخر، فالغريزة تعين الغاية المطلوبة والعقل يوجد الوسائل لتحصيل تلك الغاية

تربية الغريزة — الغريزة قابلة لان تثبت وتنمى بالتربية كما أنها قابلة لان تضعف بل تفنى بالاهمال، وليست الغريزة من الثبات بحيث لا تنمحي ولا تضعف، فكثيراً ما يرث الانسان استعداداً

خاصاً ثم يفقده لانه لم يُنمَّ فى الوقت المناسب كالاوز والبط فانه إذا أبعد عن الماء – بعد الفقس – بضعة أشهر يفقد ميله الغريزى إلى الماء بل يخاف منه

الغرائز هى المادة الاولى التى تتكون منها الاخلاق ولكنها مادة خام لايصح أن تهمل وتترك على طبيعتها ولا أن تُحطَّم وتسحق، بل يجب أن تربى وتهذب، وتربيتها بمقاومة البواعث التى تبعثها الغريزة ومنعها أحياناً والترحيب بها وتشجيعها أحياناً أخرى، فالناشىء الكثير الحركة اللعوب يجب أن يقاوَم ميله حتى يعتدل كما يجب تشجيع الميل الى الحركة واللعب عند الناشىء الهادىء هدوءاً أكثر مما ينبغى

وهنا يرد علينا هذا السؤال متى تشجع البواعث ومتى تقاوم؟

والجواب عن ذلك: أن العمل الذي تبعث عليه الغريزة اذا كانت نتائجه حسنة فالباعث عليه يجب أن يشجع والعمل يجب أن يكرر واذا كانت نتائجه سيئة وجب أن يقاوم الباعث عليه ولا يسمح بتكراره – وكل أنواع المثوبة والعقوبة من أبسط أشكالها إلى أقصى درجاتها مبنية على هذه النظرية نظرية تشجيع الباعث على الخير وردع الباعث على الشر

وإن الغرائز تختلف عند الناس إختلافاً كبيراً كما قدمنا فقد يمنح انسان قوة فى إحدي الغرائز وضعفاً في أخرى على حين أن آخر قد قوى عنده من الغرائز ما ضعف عند الآخر والعكس، وعند

كثير من الناشئين استعداد غريزي للنبوغ في فرع من فروع الحياة المختلفة، ويظهر هذا النبوغ عندما يوفق المرء إلى من يتعهد أمياله الطيبة ويعرف كيف يشجعها وينميها ويرشده إلى ما ينبغي أن يعمل وما ينبغى أن يترك حتى تنضج غرائزه، وكم ممن نعدهم اليوم من سقط المتاع من لو عني بهم وربيت غرائزهم لكانوا نابغين على اختلاف فيما بينهم ففنان ماهر وقائد مدرب ومدير حاذق وذو قلب كبير لا يهاب الشدائد ولا يخاف الموت

العادة

العمل اذا تكرر حتى صار الاتيان به سهلا سمى عادة وأكثر أعمال الانسان من قبيل العادة كالمشي والجرى وطريقة اللبس والكلام الى كثير من أمثال ذلك

تكوين العادة: كل عمل خيراً كان أو شراً يصير عادة بشيئين: ميل النفس اليه واجابة هذا الميل باصدار العمل، مع تكرار ذلك كله تكراراً كافياً، أما تكرار العمل الخارجي وحده أعني مجرد تحرك الاعضاء بالعمل فلا يفيد فى تكوين العادة — فالمريض يتجرع الدواء المر مراراً وهو في كل مرة كاره له، يتمنى اليوم الذى يشفى فيه فلا يتجرعه، ولا يصير شرب الدواء عادة له.

والتلميذ الكسول الذى يذهب الى المدرسة بضغط والده عليه

فحسب لا يعتاد الذهاب الى المدرسة حتى اذا زال هذا الضغط لم يذهب . ولكننا نرى المدخن بتكريره للتدخين يعتاده ويصعب عليه العدول عنه . والسبب فى هذا أن المريض لم تمل نفسه الى شرب الدواء، وانما مالت الى كسب الصحة ، فالميل النفسى الى العمل وتكرير هذا الميل لم يتحققا فلم تتكون العادة، وكذلك التلميذ لم يمل الى المدرسة وانما مال الى ارضاء والده أو نحو ذلك فلم يعتد ، أما المدخن فقد رغب فى التدخين وتكرر ميله وتكرر العمل الخارجى وهو اشعال اللفافة وتدخينها فتكونت العادة

كذلك تكرير الميل النفسى وحده ليس بكاف فمن مال الى التدخين مراراً ولكنه لم يجب هذا الميل لا يصبح التدخين له عادة فلا بد اذن من الميل النفسى والعمل الخارجى وتكرارهما

العادة فسيولوجيا : (من علم وظائف الاعضاء) — كل ما يشعر به الانسان وما يعمله مرتبط ارتباطاً تاماً بمجموعه العصبى ولاسيما المخ، ولو أن خبرتنا بالمخ كافية لاستطعنا — اذا نحن نظرنا الى مخ انسان لم نره قط — أن نخبر بواسطة تركيبه وحجمه وشكله عن صفات كثيرة من صفات هذا الانسان

واذا فهم هذا الارتباط بين الاعمال والمجموع العصبى أمكننا أن نفهم كيف تتكون العادة

ان من خصائص المجموع العصبى «قابلية التشكل»، ويسمى الجسم قابلا للتشكل اذا كان يمكن تشكيله شكلا جديداً وكان

اذا تشكل به استمر عليه، كالورقة تثنيها فتحس بشيء من المقاومة فاذا ضغطت عليها اتخذت شكلا جديداً واستمرت عليه حتى أنها لتعود اليه اذا بسطت

كذلك الشأن فى الاعصاب فكل عمل وكل فكر يؤثر فيها ويشكلها بشكل خاص، ويتخذ فيها مجرى معيناً حتى اذا أريد أن تفكر الفكرة أو يعمل العمل ثانية كان ذلك أسهل، لان الاعصاب استعدت للعمل وتشكلت به ، كمن اعتاد وضع يده فى جيبه أو وضع رجل على أخرى فانه يميل الى اعادة ذلك وترتاح أعصابه اذا هو فعل لان ذلك يتفق مع الشكل الذى تشكلت به الاعصاب — وكلما تكرر العمل أو الفكرة تعمق الأثر في الاعصاب واتسع المجرى وألف الانسان العمل أو الفكرة لسهولته عليه كما هو الشأن فى الماء فانه يرسم لنفسه طريقاً في الارض وكلما مر عمق مجراه ووسعه وسهل عليه أن يجرى بعد فى طريقه المعتاد

خصائص العادة : اذا تكونت العادة كان لها خصائص: فمنها

(١) سهولة العمل المعتاد ، ومن الامثلة على ذلك المشى وهو من التمرينات الشاقة . يستغرق تعلمه شهوراً فأولا نتعلم كيف نقف ، ووقوف الانسان صعب لانه يرتكز على عدة ليست بالعريضة وعلى نهاية واحدة ، لذلك كان وقوفه أصعب من ذوات الاربع وكان انكفاؤه أسهل من انكفائها — وبعد

أن نتعلم الوقوف نتعلم الارتكاز على رجل واحدة عند اتجاه الاخرى الى الامام ثم تغيير الارتكاز من رجل الى رجل عند تقدم الاولى — ومع هذه الصعوبات نجد أن العمل بتكريره واعتياده يصير فى غاية السهولة ويكفى توجيه فكرنا الى المكان الذى نريده لتتحرك أرجلنا وتسير من غير صعوبة ومن غير تفكير فى كيف نمشي

وأعجب من هذا وأصعب «الكلام» فانا نقضى سنين فى تعلمه ونحتاج الى استعمال عضلات الحلق والشفة والحنك واللسان وقد نحتاج فى النطق بالكلمة الواحدة الى استعمال كل هذه العضلات، ويتدرج الطفل من النطق ببعض الحروف السهلة الى الصعبة حتى تكون العادة فيصبح قادراً على التكلم من غير احساس بصعوبة ما

(٢) توفير الزمن والانتباه — العادة توفر الزمن والانتباه فعند ما يتكرر العمل ويصير عادة يعمل في زمن أقل ولا يحتاج الى تنبه كثير ، مثال ذلك الكتابة فعند تعلمها كانت كتابة سطر واحد تستغرق زمناً طويلا وتحتاج الى انتباه تام واستحضار للفكر كله فلما صارت عادة استطاع الانسان أن يكتب صفحات فى زمن كان يكتب فيه سطراً أو أقل كما انه استطاع أن يكتب وفكره مشغول بشىء آخر ، ومثل الكاتب الموسيقى وكل صانع ، فحياتنا تتضاعف مئات من المرات بالاعتياد

ويوضح ذلك المقارنة بين اليد اليمنى واليد اليسرى ، فالعادة هى التى جعلت اليد اليمنى أمرن ، وقصرت زمن ما تعمله ، ولو فقدها الانسان

لا استطاع أن يعمل بيسراه ما كانت تعمله يمناه ولا سيما اذا فقدها قبل أن تتصلب أعضاؤه بل كثيرون يفقدون كلتا يديهم فيتعودون أن يعملوا بأقدامهم بعض ما كانوا يعملون بأيديهم

قوة العادة : كثيراً ما يعبرون عن قوة العادة بقولهم « العادة طبيعة ثانية » يعنون بذلك أن لها من القوة ما يقرب من « الطبيعة الاولى » والطبيعة الاولى هى ما ولد عليه الانسان وفطر عليه فكل انسان خرج من هذا العالم كآلة مجهزة بكثير من العدد ، عين تبصر وأذن تسمع ومعدة تهضم وغرائز فطرية وهكذا . فهذا الذى ولدنا عليه وورثناه من آبائنا وأجدادنا هو طبيعتنا الاولى ولها سلطان كبير على الانسان فلو حاول أن يبصر بأذنه ويسمع بعينه ما استطاع فهو لابد خاضع لسلطانها

وما يدخله الانسان على الطبيعة الاولى من التحسين والتقبيح هو ما يسمى « الطبيعة الثانية » أو العادة - ولها كذلك سلطان كبير فالطريق الذى نختطه لانفسنا في الحياة ونعتاد السير فيه له من السلطان علينا ما يقرب من سلطان الطبيعة ، فنحن أحرار في السنين الاولى من حياتنا لا سلطان للعادة علينا حتى اذا نمونا كان نحو التسعين فى المائة من أعمالنا — من لبس وخلع وطريقة أكل وشرب ونمط في الكلام والسلام والمشى والمعاملة - معتاداً نعمله بقليل من الفكر والانتباه ويصعب علينا العدول عنه وتصبح حياتنا مجرد تكرير لافكار وأعمال كسبناها فى مقتبل

الحياة ، فاذا نحن عنينا بتكوين العادات الصالحة من صغرنا عنيت هذه العادات بنا فى بقية حياتنا وجنينا من ورائها ربحاً عظيما . فنحن كالنساج ننسج اليوم بايدينا ما نلبسه غداً ، وكالمصور يعمل صورة من جبس لين لا يلبث بعد ان يتصلب ،فان اعتنى بالصورة وجمّلها كانت — مدة بقائها — زينة تسر الناظرين ، وان لم يعتن بها وخرجت مشوهة جمدت على شكلها وكانت غصة للرائين

فواجب أن نجمع فى سنينا الاولى من صالح العادات ما يجلب علينا طول عمرنا الراحة والسعادة ، وان ندخر فى شبابنا من العادات الطيبة أكبر ما يمكن من رأس المال لنتمتع بارباحه فى أيامنا المقبلة

والعادة كما قال الاستاذ « جيمس » هى التى تسهل على المعدنين العمل في ظلمات المناجم وعلى الغواصين عملهم في البحر الهائج البارد والامواج المضطربة والملاحين فى الريح العاصف والفلاحين في حقولهم يقاسون ألم الحر والقر . . .

العادة هى التى تكسب كل ذى حرفة سحنة خاصة ونمطاً خاصاً فى الافكار والعقائد والاميال والحديث ثم هو بعد أن ينطبع بهذه الطوابع يأنس بحرفته ولا يستطيع ان ينتقل منها الى غيرها الا بصعوبة

وقوة العادة هى التى تجعل المسنين يرفضون الآراء الجديدة والمستكشفات الحديثة على حين ترى الاحداث يسرعون فى

اعتناقها والعمل بها ، ذلك لان المسنين ألفوا نوعاً خاصاً من الآراء واعتادوا السير عليه حتى صاروا يكرهون ما يخالفه ،أما الشبان والاحداث فلم يألفوا نوعاً خاصاً من الآراء ، لذلك كانوا على استعداد لقبول ما تقوم البراهين على صحته ومن الامثلة على ذلك ما حدث للطبيب الشهير هارفي (١٥٧٨ — ١٦٥٧) الذى استكشف الدورة الدموية في الانسان فقد أعلن استكشافه وأيده بالبراهين ولكن ظل الاطباء يرفضون القول به نحواً من أربعين سنة لانهم اعتادوا أن يفكروا على أن لا دورة . ورحب بالاستكشاف الاحداث لمرونتهم وعدم ألفهم القديم ، وهذا ما يعلل ما نراه من تمسك العجائز بالخرافات مع وضوح البراهين على بطلانها

قال « روسو » « يولد الانسان ويموت مسترقاً مستعبداً ، يُشد عليه القماط يوم يولد والكفن يوم يموت » يريد ان يبين قوة العادة واستعبادها للانسان ويحرض على الثورة على العادات ،والحق أن ليست كل عادة يثار عليها وان أحسن شىء فى الدنيا قد يكون منبعاً للشرور اذا اسىء استعماله ، كالخيال القوى فهو منبع للفن والشعر والادب وقد يكون أيضاً منبعاً للجرائم واختلاط العقل ، كذلك العادة قد تستعبد الانسان وتكون مصدر شقاء له اذا ساءت ، كعادة شرب المسكرات والدعارة وقد تكون منبع السعادة اذا حسنت كعادة النظافة والمحافظة على الزمن والصدق فى القول — ومن الخطأ أن

تثور على كل العادات كما يفهم من كلام روسو ، فما اتعس انساناً ليس له عادة ، أنه يتردد في كل شيء مهما تفه وصغر : فى ذهابه لينام ليلا وقيامه صباحاً وأكله وشربه بل في كل لقمة يأكلها وجرعة يشربها وبذلك يضيع أكثر من نصف عمره في تردد وابرام عزم

تغيير العادة : كثيراً ما يصاب الانسان بعادات ضارة يود تغييرها أو التخلص منها ومن المفيد أن نعرف كيف نصل الى ذلك

ان معرفتنا كيف تكون العادة يعيننا على فهم كيفية التخلص منها فللتخلص منها يجب أن نعمل عكس ما يكونها، وقد ذكرنا قبلُ أنه لتكوين عادة يجب الميل الى الشيء واجابة الميل وتكرير كل من الميل والاجابة تكراراً كافياً، فللتخلص منها يجب أن نقاوم الميل إلى العمل وكلما ملنا اليه لا نجيب الميل فنستطيع أن نميت العادة باهمالها كما نستطيع أن نحييها بالميل واجابته ، ويجب لتغيير العادات السيئة مراعاة القواعد الآتية (١)

« القاعدة الاولى » اعزم عزماً قوياً لا يشوبه تردد . وضع نفسك في المواضع التى لا تلتئم مع العادة القديمة التى تريد التخلص منها وارتبط ارتباطات كثيرة منافية لها ، ولا تأت ما كان من الأعمال مناسباً لها وإذا رأيت أن اعلان عزمك على تركها مما

(١) وضع هذه القواعد الاستاذان « بين » وجيمس وعربها الاستاذ عاطف بك بتصرف

يبعدك عن العودة اليها فافعل وبالاختصار يجب عليك أن تحيط عزمك الجديد بكل شيء تعلم أنه يقويه فان إحاطته بذلك من دواعى النجاح — وكلما مضى يوم واحد من غير رجوع إلى العادة القديمة ثبتت العادة الجديدة وتمكنت

« القاعدة الثانية » لا تسمح لنفسك بمخالفة العادة الجديدة مطلقاً لأى سبب من الاسباب إلا بعد أن تتمكن جذورها من نفسك وحياتك فان كل مخالفة لها تبعد الانسان بعداً كبيراً عن النجاح ويكون مثله مثل من يطوى خيطاً على بكرة ، فاذا سقطت البكرة منه مرة واحدة انحل من الخيط ما يحتاج لاعادة طيه إلى عشرات من اللفات ، وإن استمرار التربية والتمرين هو أكبر واسطة في جعل المجموع العصبي يفعل فى طريق مخصوص على الدوام ، لان فى تربية الخلق عاملين متضادين — الفضيلة والرذيلة — ولا تتمكن الفضيلة من الانسان تمام التمكن إلا اذا غلبت الرذيلة فى كل معركة تحدث بينهما ، وان تغلب الرذيلة مرة واحدة قبل جفاف البناء وثبوته يهدم ما بنته الفضيلة في كثير من مرات تغلبها — إذا ثبت هذا كان من اللازم أن يضع الانسان هاتين القوتين بحيث يستمر تغلب الفضيلة حتى يتم بنيانها ويقوى قوة لا تؤثر فيها الرذيلة فى أى حال من الاحوال

اتفق أهل الخبرة على أن أولى الطرق فى التخلى عن عادة مذمومة أن يتركها الانسان مرة واحدة فيتألم لذلك ويلاقى من

تركها المشاق مدة محدودة من الزمن ثم تزول المشقة ويتحرر من رق تلك العادة ، قال عليه الصلاة والسلام (إنما الصبر عند الصدمة الاولى) ، ولكن يشترط ألا يعزم الانسان على الاتيان بشيء أو على ترك عادة له إلا إذا كان يعلم أن تحمل ذلك من مقدوره لانه اذا عزم على عمل ماهو خارج عن قدرته كان حقيقاً بالخيبة ، وفى الخيبة أضعاف للعزيمة فتعجز عن الاتيان بالاعمال السهلة — والدواء في حال عدم القدرة أن يأخذ الانسان نفسه بالتدرج في الامر فاذا كان يشرب الخمر مثلا فليعزم على تقليل شربها شيئاً فشيئاً على قدر استطاعته حتى ينتهى به الامر تدريجاً إلى عدم شربها بل إلى بغضها وبغض مجالسها

وأن رجلا يغير عزمه فى كل يوم ولا ينفذه انما هو كمن يريد أن يثب قناة فيجرى لها من بعيد حتى إذا وصلها غيَّر عزمه وعاد ليجرى من جديد وهكذا فلاهو يثب ولا هو يريح نفسه

« القاعدة الثالثة » انتهز أول فرصة لتنفيذ ماعزمت عليه واتبع كل انفعال نفسى يعين على ذلك التنفيذ فان الصعوبة ليست فى العزم وانما هى فى تنفيذه، ومهما حفظ الانسان من الحِكم وكانت رغباته صالحة فان تتحسن أخلاقه وتقوى إلا إذا انتهز كل فرصة تسنح له ، وليس هناك أحقر من رجل ممتلئ بالاحلام يصرف حياته فى إحساسات وانفعالات من غير أن يعمل بمقتضاها . وان كل من أحس منا أو انفعلت نفسه بأن عمل كذا خير ولم يفعل

شيئاً على مقتضى ذلك الاحساس قد أمات فى نفسه خلقاً من أكبر الاخلاق وهو قوة العزم وتنفيذ الرأى

« القاعدة الرابعة » حافظ على قوة المقاومة واحفظها حية في نفسك وذلك بان تتبرع بعمل صغير كل يوم لا لسبب الا لمخالفة نفسك وهواك لان هذا يعينك على مقاومة المصائب اذا حان حينها ويكون مثلك مثل رجل يدفع فى كل سنة مبلغاً صغيراً تأميناً على بيته ومتاعه) اه

الفكر والعادة : قرر علماء النفس أن الفكر في الشىء يسبق العمل به حتما ، فالعمل الاختيارى انما يعمل بعد التفكير فيه — فاذا نحن أردنا اعتياد عادة أو العدول عنها وجب النظر فى أساس ذلك وهو الفكر

من القوانين النفسية أن الفكرة إذا عرضت المخ فقبلها ورحب بها زمنا طويلا أثرت فيه أثراً كبيراً ثم تحولت الى عمل ، وأن الفكرة لاول عروضها تؤثر فى المخ أثراً كبيراً وكلما تكررت كبر أثرها وسهل ورودها وأنتجت العمل لامحالة ثم يصير ذلك عادة بالتكرار

قد ترفض الفكرة لاول مرة ولكن كثرة ورودها على المخ تجعله يقبلها ويعمل على مقتضاها ، وانطبق ذلك على الحياة العملية فنقول : —

هب أن شاباً مستقيما دعاه مرة رفقه السوء ليشرب معهم فترى أن ذلك الشاب عند سماع هذا الرأى يرفض الفكرة بتاتاً ويقول « لا » بملء فيه ولكن قد يدعوه رفقاؤه لأن يصحبهم من غير أن يشرب ويزينون له هذا الرأى بما أوتوا من حيل ومهارة فيرى بعد طول القول وكثرة الاغراء أن هذا الرأي لا يضره مادام في عزمه أن يذهب ولا يشرب — وقد يتم ذلك حقيقة فيذهب معهم ولا يشرب ، وقد يكرر ذلك ولكنه فى كل ذهاب معهم تقل قوة الممانعة وتأتي فكرة الشرب فى كل مرة فتعمق مجراها في المخ ، ولا تزال تضعف قوة المقاومة عنده حتى لا يرى له قدرة على الامتناع فيشرب الكأس الاولى معتقداً انه يستطيع أن يضرب عن الشرب فى أي وقت شاء ، وهو في كل مرة يشرب يثبت عادة الشرب واذا به سكير

ينال العار من عمله ويخسر ماله من المنزلة بين الناس ويسفل ويرغب أن يعود الى حالته الاولى فتخونه ارادته ، وقد كان عدم البدء فى الشرب وعدم الترحيب بالفكرة أسهل عليه من العدول عنه بعد أن تمكنت العادة من نفسه

فوجود الفكرة فى المخ والترحيب بها معناه ايجاد شعلة فيه ، فاذا تركها تشتعل ولم يطفئها من وقتها عمت النار المخ كله وذهبت ارادته سدى وضاعت كل مقاومة ونفذ فعل الشر — وأما أن هو رفض الفكرة بادىء بدء ولم يسمح لها بالبقاء فى المخ فقد أمن من

شرها وأمن من تحولها الى عمل

وطريقة اطفاء هذه الشعلة شيئان : أولهما طريقة مباشرة ، وهي عدم السماح لهذه الفكرة أن تحل بالمخ ونبذها بتاتاً وعدم سماعها ممن يحبذها أو يدعو اليها ومجانبة من يميل اليها . والثانى شغل المخ بشيء ينسيه الفكرة الاولى ، فليس أضر على الانسان من فكر فارغ ، وكما يقال « ان الشيطان يسكن حيث يجد المكان فارغاً والمحل نظيفاً » فالمخ أن لم يشغله جد اشتغل باللهو

ومثل ما قلناه عن السكير نقوله عن كل المجرمين الذين اعتادوا أى نوع من الاجرام كالقاتل والسارق ، فالقاتل المتعمد انما يقتل بعد سكنى الفكرة فى مخه وسماحه بالبقاء حتى تملك عليه نفسه وتستحيل الى عمل

حكى « الفونس سكيروس » فى كتابه التربية الاستقلالية أن امرأة عليها سمة الاحتشام والحياء دخلت أحد الحوانيت وانتقت منه ما أرادت وأخرجت من جيبها ورقة « بنك » قيمتها خمسة جنيهات ، ولكن صراف الحانوت وجد أنها مزورة فبهتت المرأة وأخرجت له أخرى ولكنها لم تكن خيراً من الاولى ، فارتاب الرجل فى أمرها وسلمها الى الشرطة ، وبعد التحقيق تبين أن هذه المرأة خادمة أمينة ، كان عند مخدومها ورقتان مزيفتان وقعتا في يده اتفاقاً فتركهما فى بيته من غير أن يمزقهما ، وكانت الخادمة تدخل الحجرة التى فيها الورقتان كل يوم لتنظفها فتقع عينها عليهما

ولا تعبأ بهما، ولكن تكرر حضورهما في ذهنها من يوم الى يوم ومن شهر الى شهر حسن لها أخذهما، فرفضت ذلك في أول الامر بتاتاً، وبعد مدة لمستهما بيدها وقلبتهما ثم ردتهما فوراً وكأن فيهما ناراً تحرق أصابعها، وما زال بها هذا الاغراء حتى غلبها وأوقعها فى السرقة) اه

فالذي أوقع هذه المسكينة في الجناية سماحها للفكرة أن ترد على ذهنها كل يوم وتلهب فيه النار من غير اسراع فى اطفائها

فيجب ملاحظة ذلك وعدم ترديد الفكرة فى المخ حتى لا تتكون العادة

أهمية العادة: الآن فهمنا أن الانسان يكاد يكون مجموع عادات تمشي على الارض، وان قيمته تعتمد كثيراً على عاداته فطريقة الشخص فى لبسه ونظافته ونغماته فى كلامه ومشيته وطريقته في أكله ونومه، وعنايته بحاجات بدنه من رياضة واستحمام: وعنايته بعقله من تهذيب وتربية ونحو ذلك كلها عادات تقوّم الشخص وتحدد درجة نجاحه في الحياة

بل الانسان سعيد أو شقي بالعادة، أمين أو خائن بالعادة، شجاع أو جبان بالعادة بل هو — لدرجة كبيرة — صحيح الجسم أو سقيمه بالعادة — ذلك لان كثيراً من الامراض يمكن اتقاؤه باعتياد النظافة والاعتدال فى الأكل وانتظام المعيشة ونحوها، كما أن كثيراً من الامراض يمكن الوقوع فيها باعتياد أضدادها حتى

لقد قال بعضهم «من مرض فقد أجرم» ذلك لانه بمرضه يزيد في شقائه وشقاء من حوله، ولكن ليست هذه الجملة صحيحة على اطلاقها فبعض الامراض يصيب الانسان ولا يكون له طاقة بدفعه

***

ومما يستوجب الأسف أنا في السنين الاولى — سني تكون العادات — لا نكون قد بلغنا حد التفكير الصحيح — ولا تكون لنا قوة على التمييز بين الاشياء تمييزاً صحيحاً واختيار خيرها لنعتاده، فاذا بلغنا هذه السن وأدركنا عيوبنا وشاهدنا ما نعتاده من عادات سيئة صعب علينا العدول عنها لتصلبها ورسوخها وان كان ذلك ممكناً — ولنضرب لذلك مثلا عادة التدخين وشرب الخمر فليس كلاهما جذاباً محبوباً بل أن النفس تنفر منهما بطبيعتها لكراهة طعمهما وإضرارهما، ولكنهما يعرضان للمرء فى أيام طيشه وشبابه فيرى بعض من حوله يدخنون ويشربون ويحمله الولوع بتقليدهم وظنه أن ذلك يزيد فى قدره عندهم على أن يعمل مثل عملهم — ولو لم يتعودهما حتى نما عقله ونضجت قوة حكمه على الاشياء لندر أن يعتادهما — ومن هذا نعلم عظم مقدار ما يستفيده الانسان اذا رزق بمرب صالح والضرر الجسيم ان هو أهمل أو أصيب بمرب فاسد

الارادة

قدمنا أن الاعمال قسمان : أعمال غير ارادية أعنى لا عمل فيها للارادة كضربات القلب وعملية التنفس وعملية الهضم — وأعمال ارادية وهى التى تكون الارادة سبباً في وجودها كالكتابة والخطابة والاعمال المعتادة كالمشى والصلاة والقراءة تحتاج الى الارادة لاخراجها من حيز الوجود فاذا بدئ فيها لم تحتج الى الارادة لتكميلها

ولنضرب الآن مثلا لعمل ارادى ثم نحلله لنعرف موضع الارادة فيه

هب أنك كنت تكتب فقررت أن تقطع الكتابة وتذهب الى المائدة لتأكل — هذا عمل ارادى لو حللناه لوجدناه يشتمل على أشياء (١) شعور بألم الجوع ، وهذا الشعور بالالم — أو اللذة فى بعض الامثلة — نجده أساساً للأعمال فما لم يوجد لا يوجد العمل (٢) ميل إلى الأكل نشأ من تصور لذة الشبع المستقبلة ومقارنتها بألم الجوع الحاضر

ويجب أن يلاحظ أن هذا الميل غير الارادة ، فكثيراً ما يوجد الميل ولا توجد الارادة وكثيراً ما تحدث أميال متعارضة كما فى مثالنا هذا فقد يميل إلى الأكل فى لحظة عند تصور لذة الشبع والاحساس بألم الجوع وقد يميل فى اللحظة التى تليها الى الاستمرار فى الكتابة إذا هو تصور اللذة التى تحدث من تتميم الموضوع

الذى يكتبه وألم النقص الحاضر وهذه الحالة تسمى (٣) « حالة التروى » وهى التى يتردد فيها الفكر بين ميلين أو أميال متعارضة ويوازن بين نتائج الاميال المختلفة

وبعد ذلك يترجح أحد الاميال ويقبل العقل أحدها ويرفض الباقى ويسمى الميل المتغلب « رغبة » ثم يأتى (٤) العزم أو التصميم على العمل وهذا العزم هو المسمى بالارادة ثم يتبعها العمل

وليس العمل يتبع الارادة دائماً ، فالانسان قد يعزم على شئ قريب أو بعيد ففى الاشياء القريبة المباشرة للعزم يتحول العزم الى عمل كما إذا أراد أن يحرك يده الآن ويأخذ الكتاب الذى امامه وأما إذا كان الشئ المراد بعيداً كما إذا عزم أن يذهب غداً إلى مكان كذا أو يتعلم فى أول السنة القادمة لغة كذا فقد يتحول هذا العزم إلى عمل اذا لم يتغير العالم المستولى على فكره وقد لا يتحول لان الاحوال التى كانت موجودة وقت العزم قد تغيرت والصورة التى كانت مرسومة فى الذهن عند الارادة قد دخل عليها تعديل ، فوجد العزم ولكن لم يوجد العمل عند مجئ وقته

فترى من هذا أن العمل الارادى يتضمن (١) شعوراً و (٢) ميلاً و (٣) تروياً و (٤) عزماً وهو المسمى بالارادة ثم العمل بعد ذلك قد يكون وقد لا يكون

ولسنا الآن بصدد تشريح هذه الحركات النفسية تشريحاً دقيقاً تفصيلياً فموضع ذلك علم النفس ، وانما غرضنا أن نبين هنا

ما الذى يسمى بالارادة حتى لاتختلط بغيرها من أعمال النفس

الارادة قوة : الارادة قوة من القوى كالبخار أو الكهرباء ، فهى المحرك للانسان وعنها تصدر كل الاعمال الارادية وجميع ملكات الانسان وقواه تكون فى سبات حتى توقظها الارادة ، فمهارة الصانع وقوة عقل المفكر وذكاء العامل وقوة العضلات والشعور بالواجب ومعرفة ماينبغى ومالا ينبغى كل هذه لا أثر لها فى الحياة مالم تدفعها قوة الارادة ، وكلها لا قيمة لها مالم تحولها الارادة إلى عمل

وللأرادة نوعان من العمل فقد تكون دافعة وقد تكون مانعة ، أعنى أنها تارة تدفع قوى الانسان إلى عمل كأن تحمله على القراءة أو التأليف أو الخطابة وتارة تمنع القوى عن السير كأن تحرم عليه القول أو الفعل

وهى بنوعيها منبع لكل الخيرات والشرور ، فجميع الفضائل والرذائل ناشئة عن الارادة فالصدق والشجاعة والعفة ناشئة أما عن ارادة تدفع قوى الانسان إلى السير فى طريق خاص أو من أخرى تمنعها عن السير فى طريق معين وكذلك الشأن فى الكذب وغيره من الرذائل

قوة الارادة : نعنى بالارادة القوية إرادة تنفذ ما قصدت اليه مهما كلفها من المشاق ، لاتحجم أمام العقبات تعترضها وانما

تبذل مافى وسعها لتذليلها ، لاشىء أصعب عندها من عدولها عن قصدها

هذه الارادة القوية هى سر النجاح في الحياة وهى عنوان عظماء الرجال ، إذا أزمعوا أمراً لم يثنهم شىء ، يسلكون اليه كل سبيل ، ويركبون فيه كل صعب وذلول ، فقد كان أحد الحكماء يقول لكل من فشل فى عمله « إنك لم تكن ذا إرادة تامة » وكانت أثقل الالفاظ على سمع نابليون « أنا لا أعرف » « أنا لاأستطيع » « مستحيل » فكان إذا سمعها يصيح « تعلّم » « اعمل » « اجتهد » وكانت حياته مظهراً من مظاهر عظم الارادة ، قيل له يوماً « أن جبال الالب ستقف فى طريق جيشك » فقال « سوف لا تكون ألب » واختط له طريقاً لم يسلك من قبل ، وكانت قوة إرادته وقوة روحه تؤثران فيمن حوله حتى لقد قال « إنى لاصنع قوادى من طين » يريد أن روحه توحى الى روحهم النشاط والقوة حتى لايعرفون الملل كالجماد

وقد يعترى الارادة مرض كالذى يعترى الجسم ، من هذه الامراض

(١) ضعف الارادة بألا تستطيع أن تقاوم الاهواء والشهوات فيستسلم صاحبها للغضب أو شرب الخمر أو المقامرة متى وجدت المغريات — ومن مظاهر ذلك أن يرى الانسان الخير فى شىء

ويرى وجوب عمله ويعزم ثم تخونه ارادته فيستسلم للكسل والخمول

(٢) وهناك نوع آخر من المرض وهو أن تكون الارادة قوية ولكنها متجهة نحو الشرور كما نشاهد في بعض المجرمين ، يعزمون على نوع الاجرام فلا يثنى عزمهم شيء ، هؤلاء قد تظهر فيهم قوة الارادة بأقوى مظاهرها وقد تفضل ارادتهم في قوتها كثيراً من الخيّرين ، ولكن عيبهم سوء وجهة ارادتهم ، فاذا حولت كانت ارادة قوية فى الخير كما هى قوية فى الشر

علاج الارادة : يمكن علاج الارادة المريضة بانواع من العلاج

(١) اذا كانت الارادة ضعيفة يمكن تقويتها بالمران كما يمكن أن يقوى الجسم « بالرياضة البدنية » والعقل بالبحث العميق الدقيق، فبالزام النفس بالاعمال التى تتطلب جهداً ومشقة تتقوى الارادة وتتعود أن تتغلب على المصاعب ، وتشعر النفس بالارتياح من مغالبة الصعاب والتغلب عليها كما يشعر ذو الجسم القوى بالارتياح عند اتيانه بتمرين من الالعاب شاق ونجاحه فيه ، وكل مجهود يبذل فى مقاومة هوى أو شهوة ثم يؤول الى التغلب عليهما يكسب الارادة قوة

(٢) يجب أن لا نترك ارادتنا تتبخر من غير أن ننفذ ما عزمنا عليه فان ذلك يضعف الارادة ويكسبها عادة الفشل فى التنفيذ فاذا عزمنا عزمة يجب أن نحاول — ما استطعنا — تنفيذها ولا نسمح لانفسنا بتبخرها من غير ان تتحول الى عمل

(٣) اذا كانت الارادة قوية ولكن مرضها فى اتجاهها أعنى أن

اتجاهها انما هو نحو الجرائم والشرور فعلاجها أن نعرّف النفس طرق الخير والشر ونزودها ببيان نتائجهما ونلزمها باطاعة بواعث الخير ونحيطها بكل ما يحبب اليها الخير حتى تتجه الجهة الخيرة ، ويجب أن نتدرع بالصبر فى مقاومة ميلها الى الشرور حتى تهتدي الى الصراط المستقيم كما نفعل بالشجرة الفتية اذا نحن آنسنا منها اعوجاجاً فانا نحيطها بكل ما يصلح وجهتها ونقاوم اعوجاجها مدة حتى تستقيم قناتها ولا يستطيع شيء تعويجها

حرية الارادة : من المسائل التى شغلت عقول الناس قديماً وحديثاً وثار بسببها الجدال بين الفلاسفة بعضهم مع بعض وبين رجال الدين وبين علماء الاخلاق مسألة « حرية الارادة » وبعبارة أخرى مسألة الجبر والاختيار أعنى : هل ارادتنا حرة فى اختيار العمل الذى نعمله ؟ . هل العامل مختار فى أن يفعل والا يفعل ويستطيع ان يشكل عمله بما يشاء . ؟ هل نحن أحرار في اتباع ما تأمر به الاخلاق فنستطيع أن نطيع ونستطيع أن نعصى ؟ هل الارادة حرة أمام القضاء والقدر ؟ أو نحن مجبورون على السير فى طريق خاص لا يمكننا أن نتعداه وأن ما حصل ما كان يمكن أن يحصل غيره وان ارادتنا معلولة بعلل فاذا حصلت العلل حصل المعلول لا محالة ؟

انقسم الباحثون فى الاجابة على هذه المسئلة الى قسمين ، وقديماً اختلفوا ولا يزالون مختلفين الى اليوم ، ففلاسفة اليونان

كان بعضهم يرى أن الارادة حرة فى الاختيار كالرواقيين وبعضهم كان يرى انها مجبورة على السير في طريق لا يمكنها أن تتعداه

ولما بدأ العرب يبحثون فى العلم اعترضتهم هذه المسألة، فغلا قوم وقالوا أن الانسان مجبور وليست له ارادة حرة بل ان القدر يصرّفها حسب ما يرسم لها والانسان كالريشة فى مهب الريح أو كالقشرة بين يدى الامواج، لا ارادة له ولا اختيار وانما يجرى الله العمل على يديه ؛ وغلا آخرون فقالوا أن ارادة الانسان حرة وفى استطاعته أن يعمل الشىء وضده وهو يفعل ما يختار، واشتد الجدال بين الفريقين وأدلى كل بحججه مما لا محل لذكرها هنا

وفى العصور الحديثة عادت المسألة الى الظهور وعاد الخلاف فذهب بعض الفلاسفة كسْبِينُوزَا وهِيُوم ومالِيبرَانْش الى الجبر وذهب أكثر الفلاسفة الى حرية الارادة واثبات الاختيار

وقد اتخذ البحث في الايام الاخيرة شكلا جديداً فذهب بعض غلاة الجبر كروبرت أُوِنْ [1] الى أن الانسان مجبور ، يجبره ما حوله من الظروف ، فمن نشأ بين مجرمين وسمع أحاديثهم وكان كل ما حوله يدفعه الى الاجرام كان مجرماً لا محالة ولم يكن له اختيار فى أن يكون مجرماً أولا ، ومن نشأ فى بيئة طيبة وربى تربية صالحة وأحيط بكل ما يحمله على الخير كان لا شك خيراً ،

(١) روبرت اون مصلح اشتراكى انجليزى (١٧٧١–١٨٥٨) وصف سوء حالة العمال ودافع عنهم وأعد الاذهان للنظر فى شؤونهم والعطف عليهم وله كتابات فى ذلك وتطبيقات عملية على نظرياته

ومن ثم كان أكبر همّ « أون » فى الاصلاح موجهاً الى اصلاح الظروف التى تحيط بالانسان

وغلا آخرون فى الطرف الآخر فقالوا ان ارادة الانسان حرة حرية مطلقة لا تقيدها الظروف ولا غيرها

والذى نميل اليه أن الانسان مجبور نوعاً من الجبر وحر نوعاً من الحرية ، أما نوع الجبر فان الارادة خاضعة لعاملين عامل نفسى وعامل خارجى فالعامل النفسى هو ما ورثه الانسان من آبائه فانها تشكل الارادة بشكل خاص بحيث لا تستطيع التخلص منها، فلو أمرك آمر أن تحب عدوك لكان أمراً غير داخل فى مقدورك لانه ينافي غريزة حب الذات ولكن فى الاستطاعة أن يأمرك ألا تتعدى على عدوك ، ومن ثم كان فشل كثير من المصلحين « الكماليين » سببه أن نوع اصلاحهم خيالى لا يتفق مع الغرائز الموروثة كالذين يدعون الى الغاء ملكية الافراد دفعة واحدة واحلال الملك العام محلها، فان هذا يتنافى مع ما ورثه الناس من قرون من الميل الى الملك الخاص، والاصلاح النافذ هو الاصلاح الذي يتمشى مع الغرائز ويرقيها ترقية لا تتناقض دفعة واحدة مع طبيعتها، والعامل الخارجى هو قوة التربية والبيئة وما قرره علماء الاجتماع من ان الانسان يتأثر فى أعماله — الى درجة كبيرة — بأعمال المجتمع الذي يعيش فيه

هذان العاملان يقيدان الارادة ويرسمان له طريقاً للعمل

حتى نستطيع أن نتنبأ بما سيعمله الانسان الذى تكونت أخلاقه

أما نوع الحرية فان الغريزة والبيئة والتربية لا تسلبه اختياره بدليل ما نشعر به من انفسنا من حرية الاختيار ولولا ان ارادة الانسان حرة في اختيار الخير والشر لكانت التكاليف الاخلاقية والامر والنهي ضرباً من العبث ، ولما كان هناك معنى للثواب والعقاب والمدح والذم

الوراثة والبيئة

كانت العقيدة الفاشية قديماً أن الناس يولدون على السواء فى نفوسهم وفى استعدادهم وانما التربية هى التى تخالف فيما بينهم، ولكن العلم الحديث يرى أن ليس شخصان يخرجان إلى هذا الوجود متساويين لا جسمياولا عقلياً ولا خلقياً.وهذا الاختلاف بين الاشخاص قد يدق حتى يقرب من التماثل وقد يبعد حتى يصل إلى التباين حتى لترى هذا الاختلاف بين التوأمين،وهذا الاختلاف يرجع أولا إلى « الوراثة » ثم إلى « البيئة »

ما الوراثة ؟ من القوانين الطبيعية أن الفرع يشبه أصله وأن الاصل ينتج مثله،فترى الاطفال يشبهون أصولهم ، ويحملون خصائصهم وإن بعدت الأصول — وانتقال الخصائص من الاصول إلى الفروع هو ما يسمى بالوراثة

أصبح قانون الوراثة على الاجمال من القوانين الثابتة الصحيحة

التى لا مجال للشك فيها،وان كان هناك خلاف كبير بين العلماء فيما يورث ومالا يورث وفى القدر الموروث،وان كان أيضا لا يزال هناك غموض في بعض قوانين الوراثة لم يستكشفه العلم إلى الآن ونحن نبسط هذه النظرية بذكر أنواع ما يورث

(١) وراثة الخصائص الانسانية - فى كل مكان يرث الناس من أصولهم صفات مشتركة كالشكل والحواس والشعور والعواطف والعقل والارادة،فهى تتنزل للانسان من أسلافه جيلا عن جيل وبهذه الخصائص الانسانية الموروثة تغلب الانسان على الطبيعة فى أمور فشل فيها سائر الحيوان

(٢) الخصائص القومية — أن وراء عادات كل أمة خصائص يتوارثها خلف عن سلف ، وهذه الخصائص تجعل افراد كل أمة تخالف أفراد الامة الاخرى لا فى سحنتها فحسب بل فى صفاتها العقلية أيضاً كما قرره علماء مميزات الاجناس البشرية Ethnologists فالزنوج والمغول والاجناس اللاتينية وغيرهم لهم صفات يشاركون فيها سائر الناس ولكن لكل منهم فوق ذلك صفات خاصة يمتازون بها عن غيرهم ، وكما انك اذا رأيت انسانا عرفت بالمران أشرقى هو أم غربى وانجليزي أم فرنسى فكذلك إذا أنت بحثت عرفت أن هناك صفات عقلية وخلقية لكل أمة، وهذه الصفات الخاصة تحدد مقدار استعداد الامة للرقى والنجاح فى الحياة

(٣) خصائص الابوين - كل وليد يرث من أبويه صفاتهما ولست

أعنى عاداتهما ولا صفاتهما المكتسبة فى حياتهما ولكن أعنى الصفات الاساسية كالغرائز — فنحن نرث طباع آبائنا وكفاءتهم كما نرث قامتهم وشكلهم ولذلك قيل « إن أردت ولداً صحيحاً قويا فتخير له آباء أصحاء أقوياء » ويقول الشاعر العربى فى وصف ابنه

أعرف فيه قلة النعاس   وخفة فى رأسه — من راسى

فليس الطفل الذكى ذكياً اتفاقاً ولا الكسول ولا جامد العواطف بل كل هذه الاوصاف لها علاقة كبيرة بالمجموع العصبي الموروث من أسلافه ، وكل غرائزنا صدى لغرائز آبائنا

وليس من المعقول أن يرث الولد كل الصفات الاساسية لابويه معاً فقد يكون لابويه صفات متناقضة كأن يكون الاب جباناً أو أبله والام جريئة وذكية ولكن لما يصل العلم إلى تحديد المقدار الناتج — بالوراثة من امتزاج كميتين مختلفتين

ومع أن الولد يرث من آبائه صفات لهم فانه يحفظ شخصيته بصفات خاصة لايشارك فيها آباءه وبها يمتاز عن غيره فى شكله وسحنته ولونه وعواطفه وعقليته وأخلاقه، وهذه الصفات الخاصة يورثها الاولاد للجيل الذى بعده مع محافظة كل فرد من أفراد هذا الجيل على شخصيته أيضاً

وكثيراً مايحدث فى الوراثة أن الابوين تكون لهما صفات خاصة ولا تظهر هذه الصفات فى نسلهما ولكن تظهر بعد ذلك فى الاحفاد أو أبناء الاحفاد وبعبارة أخرى قد تظهر في

الاجيال التالية للجيل الاول كما شوهد في أب مصاب بعمى الالون يلد بنات ليس لهذه العاهة أثر فيهن حتى اذا نسل هؤلاء البنات ذكوراً ظهرت فيهم هذه العاهة — وأيضاً قد تلد الام الصحيحة ابناً يموت بمرض قد أصيب به جده الاكبر الادنى أو الاعلى — ويقال مثل ذلك فى الامور العقلية والخلقية — وعلى الجملة فان الوراثة مع الجزم بصحتها لا يزال كثير من قوانينها غامضاً الى اليوم والعلم يجد فى استكشافه

ويجب ان نلاحظ أننا لسنا نرث من آبائنا غرائز نامية ولا ملكات ناضجة انما نرث منهم استعدادات وجراثيم فقط ،فلم يولد سحبان فصيحاً ولا الحجاج سفاكا ولا نابليون حربياً ولكنهم ولدوا وفيهم استعدادات كامنة صادفها بيئة صالحة لنموها فنمت وذلك علة النبوغ — وكثير من هذه الاستعدادات والقوى الكامنة تتأخر فى الظهور وقد لا تظهر الا بعد سنين ،اما لان البيئة لم تكن صالحة لنموها أو نحو ذلك



ويختلف الناس فى القدر الموروث من هذه الاستعدادات والجراثيم كما يختلفون في صفة الموروث فمثلا «ا» يرث حب الذات بمقدار ٦٠ وخوفاً بقدر ٤٥ وغضباً بقدر ٥٠ بينما «ب» يرث من حب الذات بمقدار ٨٠ ومن الخوف ٢٠ ومن الغضب ٦٥، وصفات القدر الموروث عند ا قد يخالف صفاته عند ب وهكذا ،وقد يمنح بعض الناس كمية كبيرة من غريزة حتى تضعف بجانبها الغرائز الاخرى ،فترى مثلا

في سقراط حب الاستطلاع والبحث نامياً نمواً لم يجعل مجالا لظهور غريزة أخرى فيه ظهوراً بيناً وهكذا

الصفات المكتسبة — ومع أن العلماء يكادون يتفقون على أن الصفات الأساسية — جسمية كانت أو عقلية أو خلقية — تنتقل من الاصول الى الفروع فقد اختلفوا في الصفات المكتسبة التى حصلها الانسان في حياته ولم يرثها عن أب وجد. فذهب بعض العلماء ومنهم دَرْوِن ولامارك وهربرت سبنسر الى ان الاوصاف المكتسبة قد تورث الى حد محدود، فابن المصاب بعاهة عرضة لأن يصاب بها وابن من اكتسب فرعاً من فروع العلم أو خلقاً من الاخلاق أقرب لان يتصف به ممن لم يولد من أب كذلك اذا استوى المولودان فى الصفات الاساسية، وانكر اكثر علماء الحياة انتقال ما يكتسبه الفرد فى حياته الى فروعه كما هو الشأن فى الامراض والعاهات الطارئة فكما أن من فقد ذراعه أو احدى عينيه أنتج أولاداً غير متأثرين بتلك العاهة فكذلك من اكتسب صفة من الصفات لا يورثها بنيه

وليست الوراثة هى العامل الوحيد فى تكوين الانسان فبجانبها البيئة عامل آخر قوى يعمل معها ويصلحها أو يفسدها كما سنبين ذلك

البيئة — تطلق البيئة على الاشياء التي تحيط بالجسم الحي فينمو فيها، فبيئة النبات تربته وجوه الخ وبيئة الانسان الوسط الذي يعيش فيه من بلد وبحار وأنهار وجو وقوم

وهى اما بيئة طبيعية (مادية) واما اجتماعية أو (روحية)

أما البيئة الطبيعية فقد عنى الكتاب من عهد أفلاطون الى يومنا هذا بشرحها وبيان تأثيرها وكتب عنها ابن خلدون فى مقدمته، فالجسم الحى يتوقف نموه بل وحياته على حالة البيئة التى يعيش فيها فان لم تكن صالحة له ضعف ومات، فالهواء والضوء والجو ومعادن الارض وموقع البلاد وما فيها من بحار وأنهار ومرافى، وكل المرافق تأثير في صحة السكان وحالتهم العقلية والخلقية، فالجسم الحي اذا لم تمده البيئة بحاجاته المناسبة له وقف نموه، وليست حياة الجسم الا تفاعلا بينه وبين بيئته، كذلك الشأن فى الحياة العقلية فهى ليست الا تفاعلا بين العقل وما يحيط به. فالعقل لا يبقى ولا يرقى الا بتفكيره فيما حوله واستفادته من البيئة التى تحيط به، قال أحد الكتاب المحدثين «أن المؤرخين من عهد بعيد أبانوا ما للاقاليم وسائر الاشياء الجغرافية من عظم التاثير في رقى الشعوب، فالجبال وطول الشواطئ فى بلاد اليونان والهضاب السبع في رومه والشتاء القارس والليل الذى لا يحتمل فى جرينلند والشمس المحرقة والحر الشديد في افريقا والحقول الخصبة في امريكا استغرقت من المؤلفات فصولا لبيان تأثيرها في حال السكان — ولو أنك غيرت بيئة الاسكيميين ببيئة سكان نيو انجلند أو غيرت بيئة البريطانى ببيئة الحبشى لشاهدت تغيراً فى الاخلاق كبيراً، وانا لنستطيع أن نقول أن مكان ولادة الانسان ليحدد — الى درجة ما — كثيراً من صفاته أعامل أم حالم وكسول أم مجد ومتوحش أم متمدين»

وليس الانسان مكتوفاً امام البيئة لا يستطيع تعديلها أو التغلب عليها بل هو بما منح من عقل وارادة يستطيع ان يستخدم ما حوله في مصلحته، وبعبارة أخرى أن الصفات الموروثة تجد الفرص سانحة لرقيها في البيئة التي حولها، ومقياس نجاح الاشخاص في الحياة أو فشلهم هو قدرتهم على استخدام ما حولهم والتسلط على ما يحيط بهم ليحولوه الى نفعهم — ومن أهم أغراض التربية اعداد الشخص في الحياة لذلك

والنوع الثاني من البيئة «البيئة الاجتماعية» وهي تشمل النظم الاجتماعية التي تحيط بالشخص من منزل ومدرسة، ومهنة وحكومة وشعائر دينية، ومعتقدات، وأفكار، وعرف، ورأي عام، ومثل أعلى، ولغة، وأدب، وفن وعلم وأخلاق، وبالجملة كل ما أنتجته المدنية

والانسان في بداوته أكثر تأثراً بالبيئة الطبيعية فاذا نال حظاً من المدنية كان للبيئة الاجتماعية عليه السلطان الاكبر وصار أقدر على تغيير البيئة أو التسلط عليها او تعديل نفسه على وفقها، ففي الجو الحار يتخذ رقيق الثياب وأبيضها يتقي بها أذى الحر ويبني بيوته على نمط خاص برطب الجو، واذا لم يكن لبلده مرفأ على البحر يتخذ مرفأ صناعياً، وإذا لم تكن أرضه صالحة للزراعة استخدم العلم في اصلاح الارض، واذا قصرت القوة الطبيعية في شيء استخدم قوة أخرى طبيعية كالبخار والكهرباء لتعوضه عما فقد وعلى الجملة فالانسان وان كان يتأثر ببيئته طبيعية كانت أو اجتماعية الا أنه بما منح من

عقل يستطيع — الى حد ما — أن يعين البيئة التي تناسبه ثم يجتهد في خلق تلك البيئة

وللبيئة بنوعيها أثران متضادان فقد تغذي الانسان وترقيه وقد تضعفه وتفنيه، كالنبات في المنبت السوء لا تزال بيئته به حتى حتى تضعفه أو تميته وفي المنبت الصالح يربو وينبت من كل زوج بهيج « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً » ، كذلك الانسان أن نشأ في بيئة صالحة من بيت طيب ومدرسة راقية ورفقة مؤدبة، يحكمه قانون عادل ويدين بدين صحيح، نبت خير منبت وكون أحسن تكوين والا فما أحراه أن يكون شريراً — وكثير من الامراض الاجتماعية والاخلاقية سببه البيئة فالفقر وكثرة المتسولين والعجزة وسوء الخلق نتيجة تربية فاسدة — غالباً — ونشأة في وسط غير صالح وسوء نظام المجتمعات ولذلك ترى المجرمين من سرقة وكسالى وقتلة من أولاد الشوارع والحارات الذين لم يتخرجوا من بيت طيب ولا مدرسة صالحة، أهملوا فأثرت البيئة فيهم أسوأ الاثر

العلاقة بين الوراثة والبيئة — لم يبق مجال للشك في أن الوراثة والبيئة معاً يحددان قيمة كل جسم حي ونجاحه أو خيبته، وانما موضع الخلاف الآن القيمة النسبية لكل من الوراثة والبيئة أعني أيهما أكبر تأثيراً في الكائن الحي وأعمل في رقيه، وقد اهتم الباحثون المصريون بهذا الموضوع لما يترتب عليه من الاصلاحات

الاجتماعية وذهبوا فيه مذهبين: فذهب بعض العلماء وعلى رأسهم فرنسيس جالتون Franeis Galton وكارل بيرسن Karl Pearson الى ان الوراثة أكبر مؤثر في الانسان، وليست البيئة الا عاملا ضعيفاً إذا قيست بالوراثة — قالوا — « بالوراثة يقدّر على الانسان نوع نفسه من يوم ولادته، وبها تصاغ أخلاقه وبها تحدد بنيته وبها يعين مقدار عقله، وأهم ما يساعد على رقى النوع الانساني هو اصلاح الوراثة باصلاح الانتخاب بين الزوجين ومنع التوالد بين من لا يصلحون للانتاج طبيعياً أو خلقياً »

وذهب كثير من علماء الحياة والاجتماع — وخاصة المحدثين منهم — الى أن ما نسب الى الوراثة من القيمة الكبرى اكثر من الحقيقة، فأكثر العيوب الجسمية سببه البيئة لا الوراثة، وان أكثر من ثمانين فى المائة من الاطفال يولدون صحيحي البنية والبيئة هى التى تمرضهم وكذلك الطفل يولد مسلحاً بالعقل المرن القابل للنمو وحسن الاستعداد وهذا هو ما يمنحه بالوراثة ولكن رقى هذه المواهب يعتمد على البيئة، واذا نحن أزلنا الظروف السيئة التى تحيط بالاشرار صلح أكثرهم، وليس الاجرام كما يقول بعضهم مسألة وراثة، بل هو اكثر ما يكون نتيجة البيئة — وليس أدل على قوة أثر البيئة مما يشاهد من أن أبناء الحارات والشوارع إذا انتزعوا وهم صغار من بيئتهم الفاسدة تغيرت أخلاقهم تغيراً كبيراً وشبوا شباباً حسناً، وهم لو تركوا فى بيئتهم لشبوا متشردين أو

مجرمين حتى قال بعضهم « لا أثر للآباء مهما ساءوا اذا أخذت الاولاد منهم قبل أن يدنسوا بهم واحيطوا ببيئة طيبة ». ولو ان سقراط نشأ فى بيئة لا تساعد عقله على النمو ما كان فيلسوفاً بل كان رجلا خاملا وكذلك كل نابغ، وكثير مما ينسب الى الوراثة يجب — اذا دقق فيه — أن ينسب الى البيئة ولا سيما ما يسمونه بالوراثة الاجتماعية ويعنون بها النظام الاجتماعى للامة والنظم السياسية والافكار والآراء العامة فهذه تؤثر في عقول الافراد وتصوغها فى قالب خاص ثم يرثها الخلف من السلف — وهذه فى الاصل لم تكن الا بيئة

ومهما يكن من الخلاف فان البيئة والوراثة هما العاملان المكونان للجسم والعقل والخلق كما يقول الشاعر العربى

رأيت العقل عقلين   فمطبوع ومصنوع
ولا ينفع مصنوع   إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس   وضوء الشمس ممنوع

وكما يقول بعضهم هما كالمضروب والمضروب فيه اذا كان أحدهما صفراً كان الناتج صفراً أو يتضاعف أحدهما بالآخر، ولا تستطيع البيئة ومنها التربية أن تخلق شيئاً لم يكن ولا أن تجعل من الابله فيلسوفاً ولا من حرم خفة اليد مصوراً ماهراً ولكن يجب أن يحاط كل ناشىء بالبيئة الصالحة لتصلحه على قدر استعداده، ومن المستحيل أن يوزن كل من الوراثة والبيئة بالميزان الدقيق وتوضع نسبة دقيقة بينهما

الخلق

عرف بعضهم الخلق بأنه « عادة الارادة » يعنى أن الارادة اذا اعتادت شيئاً فعادتها هى المسماة بالخلق، فاذا اعتادت الارادة العزم على الاعطاء سميت عادة الارادة هذه خلق الكرم ، وقريب من هذا التعريف قول بعضهم هو تغلب ميل من الاميال على الانسان باستمرار ، فالكريم هو الذي يتغلب عليه الميل الى الاعطاء ويوجد عنده هذا الميل كلما وجدت الظروف الداعية اليه الا في أحوال نادرة، والبخيل من يغلب عليه الميل الى النقود ويفضله على البذل

وعلى هذا يكون الرجل الطيب هو الذى تتغلب عليه الاميال الطيبة باستمرار ، وعكسه الرجل الخبيث أو الشرير

أما من لايتغلب عليه ميل خاص باستمرار فلا خلق له ، فالذي يميل الى الاعطاء فيعطي مرة ويميل الى الادخار فى ظرف مثل ظرف الاعطاء فيبخل فليس كريماً ولا بخيلاً، وليس له خلق ثابت ، وكثير من الناس لا أخلاق لهم بهذا المعنى ، تختلف أميالهم وأعمالهم من آن لآخر ، يقابلهم الكريم فيحبب اليهم الكرم فيبذلون ويقابلهم البخيل فيدعوهم الى الشح فيضنون

من هذا نفهم أن الخلق صفة نفسية لا شىء خارجى ، أما المظهر الخارجى للخلق فيسمى « سلوكا » أو معاملة، والسلوك دليل

الخلق ومظهره ، فاذا رأينا معطياً يعطى باستمرار فى الظروف المتشابهة استدللنا من ذلك على وجود خلق الكرم عنده وهكذا، أما العمل الفذ الذى يحصل مرة أو مرتين فليس دليلا على الخلق

تربية الخلق — هناك أمور تعين على تربية الخلق وترقيته ، نذكر لك أهمها

(١) توسيع دائرة الفكر وقد علق عليه هربرت سبنسر أهمية كبرى في ترقية الخلق ، وحقاً أن الفكر الضيق مصدر لكثير من الرذائل ، وان العقل المخرف لا ينتج عنه خلق راق ، انظر الى جبن كثير من الناس تر سببه خرافات ملأت أدمغتهم من عفاريت وغيرها، وكثير من القبائل المتوحشة يعتقدون ان العدل انما يجب عليهم نحو أفراد قبيلتهم ، أما نحو غيرهم فليس من الظلم أن تسلب أموالهم ولا أن تهدر دمائهم

دائرة الفكر ان كانت ضيقة انبعثت عنها أخلاق منحطة كالذى نشاهد فى الأَثِر (الاناني) الذى لايحب الخير الا لنفسه ولا يرى فى الوجود من يستحق الخير الا هو ، وعلاج هذا أن يوسع نظره ليدرك قيمته فى أمته وليعلم أنه ليس الا عضواً من جسم ، وليس هو كما يزعم مركز الدائرة بل هو كغيره نقطة على المحيط

ضيق النظر يشل العقل ويصده عن رؤية الحق ويجعل أحكامه

التي يصدرها — سواء أكانت أحكاماً علمية أو خلقية — ناقصة أو باطلة — ألقى أستاذ محاضرة فى جامعة كاليفورنيا ذكر فيها أن بعض جبال « ألسكا » أعلى من جبال « كاليفورنيا » فتقدم اليه طالب بعد اتمام المحاضرة وقال له « انى ألاحظ شيئاً فى محاضرتك آلم عواطفى فأنا معشر الكاليفورنيين لانشاء أن نسمع أن جبالا أعلى من جبالنا » هذا مثل من ضيق العقل، فان حبه لبلده جعله لا يسمح لاحد أن يذكر أن جبلا أعلى من جبل بلده، وكثير من الناس أنظارهم في الحياة مثل هذا أو قريبة منه ، وعن هذا النظر القاصر تصدر أعمالهم وتتكون أخلاقهم ، اعتبر ذلك فيما جرى بين المتدينين بالاديان المختلفة كيف سالت الدماء بينهم أنهاراً وكيف كان النظر الضيق والتعصب الدينى مثاراً للفتن والنزاع والقتال ، بل تأمل فى نظر كل أمة الى اعمال الامم الاخرى والى مايحكم به كل فرد من أمة على عادات الامم الاخرى وأعمالها تر أنه يتحزب لامته ولا يعدل فى حكمه حتى قد يجره ذلك الى عد الظلم عدلا والعدل ظلماً — ولا يمكن للانسان أن يتخلص من هذا التحيز إلا اذا أحب الحقيقة أكثر مما يحب رأيه وأمته ، وشغف بالبحث عنها ، إذن يتسع نظره ويصح حكمه ويتبع ذلك رقى خلقه

(٢) صحبة الاخيار — مما يربى الخلق صحبة الاخيار ، فالانسان مولع بالتقليد ، فكما يقلد من حوله فى أزيائهم يقلدهم في أعمالهم ويتخلق بأخلاقهم قال حكيم « نبئنى عمن تصاحب أنبئك من

أنت » فمعاشرة الشجعان تلقى الشجاعة فى نفوس الجبناء، وهكذا ، وكثير من النابغين يعزون نبوغهم الى أنهم وفقوا الى اختيار صاحب أو أصحاب أثروا فيهم أثراً صالحاً ونبهوا فيهم قوى كانت خاملة

(٣) مطالعة سير الابطال والنابغين، فان حياتهم تتمثل أمام القارىء، وتوحى اليه بتقليدهم والاقتداء بهم ، ولم تخل كل أمة من أبطال لايقرأ القارىء ترجمة حياتهم إلا يشعر بأن روحاً جديدة دبت فيه وحركته للاتيان بعظائم الاعمال ، وكثيراً مادفع الناس الى العمل الجليل حكاية قرءوها عن رجل عظيم أوحادثة رويت عنه

ويتصل بهذا النوع الامثالُ والحكم فانها أفعل فى النفس ، وأقرب حضوراً الى الذهن ، وفيها تتركز المعانى المنبسطة كما يتركز البخار المنتشر ، فى قطرات المطر

علاج الخلق : كان أرسطو يقول « اذا تعدى خلق امرىء حده فليقومه بالميل الى ضده » فاذا أحس من نفسه بأفراط في نوع من الشهوات فليضعف هذا الميل بشىء من الزهد

وليلاحظ أنه خير للانسان اذا أراد التخلص من خلق سيء ألا يديم التفكير فيه وألا يطيل محاسبة نفسه ، بل يجتهد أن ينشىء محله خلقاً جديداً كريماً ، فان اطالة التفكير والمحاسبة قد تؤدى الى انكماش النفس والاحساس بضعفها ونقصها وفقدان الثقة بها ، أما أن هو أخذ ينشىء محل القديم السيء جديداً صالحاً نشطت نفسه وانفتح امامها باب الرجاء ، فمن كان سكيراً مثلا فلا يطل

التفكير فى أنه سكير الا بمقدار ما يتحول عن هذا العمل، وليوجه همه وميله الى عمل جديد كمطالعة كتاب لذيذ أو القيام بعمل عظيم يستغرق فكره، وينسيه سكره، ومن اعتاد أن يضيع أوقاته فى محال الملاهى وفى أندية اللعب فليرسم لنفسه خطة جديدة، ويحبب اليها عملا مفيداً فبذلك يتحول عنده الميل السيء الى ميل آخر صالح وهكذا

الوجدان
أو
الضمير (١)

يلاحظ الانسان أن فى أعماق نفسه قوة تحذره من فعل الشر اذا أغرى به، وتحاول أن تصده عن فعله، فاذا هو أصر على عمله وأخذ يفعل أحس بعدم ارتياح أثناء الفعل لعصيانه تلك القوة، حتى اذا أتم العمل أخذت هذه القوة توبخه على الاتيان به وأخذ يندم على ما فعل

كذلك يحس بأن هذه القوة تأمره بفعل الواجب، فاذا بدأ فى عمله شجعته على الاستمرار فيه، فاذا انتهى منه شعر بارتياح وسرور، وبرفعة نفسه وعظمتها

هذه القوة الآمرة الناهية تسمى «الوجدان» وهى كما رأيت

(١) كلمة الوجدان أو الضمير موضوعة لكلمة Conscience

تسبق العمل وتقارنه وتلحقه، فتسبقه بالارشاد الى عمل الواجب والتحذير من المعصية، وتقارنه بالتشجيع على اتمام العمل الصالح والكف عن العمل السيء، وتلحقه بالارتياح والسرور عند الطاعة، والاحساس بالألم والوخز عند العصيان

هذا الوجدان نشعر به كأنه صوت ينبعث من أعماق صدورنا، يأمرنا بعمل الواجب ويحذرنا من المخالفة ولو لم نرج مكافأة أو نخش عقوبة خارجية، ركبت سيدة باخرة فلما وصلت الى المكان الذى تقصده ساعدها انسان فى حمل متاعها فأعطته نوعاً من العملة ظنته قطعة من ذات القرشين فبعد قليل أدركها وأخبرها أن ما أعطته انما هو نصف جنيه، لم تر السيدة هذا الانسان من قبل ولا تتوقع أن تراه من بعد، وما كان يخشى أحداً يعلم بما حصل، فما الذى حمله على أن يرد ما أخذه خطأ؟ لاشيء الا الوجدان يأمر صاحبه بعمل الواجب لا لمثوبة ولا لعقوبة الا مثوبة نفسه بارتياحها وعقوبتها بالندم والتأنيب

نشوء الوجدان: كثير من الحيوانات التى تعيش جماعات تخضع لعادات تعورفت فيما بينها ويكون مخالفها محلا للعقوبة من سائر القطيع، ويظهر أن كل فرد منها يشعر نوعاً من الشعور أن هناك أشياء يجب أن تعمل واشياء يجب أن تترك

والكلاب من هذا القبيل، عندها نوع ادراك طبيعى للواجب، ويرقى هذا الشعور بمخالطتها للانسان حتى لترى الكلب

قد يفعل فى الخفاء جرماً كأن يسرق شيئاً من سيده ، أو يخالفه فى أمر أمره به ، فيظهر على الكلب نوع من الاضطراب والقلق يعد جرثومة للوجدان. فاذا رقى كان هو الذى نشاهده فى الانسان ،

ولما كان الانسان بطبعه ميالا لأن يعيش عيشة اجتماعية خلق وفى طبيعته الميل الى عمل مايرضى مجتمعه ، والنفور مما يخالفه ، حتى لنرى جرثومة ذلك فى الطفل الصغير ، يعلوه الخجل أحياناً فتتبينه فى نظرته ، ويدلنا اضطرابه وقلقه على انه ارتكب خطأ ، وينمو هذا الشعور بنمو الانسان حتى يصل به الى حد أن يملأه الفرح والغبطة اذا هو أدى الواجب ، ويذوب أسفاً وندماً اذا عصا ما يأمره به الوجدان

هذا الشعور طبيعى عند الناس حتى عند من لم يتعلم ، والتربية ترقيه كما ترقى كل قوى الانسان وملكاته ، فالمتوحش عنده الشعور فى حالة السذاجة كشأنه فى حديثه وعرفه وحالته الاجتماعية ، والمتمدين عنده هذا الشعور فى حالة راقية ، حتى قد يدفعه الى بذل نفسه دفاعا عن حرية قومه

اختلاف الوجدان : من هذا يمكن أن نفهم أن الوجدان مختلف اختلافاً كبيراً بين الأمم حتى المتمدينة منها ، فهى مختلفة فى تقويم الخير والشر ، ويتبع ذلك اختلافها فى الوجدان . فالكسل فى البلاد الباردة أشد مقتاً منه فى البلاد الحارة وكذلك الصدق والشجاعة والعدل وسائر الفضائل ، فانها وان اتفقت الامم

فى عدها فضائل الا أنها لا ترتبها ترتيباً واحداً . ولا تشعر أمة بأهمية كل فضيلة منها كما تشعر الاخرى . ويتبع ذلك اختلاف الوجدان ، فاذا شعرت أمة بعظم فضيلة كان الوجدان أكثر إيجاباً للاتيان بها وأقوى أمراً فى اتباعها .

كذلك يختلف الوجدان باختلاف العصور فاذا قارنت وجدان أمة الآن بوجدانها منذ قرنين أو ثلاثة مضت وجدت فرقاً كبيراً ، فمن قرون كان الاسترقاق مألوفاً وكانت المرأة تعامل معاملة قاسية وما كان الوجدان يستنكر ذلك . واليوم تستهجن الامة كل ذلك وتعيب من ارتكب شيئاً منه

بل الشخص الواحد يختلف وجدانه باختلاف زمانه فقد يرى شيئاً خيراً فى زمن حتى إذا رقى فكره رآه شراً والعكس . كالذى شاهدناه فى عصرنا هذا : قد كنا منذ سنين قلائل نرى أفراداً من كبار الامة المصرية يوسعون مجال الخلف بين المسلمين والاقباط حتى عقدوا لذلك مؤتمراً للمسلمين وآخر للاقباط يقوم فى كل مؤتمر عظماء ملته فيؤيدون مطالبهم ضد الفريق الآخر وفريقهم يصفق لهم . واليوم نرى هؤلاء المفرقين بين الطائفتين من أكبر دعاة الوئام وأصبحوا هم يرون الدعوة الى التفريق من أكبر الجرائم وأعظم الشرور . ذلك لان نظرهم اتسع فرأوا الشر فيما كانوا يرونه خيراً ونهاهم وجدانهم عما كان يأمرهم به من قبل

خطأ الوجدان : مما تقدم نستنتج أن الوجدان ليس بالهادى المعصوم ، فقد يخطيء فى ارشادنا إلى الحق والواجب فيأمرنا بعمل ماليس بحق ولا واجب . ذلك لان الوجدان إنما يأمر باتباع مايعتقده الانسان حقاً . فاذا كان هذا الاعتقاد خطأ كان الوجدان لامحالة مخطئا — وكثيراً ما يروى لنا التاريخ أعمالا فظيعة عملت بأرشاد الوجدان . ومن أوضح الامثلة على ذلك محكمة التفتيش فى اسبانيا وذلك أنه فى عهد فرديننـد وازابلا (ملكى اسبانيا) كان يقيم فى تلك البلاد كثير من اليهود وقد دخل بعضهم فى دين النصرانية أما لاعتقادهم بصحتها وأما قصداً إلى سهولة قضاء أعمالهم ومآربهم . وقد اغتنى كثير من هؤلاء المتنصرين وكانوا ممقوتين من اليهود والنصارى جميعاً . كرههم اليهود لانهم خرجوا من دينهم والنصارى لاعتقادهم أنهم منافقون يبطنون اليهودية ويتظاهرون بالنصرانيـة . فرجا راهبان الملك والملكة أن يعينا مفتشين يكشفون عن أمر هؤلاء ، فان عرفوا أنهم ليسوا نصارى حقا قتلوهم أو عذبوهم فقبل الملك وتوقفت الملكة حتى أفهمها الراهبان أن النصرانية أصبحت فى خطر من المتنصرين فسمحت ، وعينت مفتشَين سنة ١٤٨٠ م وابتدآ بفحص اليهود المتنصرين ثم اتسعت سلطتهما فشملت المسلمين والنصارى جميعا ، فكان يؤتى بمن يتهم بأنه ليس كاثوليكيا ويسجن ثم يسأل . فان أجاب بما يتفق مع الكثلكة لم يقبل منه ويعذب حتى يضطره العذاب ان يقول ماينافي الكثلكة

فيأمر المفتشان بأحراقه حيا او تعذيبه عذابا شديداً ، فكان مجموع ما احرق فى السنة الاولى ٢٠٨ فى اشبيلية واكثر من الفين فى البلاد الاخرى وبعد ان كانت ازابلا مترددة في تعيين المفتشين كانت تشجعهم على أعمالهم . وطلبت من البابا أن يوسع سلطتهم ويمنحهم الحرية فى تدخلهم فى أسرار الناس ، فحبسوا كل من يتهم بالزندقة ، وأهملوا المتهمين فى السجن ماشاءوا من غير أن يحاكموهم وكان أخلص الناس للكثلكة عرضة للتهمة ، ولا يقال للمتهم عمن اتهمه . وبذلك عذب مئات الآلاف ، وكان أكثر القائمين بهذا التعذيب معتقدين الحق فيما فعلوا وانهم انما يطيعون وجدانهم فيما يفعلون

ومع أن الوجدان قد يخطيء فلا بد من اطاعته لان الانسان مأمور بعمل ما يعتقد أنه الحق لا بعمل ما هو حق فى الواقع ، فالذى يرى شيئاً حقاً ويأمره وجدانه بعمله ملزم بالطاعة . وهو معذور لو تبين بعدُ أن العمل كان ضاراً . وسنبين فى « الحكم الاخلاقى » أن العمل يحكم عليه بانه خير أو شر نظراً لغرض العامل لانظراً لنتائجه ، فالذى يطيع وجدانه دائماً خيرولو تبين خطؤه فيما بعد ، أعنى ولو كان عمله ضاراً — ولكن يجب علينا أن نضيء السبيل أمام الوجدان بتوسيع العقل وتقوية الفكر فليس الوجدان الا تابعا للعقل ، فمايراه العقل خيراً يأمر به الوجدان . فاذا نحن قوّينا عقلنا ووسعنا نظرنا في حكمنا على الاشياء بالخيرية أوالشرية كان الوجدان هادياً مرشداً

يجب أن نسمع لصوت الوجدان ونأتمر بأمره ولو خالف رأى من حولنا ووجدانهم . ولا نجعل للخجل وخشية كلام الناس سلطاناً علينا . فان الحق الذى يلزمنى اتباعه ما أراه الحق لا ما قال الناس أنه الحق

تربية الوجدان : — الوجدان — ككل ملكات الانسان وقواه — يمكن ان ينمى بالتربية ويضعف بالاهمال، فبأهمال الوجدان أو عصيانه يضعف أو يموت كمن منح ذوقاً حسناً فى سماع الغناء ثم أهمل السماع مدة طويلة فأنه يضعف ذوقه أو ينعدم كالذى حكى عن « دارون » انه كان فى صباه مغرماً بالشعر ولكنه أهمل قراءته والنظر فيه ففقد هذا الميل في آخر حياته ولم يعد يشعر بما للشعر من جمال — وهذا هو الشأن في الوجدان يأمرك مرة بعمل فتعصيه فتحس بلذع أهونُ منه لذع الحريق، فاذا عدت إلى عصيانه أحسست بألم دون الالم الذى تشعر به عند أول مخالفة ، ولا يزال الانسان يتبع السيئة السيئة حتى لا يشعر بأى نوع من اللوم والتأنيب لان صوت الوجدان قد خفت ، وسلطانه قد ضعف ، وكما يضعف الوجدان بالاهمال أو العصيان يضعف بصحبة الاشرار أو اطالة القراءة فى الكتب السافلة ، فكلا الامرين يخدر الوجدان كما تفعل العقاقير المخدرة بالجسم

ويربي الوجدان بالطاعة ، فيعظم سلطانه ويرق احساسه . ومن أجل هذا كان قانون البلاد مما يساعد على نمو الوجدان .

فانه اذا كان صالحاً وأمر بما يأمر به الوجدان كان الانسان أقرب الى الطاعة فيعظم سلطان وجدانه

وكبار المصلحين فى كل أمة يقوون الوجدان ويزيدون فى إحساسه ويُشعرون الناس بما للشىء الذى يصاحبونه من خطر وأهمية فيلهبون وجدانهم بما يقولون أو يكتبون

درجات الوجدان : للوجدان درجات ثلاث

الدرجة الاولى : شعور بعمل الواجب خوفا من الناس ويكاد لا يخلو انسان من هذا النوع حتى لنجده فى المتوحشين والمجرمين والاطفال وبعض الحيوانات . وهذا الشعور يحمل كثيراً من الناس على عمل الواجب ، ولولاه ما عملوا فكثير من الجنود لا يفرون من ساحة القتال خوفا أن يعيَّروا ، وكثير من الناس يصدقون خشية ان يعرف عنهم الكذب فيسقطوا من عين من حولهم ولهذا النوع من الوجدان عيبان : — الاول أن أمثال هؤلاء عرضة للوقوع فى الرذائل إذا أمنوا رؤية الناس لهم وخلوا وانفسهم . والثانى أنهم اذا أصيبوا بوسط سافل لم يخجلوا من عمل الشر ولم يخشوا رأى أحد فيندفعوا في ارتكاب الجرائم وتسوء عاقبتهم

الدرجة الثانية : شعور بضرورة اتباع ما تأمر به القوانين سراً وجهراً . سواء اكانت قوانين اخلاقية أو وضعية . وهذا النوع من الوجدان أرقى من النوع الاول ، صاحبه يلزم نفسه بالخضوع للقوانين ولو أمن العقوبة ، يؤدى الامانة إلى أهلها ولو لم

تكن شهود عليها ، يحافظ على وعده والكلمة تصدر منه كما يحافظ على تنفيذ عقد امضاه لان القانون الاخلاقى يأمر بالوفاء بالوعد ، والقانون الوضعى يلزمه بتنفيذ العقد . وهو خاضع لكلا القانونين ، الطالب من هذا النوع لا يغش أحداً وان أمن العقوبة ، ولا يكذب وان نال من الكذب فائدة ولا يحاول الغش في امتحانه وان غفلت عنه عين الرقيب لانه ملزم نفسه باتباع القوانين سراً أو جهراً ، بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس ، وا كثر الاخيار من هذا الصنف

الدرجة الثالثة : لا يصل اليها الا عظماء الناس وكبار المصلحين وهى شعور بضرورة اتباع ما تراه نفسه حقاً ، خالف رأى الناس أو وافقهم ، خالف القوانين المتعارفة عند الناس أو وافقها . وهذا النوع أرقى أنواع الوجدان ، يأمر صاحبه باتباع ما يوحيه اليه رأيه مهما كلفه من الصعاب . لا يتقيد الا بما يراه هو حقاً . ينفذ نظره وراء القواعد والقوانين المتواضع عليه ليعرف أساس الحق فان وصل اليه عمل به ولو خالف رأى الكبراء والعظماء . بل ولو خالف رأى الأمة بأجمعها — وقد يصل الامر بهذه الطبقة من الناس الى عشق الحق والهيام به فيهون عليهم انفسهم وأموالهم فى سبيل نصرة الحق وتأييده . وهذه مرتبة الانبياء وخيرة المصلحين لا يخافون فى الحق لومة لائم . ويدعون الناس الى الحق ولو جر ذلك عليهم الموت . ويعملون وفق عقيدتهم وان عذبوا واهينوا . قال (فرعون لاصحاب موسى) آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر

فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما انت قاض ، انما تقضي هذه الحياة الدنيا »

وهذه الدرجات الثلاث يسلم بعضها الى بعض ، وليس من كان فى درجة قد حكم عليه ألا يفارقها ، بل بتربية الوجدان يتدرج فى الرقى

أهمية الوجدان : — أن حياتنا وسعادتنا فى هذه الدنيا متوقفتان على أمانة العمال واتقان عملهم ، فصناع السفينة أو القاطرات اذا لم يتقنوا عملهم عرضوا حياة أنفس كثيرة للاخطار ، وقل مثل ذلك عن الاطباء والمهندسين والمدرسين وكل ذى مهنة

وان الامة لا تكون سعيدة حتى يقوم رجال الأمن بواجبهم ويعنى رجال الصحة بأعمالهم ، وهكذا

وانما يحمل الناس على أداء واجبهم واتقان صناعتهم ومهنتهم وجدانهم المركوز فى طبائعهم وأعماق نفوسهم ، فهو الذي يطالبهم بالدقة فيما يعملون لا رغبة في مثوبة ولا خوفاً من عقوبة ، فاذا فقدت أمة وجدانها فقد فقدت سعادتها بل وحياتها

المثل الاعلى

قبل أن نشرع فى بناء بيت يضع المهندس له رسماً ، وقبل أن يضع هذا الرسم كان فى ذهنه صورة كاملة للبيت يستملى منها صورته التى يرسمها . وكذلك الشأن فى واضع الرواية . قبل أن

يخرجها الى الوجود كانت مرسومة فى ذهنه

وكل انسان يجب ان تكون عنده صورة كاملة لما يود أن تكون عليه حياته المستقبلة. وكثيراً مايسائل الانسان نفسه ماذا أكون؟ فالصورة التي في ذهننا نود تحقيقها ونستملي منها النجيب على هذه الاسئلة تسمى في عرف الكتاب الحديثين المثل الاعلى

وهو يميز الانسان عن غيره من الحيوان فانا نرى الحيوانات تعيش على نمط واحد، ليست في رقى مستمر، فمعيشة القط قديماً هي معيشته اليوم، وكان النحل يبنى خلاياه على أشكال مسدسة كما يبنيها الآن: أما الانسان فدائم الرقى لان أمامه « مثلاً أعلى » يجد فى الوصول اليه وكلما قرب منه سبقه المثل

ويجب أن يكون لكل انسان « مثل أعلى » يسعى لتحقيقه ويوجه أعماله للوصول اليه، ذلك لان الانسان فى هذه الحياة كقائد السفينة في البحر المتلاطم الامواج لايمكن أن يصل إلى المرفأ حتى يعرف أين المرفأ ويرسم خطة للوصول اليه والا تنكب وكانت سفينته عرضة للارتطام — وكذلك يحيط بالانسان قوى مختلفة : شهوات تتجاذبه وصعوبات تعترضه ومؤثرات متباينة فان لم يحدد غرضه ويعين مثله الاعلى تقسمته هذه القوى واضطربت مسالكه

وللمثل الاعلى تأثير فى النفوس فهو دائم الشخوص أمام نظر الانسان يجذبه نحوه ويدعوه لان يحققه . وان اعمال الانسان

وطريقته فى الحياة لتدل على مثله الاعلى ماهو . — وكل المؤثرات فى الاخلاق من بيئة ومنزل وتعليم انما تصلح الانسان بواسطة اصلاح المثل الاعلى اما المؤثر الوحيد مباشرة فهو ذلك « المثل »

اختلاف المثل الاعلى : تختلف المثل العليا عند الناس اختلافاً يكاد يكون بعدد رؤوسهم فهذا مثله الاعلى رجل غنى متمتع بكل ملذات الحياة، وذاك مثله انسان كامل العقل قد تفوق فى العلوم وتضلع من المعارف. وآخر مثله وطنى يدافع عن حقوق وطنه ويرفع مستوى أمته. كذلك يختلف بساطة وتركبا فقد يكون مثل شخص صورة بسيطة رسمها مما يسمعه من والديه، وقد يكون مثل آخر صورة مركبة قد رسمها بعد أن بحث الاخلاق بحثاً علمياً وعرف الفضائل ورتبها حسب ماصح عنده من مقياس الخير والشر — والانسان الواحد يختلف مثله من حين لآخر والامة الواحدة تختلف مثلها كلما تدرجت فى معارج الرقى، وليست الصعوبة أن يجد الانسان أو الامة مثلا أعلى، فالمثل كثيرة لاعداد لها. وانما الصعوبة اختيار أحسنها وأنسبها

وليس في وسع الاخلاق ولا الفيلسوف أن يرسم مثلاً أعلى دقيقاً يوافق كل انسان وكل أمة، فالمثل الذى يتفق مع غرائز أحد ودرجة عقله من الرقى والبيئة التى تحيط به قد لا يوافق الآخر لاختلافه فيما ذكرنا اللهم إلا اذا رسم الاخلاقى أو الفيلسوف صورة عامة اقتصر في رسمها على ما يوافق سواد الناس كالخياط

يعمل ثوباً واسعاً يصح أن يلبسه كثيرون مع تعديل بسيط

وكل الذى نستطيع أن نقوله أنه ينبغى أن يكون المثل الاعلى للشخص صورة كاملة تمثل خير انسان يستطيع الشخص أن يكونه فى كل شأن من شؤون حياته ، ففى عمله مثله أن يكون أحسن مايستطيع من جد وأمانة واتقان ومهارة ، وفي سياسته لنفسه مثله أن يكون ضابطاً لنفسه يعمل بأرشاد عقله ، وفى معاملته للناس مثله أن يعاملهم كما يحب أن يعامل وان يحب الخير لهم كما يحبه لنفسه

مم يتكون المثل الاعلى : أهم عامل في تكوين المثل المنزل والمدرسة والدين فتربية الناشىء المنزلية ومايسمعه من أبويه والنظام الذى يسير عليه بيته ، وما يراه فى المدرسة وما يسمعه من مدرسيه وما يلزمونه بقراءته من الكتب ومايحببونه اليهم من عظماء الرجال ، والدين الذي يتدين به ومايحويه من نظام وما يرسمه من شكل الحياة الاخرى كل ذلك له أكبر الاثر فى تكوين المثل الاعلى ، وكذلك غرائز الانسان الطبيعية لها أثر كبير فى انتخاب الصورة التى تتخذ مثلا ، فالاميال الموروثة من شجاعة وهمة أوجبن وخمول تعين على تحديد المثل الاعلى ، وهى عامل قوى في تكوينه

نمو المثل : يكاد يكون لكل انسان مثل أعلى ولكن لا يشعر من أين أتاه . وسبب ذلك أن المثل يتكون مع الانسان فى نشأته وينمو بنموه ، فلم يكن شيئاً جديداً منفصلا عن الانسان حتى يشعر به ويعرف متى أتاه ومن أين جاءه . يتكون المثل جرثومة

في أثناء التربية المنزلية ، ويكون لما يسمعه من القصص ولو خرافية دخل في تكوينه ، ثم يتوارد عليه التغيير كلما وجد مؤثر جديد ، من رواية يقرؤها أو حكاية يسمعها ، أو تمجيد لعمل عظيم ، أو ذم لعمل حقير ، وان في طبيعة الناشئين فى أول حياتهم ميلا إلى سماع قصص الابطال ، وكبار الاعمال ، وعجائب الحوادث ، وذلك — ولاشك — مما يساعد على تنمية المثل عندهم ، فاذا خرج الشاب إلى معترك الحياة كان لتجاربه فى عمله وتبادل الاخذ والعطاء مع الناس مايحدد غايته فى الحياة وينير أمله ، ويوضح مثله ، وباتساع نظر الانسان في الحياة وكبر عقله يكمل المثل وتتم اجزاؤه

وكما أن المثل عرضة للكمال والاتساع كما بينا كذلك هو عرضة للنقص والضيق ، فالعمال الذين يقضون حياتهم فى عمل يدوي محدود ثم لا يصادفون بعد قضاء نهارهم مايفيد عقلهم أو يوسع نظرهم يضيق مثلهم ، ويتحدد أمامهم ، وذلك شأن طائفة كبيرة من العمال كعمال الترام وكتبة الدواوين الذين لايؤدون في الحياة غير عملهم الآلى فلا يرقون مداركهم ، ولا يوسعون أنظارهم ، وحياتهم ليست إلا يوماً متكرراً . وفى ضيق المثل خطر عظيم ، فالمثل هو الذى يبعث فى الانسان روح العمل ، ويزيد فى نشاطه وقوته ، وهو الذى يصحح حكمه على الاشياء ، فالانسان عادة عند الحكم على شيء أو نقده يقيسه بمثله ثم يحكم بالخطأ أو الصواب وبالخير أو الشر ، فاذا تحدد المثل وضاق قل نشاطه وساء حكمه ، وعلى العكس من ذلك إذا رقى مثله

الكتاب الثانى

ف

نظريات العلم وتاريخه

مقياس الخير والشر

إذا أردنا أن نعرف طول حجرة عمدنا إلى وحدة المقاييس وهى المتر مثلا فعرفنا به مقياس الحجرة ، وكذلك الشأن إذا أردنا أن نعرف وزن الشيء أو كيله ، فما المقياس أو الميزان الذى نعرف به الخير والشر ؟ إن الناس كثيراً ما يختلفون فى نظرهم إلى الشيء فمنهم من يراه خيراً ومنهم من يراه شراً بل الشخص الواحد قد يرى الشيء خيراً فى آن ثم يراه شراً فى آن آخر ، فما هذا المقياس الذى بملاحظته نصدر حكمنا على الاشياء بالخيرية أو الشرية ؟ في الاجابة على هذا السؤال اختلفت الآراء ونحن ذاكرون أشهرها

(١) العرف

الانسان فى كل زمان ومكان متأثر بعادات قومه لانه ينشأ في أمته فيرى قومه يعملون بعض الاعمال ويتجنبون بعضاً آخر ولم تكن نمت عنده قوة الحكم على الاشياء فيقلدهم في كثير مما يعملون أو يجتنبون

ومنشأ هذه العادة القومية — وبعبارة أخرى العرف — أن الناس الاولين جربوا كثيراً من الاعمال فرأوا في بعضها منفعة

لهم فاعتادوها وحضوا على اتباعها ، وزادت قوة باتباع الاجيال التالية لها وسيرهم عليها حتى صار يعد منتهكها مجرماً

وقد أتى على الناس زمان كانوا يرون فيه الخير ماوافق العرف والشر ما خالفه ، ومالم يكن فيه عرف فالناس فيه أحرار يفعلون ما يشاءون ، بل كثير من العامة وأشباههم فى زمننا هذا يرون ذلك فيعملون ما يعملون لالشيء إلا انه يتفق مع عوائد قومهم ويجتنبون ما يجتنبون لان قومهم لا يعملون ، فمقياس الخير والشر فى نظرهم عرف قومهم ، ترى كثيراً من العامة يمرض أحد أفراد أسرته فلا يستدعى له طبيباً لان وسطه لا ينتقد ذلك ، ولكن إذا مات انفق النفقات الكثيرة في عمل المأتم ونحوه لانه ان لم يفعل عيره وسطه لمخالفته مألوفهم وهكذا

ولكن بالبحث يتبين أن العرف لا يصح أن يتخذ مقياساً ، ذلك لان كثيراً من الاعمال التى يتضح لنا الآن خطؤها وضوحاً جلياً كان بعض الامم يبرر عملها ويأمر بها ، فوأد البنات عند بعض قبائل العرب فى الجاهلية لم يكن معيباً ولا خطأ « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون » فلما جاء الاسلام نهاهم عن هذه العادة وأبان خطأهم ، وعند الرومان كان للأب الحق فى اماتة أولاده وأحيائهم — والرق مع ما كان يغلب فيه من المعاملة القاسية لم يبطل من مستعمرات

أوروبا إلا فى القرن الماضى — وفى أواسط أفريقا لا يأمن السالك السير بين سكانه المتبربرين لأنهم يعتقدون أن ليس عليهم فى الاجانب سبيل فلا يرون خطأ قتلهم، ولا من الواجب عليهم حفظ حياتهم ونحن نحكم الآن بخطأ هذه العادات ونستنكرها — واذا كان العرف كثيراً ما يكون خطأ فلا يصح أن نتخذه مقياساً لاعمالنا نعرف به الخير من الشر

وأيضاً — لو أن الناس جروا على هذا المبدأ لم يتقدم العالم عما كان عليه من قديم، لانه انما يتقدم بأولئك القوم الذين يرون خطأ ماعليه قومهم وعندهم من الشجاعة ما يمكّنهم من أن يخالفوا العرف ويدعوا للحق، فيجاهرون بالمخالفة، ويندّدون بالقديم، ويعرضون أنفسهم للاذى، فيلتف حولهم كثير من الناس ويأخذ رأيهم فى الانتشار حتى يحل الجديد الحق محل القديم الخطأ

على أنّ جرى الناس على هذا المقياس مع عدم صلاحيته كان له بعض الفائدة، فقد منع الناس أن يصادموا العادات الصالحة فكم من ممتنع من السرقة وشرب الخمر ليس إلا جرياً مع العرف وخوفاً من وسطه ينتقده ويحتقره

مذهب السعادة (1)

بعد أن بحث الفلاسفة فى مقياس الخير والشر بحثاً علمياً ذهب بعضهم إلى أن المقياس هو السعادة أى أن السعادة هى الغاية

(1) يسمى هذا المذهب Hedonism

الاخيرة للحياة، وان شئت فقل هى غاية الغايات للانسان ويعنون بالسعادة اللذة والخلو من الالم، فاللذة عندهم هى مقياس العمل فالعمل خير بمقدار مافيه من اللذة وشر بمقدار مافيه من الألم

وليس مذهب السعادة يقول أن الانسان ينبغى أن يطلب اللذة فحسب — لان كل عمل لا يخلو من لذة — بل يقول ينبغى أن يطلب أكبر لذة فاذا خير الانسان بين جملة أعمال وجب أن يختار أكبرها لذة

وينبغى عند تقدير اللذة مراعاة شيئين: الشدة والمدة. وكذلك الألم فانه يعتبر لذة سالبة، فاذا كان عندنا ثلاث لذائذ تقدر على التوالى بـ٣ و٤ و ٥ فان اللذة التى مقدارها ٥ تفضل التى مقدارها ٣ أو ٤ . و٣ + ٤ تفضل ٥ وهكذا، واذا كانت آلام تقدر بـ-٣ ، و-٤ و-٥ فان -٣ تفضل -٤ و -٥ . و -٤ تفضل -٥ وهكذا واذا كان فى عمل لذة قدرها ٤ وألم قدره -٤ كان الاتيان بالعمل وعدمه سيين. واذا استوت لذتان فى الشدة فضلت أطولهما مدة

والذين ذهبوا هذا المذهب انقسموا إلى قسمين فمنهم من قال أن المقياس هو لذة العامل الشخصية ويسمى هذا مذهب السعادة الشخصية ومنهم من قال ان المقياس هو لذة كل المخلوقات الحساسة ويسمى مذهب السعادة العامة ولنشرح لك المذهبين

١ — السعادة الشخصية (١)

هو المذهب القائل أن الانسان ينبغى أن يطلب أكبر لذة لشخصه ويجب أن يوجه أعماله للحصول عليها

فعلى هذا المذهب اذا تردد انسان بين عملين أو تردد فى عمل أيعمله أم يتركه فليحسب ما فيه من اللذائذ والآلام لشخصه ويوازن بينهما ، فما رجحت لذائذه فخير ، وما رجحت آلامه فشر وما تساوت فيه اللذائذ والآلام كان فيه مخيراً

وقال أصحاب هذا المذهب ان كل انسان يجب أن يبحث وراء لذائذه هو وسعادته ويعمل مايوصله إلى ذلك ، والعمل الذى يوصل إلى تلك الغاية أو يقربه منها يكون خيراً

ومن أكبر زعماء هذا المذهب « أبيقور » (فيلسوف يوناني شهير عاش ٣٤١ — ٢٧٠ ق م) وهو يري أن ليست تقاس الاعمال باللذات والآلام الوقتية فحسب ، بل الواجب أن يرمى الانسان بنظرة على جميع حياته ويحسب ما يستتبعه العمل من لذة وألم فى الحياة ، فشرب الدواء المر يسبب ألماً ولكن لانه قد يذهب ألماً أكبر منه وهو الم المرض يكون خيراً — والعاقل فى استطاعته ان يرفض لذة حالّة للحصول على لذة اكبر منها مؤجلة، ومن اجل هذا فضل اللذة العقلية على اللذة الجسمية ،

(١) يسمى هذا المذهب Egoistic Hedonism

فان اللذائذ الجسمية السريعة الزوال لاتعد شيئاً إذا قيست بتلك اللذة الباقية لذة العقل وتحصيل العلم التى بها تطمئن النفس ومنها يتخذ الانسان عدة لحوادث الدهر وصروف الزمان ، وعلى هذا المذهب انما كانت الفضائل فضائل لانها تسبب للعامل لذة كبرى فالعفة مثلا فضيلة والدعارة رذيلة لانه لو دقق فى حساب مايجده العفيف من اللذة فى رضائه عن نفسه وبعده عن الآلام التى تنتجها الدعارة واحترام الناس له وثقتهم به لوجد أنه يرجح مايجده الداعر من لذة وقتية يتبعها الم النفس ، وفقد الثقة ، وتعريض الصحة والمال والشرف للضياع ، وهكذا القول فى الصدق والكذب والامانة والخيانة

وقد غلط بعض الناس ففهموا ان مذهب ابيقور يدعو إلى الانهماك فى اللذات الجسمية والجرى وراء الشهوات حتى أطلقوا كلمة « ابيقورى » على الداعر الفاجر مع ان تعاليم ابيقور بعيدة عن ذلك ، وقد ندد هو نفسه في بعض كتبه بمن يفهم من قوله هذا الفهم السقيم

وقل من قال بهذا المذهب فى العصور الحديثة وممن قال به هوبز (١٥٨٨ — ١٦٧٩ م) واتباعه. وقد رجعوا كل عواطف الخير في الانسان الى حبه لنفسه وطلبه لذته هو، وقالوا ينبغى الا نحكم على عمل بأنه خير إلا بمقدار مافيه من اللذة للعامل ولا شر الا بمقدار مافيه من الألم

وعيب هذا المذهب انه يجعل صاحبه اثِراً (انانياً) لا ينظر فى اعماله الا الى لنفسه ،مات الناس اوعاشوا . انتفعوا أوتضرروا، اذا رغب في وصول منفعة للناس فانما ذلك لانها تجر المنفعة اليه، واذا تألم من شر نال احداً فانما يكون لان جزءاً من الشر يناله هو، وفي الناس فى كل زمان قوم يسيرون فى حياتهم العملية على هذا المذهب وان لم يسمعوا به ولم يعرفوا شيئاً عنه، تراهم فى كل طبقة من طبقات الناس ، في الاغنياء والصناع والعمال والموظفين والتجار ،أولئك لا يلاحظون فى أعمالهم الا انفسهم ،ينظرون إلى غيرهم من الناس كما ينظرون إلي متاع يستخدمونه لمصلحتهم ، عندهم الانسانية والوطنية والتضحية ونحوها سخافات ، إنما الفضيلة فى نظرهم أن يبحثوا وراء لذتهم وينشدون مع الشاعر

« إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر »

وقد جاءت الاديان من نصرانية وإسلام فأوجبت التضحية عند الحاجة ، وحببت إلى الناس الايثار والاحسان ، فكان فى انتشار هذه التعاليم ما عاق هذا المذهب عن الانتشار ، فان الشرف والتضحية والايثار لاتتفق مع الأثرة وحب النفس

وقد اعترض على هذا المذهب بجملة اعتراضات

١ اذا كانت اللذة الشخصية هى المقياس فمن الصعب إن لم يكن من المستحيل عد الاحسان فضيلة مع اجماع الناس على عده كذلك

٢ لا معنى لفضيلة ولا رذيلة ولا خير ولا شر إلا إذا روعيت

علاقة الناس بعضهم ببعض ، وبعبارة أخرى إلا إذا عد الفرد عضواً في جمعية ، وهذه العضوية تجعل له حقوقاً وعليه واجبات وهذه الحقوق والواجبات ملحوظ فيها مصلحة الناس ومضرتهم أو لذتهم وألمهم، وهذا ينافى أن تكون اللذة الشخصية مقياساً

٣ هذا المذهب يستلزم احتقار من ضحوا لذتهم وحياتهم لمنفعة الناس وتكريم من ضحى سعادة الناس وحياتهم لمصلحته هو — ولا قائل بهذا —

ب — مذهب السعادة العامة (١)

جملة هذا المذهب أن ما ينبغى أن يطلبه الانسان فى الحياة هو أكبر سعادة للنوع البشرى بل لكل حساس، ولتوضيح ذلك نقول عند الحكم علي عمل بأنه خير أو شر يجب أن ننظر فيما ينتجه العمل من اللذائذ والآلام لا لأنفسنا فحسب بل للنوع البشرى جميعه ، بل لكل حيوان ، ولكل كائن يناله لذة من العمل أو ألم — وينبغى ألا نقصر نظرنا على اللذائذ غير المباشرة والحاضرة بل ينبغى أن يشمل نظرنا كذلك اللذائذ غير المباشرة والبعيدة. ثم نجمع ما ينتجه العمل من اللذائذ وماينتجه من الآلام فان رجحت لذائذه آلامه فخير ، وان رجحت آلامه لذائذه فشر

---

(١) يسمى هذا المذهب Universalistic Hedonism أو Utilitarianism

واللذة التي يقول بها أصحاب هذا المذهب ليست لذة العامل وحده كما يقول الابيقوريون بل لذة كل من لهم علاقة بالعمل ويجب على العامل عند حساب نتائج عمله ألا يتحيز لنفسه بل يجعل خيره وخير غيره سواء.

وسعادة الجميع يجب أن تكون مطمح نظر كل انسان لا سعادته هو وحده. والفضائل انما عدت فضائل لانها تنتج لذة للناس أكثر مما تنتج من الآلام، فهي فضائل ولو آلمت بعض الافراد، ولو آلمت العامل نفسه، وكذلك كانت الرذائل رذائل لان آلامها للناس ترجح لذائذها

فالصدق مثلا انما كان فضيلة لانه يزيد سعادة المجتمع وبه يرقى ويبقى، ذلك لاننا محتاجون في الحياة إلى طبيب يرشدنا إلى مافيه حفظ صحتنا وإلى مهندسين نعتمد على أقوالهم فى بناء الجسور ونحوها، وإلى كيماوي يبين لنا خواص الاجسام، وإلى مدرس يثقف عقول المتعلمين بما ينفعهم، ولولا الصدق ما كان لنا أن نثق باقوال هؤلاء، ولا أن ننتفع بآرائهم، فلما رأينا ما ينجم عنه من السعادة للمجتمع حكمنا بأنه فضيلة وأوجبنا على الافراد أن يصدقوا وان كان في الصدق ألم لبعضهم

ورشوة القاضي مثلا انما كانت رذيلة لان القاضي إذا ارتشى أطلق سراح المجرم، وهذا يشجعه هو وأمثاله على ارتكاب الجرائم، لاعتقاده أنه يستطيع الفرار من العقوبة بالرشوة، وبذلك

تكثر المظالم، ويضيع كثير من الحقوق. وفي هذا آلام كثيرة للمجتمع. فحرمت وان انتفع بها القاضي المرتشي

وهكذا الشأن في جميع الاعمال، فان أردت الحكم على عمل بأنه خير أو شر فابحث عما يجلبه من اللذائذ والآلام للمجتمع مع بعد النظر ودقة البحث ثم وازن بين لذائذه وآلامه

قالوا — ووزن الاعمال بهذا الميزان بطيء الا أن النتيجة موثوق بصحتها — على أن أصول الفضائل والرذائل قد وزنت بهذا الميزان وحكم عليها بالخير أو الشر، مثل الكرم فضيلة، والبخل رذيلة، والصدق خير، والكذب شر، فان أردنا أن نحكم على جزئية فلنرجعها الى أصل من تلك الاصول التى حكم عليها، كأن يكون العمل من قبيل الصدق أو الكذب، ولا حاجة حينئذ إلى هذا المقياس، وإنما نحتاج اليه فيما لا يرجع إلى تلك الاصول كالعادات التى اختلف الناس فى استحسانها واستقباحها مثل السفور والحجاب، فان أداك بحثك الدقيق الى أن آلام العمل أكثر من لذائذه فاحكم بشره وان حكم الناس عليه بالخير، وإن رأيت من الاعمال مالا ضرر فيه أو ما آلامه أقل من لذائذه فاحكم بأنه خير وان عده الناس جريمة

ويسمى هذا المذهب «مذهب المنفعة» ومن أكبر دعاته الفيلسوفان الانجليزيان بنتام Bentham (١٧٤٨ - ١٨٣٢م)

وجون ستورت مِلْ — (١٨٠٦ - ١٨٧٣ م)[(١)]

واللذة التى يتخذها المنفعيون مقياساً هى اللذة بأوسع معانيها فهى تشمل اللذات الحسية والمعنوية ، الجسمية والعقلية

واللذة أو السعادة التى يطمح اليها الناس تختلف باختلاف الاشخاص، فكما أن سعادة الانسان تختلف عن سعادة الحيوان فكذلك تختلف سعادة العاقل عن سعادة الجاهل، فلايقبل الذكى والمتعلم أن يستبدلا بما عندهما من الذكاء والعلم أكبر اللذائذ الجسمية، واختلاف الناس في السعادة يتبع درجة رقيهم وحالتهم العقلية، فكلما كان الشخص أرقى كانت لذائذه التى يطمح في تحصيلها أصعب نيلا قال « ميل » (ان الرجل الذى يتطلب اللذائذ الوضيعة يجد فرصاً كثيرة للحصول عليها، أما الرجل الراقى فانه يشعر بأن كل ما يتوقعه من اللذائذ في هذه الحياة ناقص لايفى بغرضه ولكنه يعتاد الالم من هذا النقص، ولا يحسد من لا يشعر به لانه يعلم أن من لم يشعر لم يدرك الخير الاكبر، ولان يكون الشخص انسانا غير راض خير من أن يكون خنزيراً راضياً)[(٢)]

---

(١) كثيراً ما يوصف مذهب المنفعة بأنه المذهب القائل (بأكبر لذة لاكبر عدد)وهذه العبارة منتقدة فأنها تشعر بأننا إذا خيرنا بين لذة كبرى لعدد قليل ولذة صغرى لعدد أكبر نختار الثانية لانها أكبر لذة لاكبر عدد وهذا خطأ فان المذهب يرى تفضيل الاولى لان المدار عنده هو اللذة فحيث كانت اللذة أكبر كان العمل أفضل ولو نالت شخصاً واحداً

(٢) ميل فى رسالته « مذهب المنفعة »

ولم يسلم هذا المذهب من النقد ،فقد اعترض عليه باعتراضات عدة منها

١ ان هذا المذهب يقتضى أنه للحكم على عمل بالخيرية أو الشرية ينبغى حساب كل ما ينشأ عن العمل من لذة وألم لكل كائن يتلذذ أو يتألم من العمل ، وبعبارة أخرى لاهل المملكة والاجانب، للاحياء، وأعقابهم ، وإذا كان كذلك فمن الصعب الوقوف على نتائج العمل وحسابها ، فقد نرى عملا ينفع أمتنا ويضر الاجانب ، وقد ينفع معاصرينا ويضر الاجيال المستقبلة ، وقد تكون الاجيال المستقبلة كثيرة العدد فيصعب الحساب ويدق النظر ، فمثلا هل تنتفع الامة الآن بما عندها من معادن اذا كان ذلك يضر بابنائها ؟ وهل تستدين الحكومة اذا خيف أن يكون الدين حملا ثقيلا على الخلف ؟

وأكثر من هذا أننا إذا أدخلنا فى حساب اللذائذ والآلام الحيوانات فهل نفاضل بينها أو لا. فان لم نفاضل بأن ساوينا فى حساب اللذة والألم بين الكلب والقط والخروف والانسان فبأى حق نذبح الدجاجة ليتمتع بها الانسان ، ونشرّح الكلب حياً لننتفع بتشريحه في معالجة الانسان ؟ وان نحن فضلنا بعض الحيوان على بعض فما هى قائمة التفضيل وكيف تعمل ؟ أوليست تكون مجالا للخطأ ومظنة البعد عن الصواب ؟

٢ ليس مقياس السعادة العامة مقياساً ثابتاً محدوداً — وهذا

يجعل الحكم بأن العمل خير أو شر مجالا للخلاف الكثير ، ذلك بأن مدار الحكم هو اللذة والالم ، وتقدير مافى العمل من اللذة والالم يختلف باختلاف الاشخاص ، فقد يرى أحد فى عمل لذة كبيرة ويرى آخر فيه لذة أكبر أو أقل فيترتب على ذلك اختلافهم فى الحكم على الشىء بالخيرية أو الشرية فمثلا قد يستمتع أحد بلذة استمتاعاً لا يستمتعه الآخر من الشىء نفسه ، كصوت الموسيق يطرب منه سامع طرباً يخرجه عن عقله حتى يضحكه أو يبكيه بينا تجد الآخر بجانبه لا يأبه لهذا الصوت ولا ينفعل منه أى انفعال ، فكيف تتخذ اللذة بعد مقياساً تقاس به الاعمال ؟

٣ ان القول بأن الحياة غايتها الوصول إلى اللذة والفرار من الالم فحسب حط من شرف الانسان ولا يليق إلا بالعجماوات

وقد أجيب عن هذه الاعتراضات بأجوبة لا يتسع المقام لذكرها [1] غير أنا نقول ان هذا المذهب من أكثر المذاهب انتشاراً فى العصور الحديثة وكان له فضل كبير فى ايقاظ العقول ومطالبتها أن تكون غير متحيزة فى أحكامها ، قد طلب من الشخص أن ينظر الى لذائذ الناس كما ينظر الى لذاته ، وعلم المشرعين أن يلاحظوا عند تشريعهم خير الناس لا خير أفراد مخصوصين فما يعد جرائم يعاقب عليها القانون ومالا يعد انما يرجع فيه إلى كمية مافى

(١) اجاب جون ستورت ميل عن هذه الاعتراضات وغيرها فى رسالته المسماة «مذهب المنفعة Utilitarianism»

العمل من آلام للمجموع ، والعقوبات التى توضع بإزاء الجريمة يجب أن يلاحظ فيها أنها تأتى بلذائذ للناس أكثر مما تسبب من الآلام وهكذا

(٣) مذهب اللقانة [1]

يرى هذا المذهب أن فى كل انسان قوة غريزية باطنة يميز بها بين الخير والشر بمجرد النظر ، وقد تختلف هذه القوة اختلافاً قليلا باختلاف العصور والبيئات ولكنها متأصلة في كل انسان ، فهو إذا نظر إلى العمل حصل عنده نوع من الالهام يعرّفه قيمته فيحكم عليه بأنه خير أو شر ، ومن أجل هذا اتفق أكثر الناس على الفضائل من صدق وكرم وشجاعة كما اتفقوا على عدأضدادها رذائل

وهذه القوة غريزية فينا لا مكتسبة ، منحناها لنميز بها الخير من الشر كما منحنا العين لنبصر بها والاذن لنسمع بها ، فكما نستطيع بمجرد النظر الى شىء أن نقول انه أبيض أو أسود ،

(١) جاء فى لسان العرب « غلام لقن سريع الفهم ولقن الشىء والكلام فهمه والاسم اللقانة » فآثرنا أخذها ووضعها لكلمة Intuition كما فعل الفرنج فان هذه الكلمة عندهم كان معناها فى الاصل النظر إلى الشىء ثم استعملوها فى المعنى الجديد وهو « القوة الباطنة التى تدرك أن الشىء خير أو شر بمجرد النظر اليه من غير إعمال عقل فى نتائجه » فلنصطلح على تسمية هذه القوة (اللقانة)

وبمجرد سماع صوت أن نقول انه جميل أو قبيح ؛ كذلك نستطيع اذا رأينا عملا من الاعمال أن نقول انه خير أو شر

ولسنا نحكم على الشيء بأنه خير أو شر نظراً إلى غاية كتحصيل لذة أو فرار من ألم كما يقول أصحاب مذهب السعادة ، ولكننا نحكم عليه لان غريزتنا ترشدنا إلي ذلك بقطع النظر عما ينتج من النتائج ، فالصدق خير فى ذاته ولو أنتج ألماً ، والكذب شر يلزمنا اجتنابه ولو وصلنا إلى لذة ، فليست الاعمال الاخلاقية وسائل بل مقاصد

ويمتاز هذا المذهب عن مذهب السعادة بنوعيه بأنه

١ يرى أن الفضائل فضائل فى جميع الظروف ، وفى كل زمان ومكان وليس كونها فضيلة تابعاً لغاية اذا وصلت اليها كان خيراً والا كانت شراً

٢ ان الفضائل أمور بديهية ليست فى حاجة الى البرهنة على صحتها

٣ وأنها ليست محلا للشك فمن المحال أن نرى يوماً ما أن ضدها هو الخير وانها هى شر

وممن ذهب هذا المذهب طائفة من الفلاسفة الاقدمين يسمون (الرّواقيين) وهم اتباع زينون . فيلسوف يونانى (٣٤٢— ٢٧٠ ق م) كان يعلم أصحابه في رواق مزخرف فى أثينا ، ومن ثم سمى أصحابه بالرواقيين Stoics وقد كان زينون معاصراً لابيقور ومعارضاً له في تعاليمه . فبينما يرى أبيقور أن الغاية من

الحياة هى الوصول إلى أكبر لذة ممكنة للعامل وانه يجب احياء الشهوة وارواؤها كان زينون يرى أنه يجب ضبط النفس وقمع الشهوات

كان هؤلاء الرواقيون يرون أن اللذة ليست هى الغاية للانسان ولا هى بالخير دائماً وانما الغاية نيل الفضيلة لانها فضيلة . وطلبوا من الناس أن يكفوا عن اتباع الشهوات . وأن يمرنوا أنفسهم على تحمل الآلام فى سبيل الفضيلة . وأن يتوقعوا أسوأ معيشة من فقر ونفى وكراهة من الرأى العام ثم يعدوا أنفسهم لتحملها حتى إذا كانت لم تنزعج منها نفوسهم

والرواقى لا يجعل أكبر همه أن يكون غنياً ولا متلذذاً انما أكبر همه أن يعيش حكيما فاضلا فى أى وسط كان ، فى فقر أو فى غنى مبجلا فى قومه أو محقراً وان يستعمل ما حوله من الاشياء خير استعمال ، ومثلوا الناس في الدنيا بالممثلين على مراسح التمثيل قالوا ان منهم من يمثل الملك ومنهم من يمثل السائل الفقير ولسنا نثنى على الممثل لانه يلبس تاج الملك ونذمه لانه يرتدي ثياب الفقر ، انما نثنى على من أجاد دوره ملكا أو فقيراً ونعيب من لم يجد ملكا أو فقيراً — كذلك الشأن فى الحياة ، فالانسان يجب أن يمدح أو يذم لاجادته فى عمله أو عدمها ، لا لمنصبه الذى يشغله وماله الذى يملكه

وضرب أحد رؤساء هذا المذهب وهو « ابيكتيتس » « ٥٠ — ١٢٥ ؟ ب م » مثلا لذلك من لاعبي الكرة ، قال انهم

لا يلعبون للكرة نفسها ولا يهمهم ملكها ولا من ملكها، وانما
يمدح اللاعب لأنه عرف كيف يلعبها وكيف يجيد رميها — يريد
بذلك أن الاشياء الخارجية لاقيمة لها في أنفسها وانما يمدح الانسان
على حسن استعمالها لا على ملكها

والغربيون الآن يطلقون « رواقى » على من اعتاد أن يقابل
الاشياء بهدوء، وطمأنينة رغم ما يحيط بها من خطر وآلام

وقد صبت تعاليم الرواقيين فى قالب النصرانية والاسلام
فكان لها تأثير كبير فى حياة النصارى والمسلمين في القرون الوسطى،
فالميل إلى الرهبانية ، والمبالغة فى الزهد والتقشف عند الصوفية
لايخلوان من أثر رواقى كبير

ومن القائلين باللقانة فى العصور الحديثة « كانْت » (١٧٢٤
— ١٨٠٤) فقد كان يقول أن عقل الانسان هو أساس الاخلاق
ولسنا فى حاجة إلى تعلم قواعد للسلوك تكتسب من الملاحظة
والتجربة والتربية بل أن عقلنا يعلمنا ويأمرنا فورا بما ينبغى أن نعمل،
وذكر أن عقلنا يأمرنا باتباع مبدأ سماه « الأمر المطلق » أى الذى
لا استثناء فيه وهو « اعمل فقط العمل الذى يمكنك أن تريد أن
يكون عاماً » أى اعمل ماتحب أن كل أحد غيرك يعمله. فالسرقة محرمة
لانك لاتحب أن يسرق كل الناس، والكذب محرم لان الناس
كلهم لو كذبوا ما كان تفاهم وأنت لاتحب أن الناس كلهم يكذبون،

وتسديد الدين واجب لانه يمكن أن يكون عاما وأنت تحب أن
يسدد كل الناس ديونهم، ومن أجل هذا حرم عليك السرقة والكذب
ووجب تسديد الديون ، وقال ان هذا المبدأ يحمل سلطانه معه أى
أنه في نفوس الناس وطبيعتهم ومنه يمكننا أن نعرف كل ماينبغى
أن يعمل وما ينبغى أن يترك . ونحن لو أخضعنا ارادتنا لهذه
الروح الاخلاقية التى فينا وجرينا على هذا المبدأ دائماً ولو خالف
ميولنا فقد أدينا ما علينا من الواجب وسرنا سيراً أخلاقياً

وقد اعترض على مذهب اللقانة هذا — القائل بوجود غريزة
في الانسان يميز بها الخير من الشر ، كالحاسة التى يميز بها بين
الالوان والاصوات — بأن الناس يختلفون فى الحكم على الاشياء
اختلافاً كبيراً حتى في البديهيات ففى سبارطة كانت تعد السرقة
عملا ممدوحاً ، ويعد القتل فى « داهومى » واجباً من الواجبات
فكيف يقال بعدُ أن الناس منحوا غريزة لادراك الخير والشر
مع أنا نراهم لايختلفون هـذا الاختلاف فيما يدرك بالغرائز فلا
يقول قوم على الاسود أبيض ولا يقول آخرون أن الاثنين
أكبر من الاربعة

---

(٤) مذهب النشوء والارتقاء

قد كان الرأى الشائع عند الناس أن كل جنس وكل نوع من

الحيوانات مستقل بذاته لا ينتقل إلى غيره ، فالاسماك لا تنتقل الى تماسيح ، ولا القط إلى كلاب ، بل ان لكل نوع آباء متميزة تتناسل منها فروعه — حتى جاء (لامارك) وهو عالم فرنسى (١٧٧٤ — ١٨٢٩ م) فأداه البحث إلى أن الانواع يتحول بعضها إلى بعض ، وأنه ليس بصحيح ما يقال من أن الانواع متمايزة لا تتغير ، بل هى متغيرة تنتقل من نوع إلى نوع ، بدليل ما نشاهده من تدخل أنواعها بعضها في بعض وعدم وجود حدود مميزة لكل نوع — ورأى أن الانواع لم تخلق كلها فى زمن واحد بل وجدت الحيوانات السافلة أولا ثم تدرجت فى الرقى وتولد بعضها من بعض وانتقلت من أنواع إلى أنواع ، وذكر أن العامل على هذا التغير شيئان (١) البيئة أى أن الظروف المحيطة بالحيوان قد لا تكون ملائمة له فيضطر عندئذ الى تعديل نفسه على وفقها (٢) مبدأ الوراثة يعنى أن الصفات التى يتصف بها الاصل ليلائم وسطه تنتقل إلى فروعه . وسمى هذا المذهب (مذهب النشوء والارتقاء) لقوله بنشوء الحيوانات بعضها من بعض وارتقائها من حيوان سافل الى حيوان راق

وجاء بعده (دارون) العالم الانكليزى (١٨٠٩ — ١٨٨٢م) فأوضح — مذهب التحول — ونشر فيه مؤلفه المسمى (أصل الانواع) وبنى مذهبه على قوانين يكثر دورانها على الالسنة ،

وهى (قانون الانتخاب الطبيعى) و (تنازع البقاء) و (بقاء الاصلح) و (قانون الوراثة)

فأما الانتخاب الطبيعى فيعنى به أن الطبيعة تنتخب من الموجودات ما يصلح للبقاء ، فالحيوانات مثلا تنسل عدداً عديداً لا يحصي ، ولا يبقى منه إلا القليل ، ولم يبق ما بقى اتفاقا ، ولكن لانه هو الذى قاوم الحوادث المختلفة وفواعل الطبيعة فصلح للبقاء ، فالقوى يبقى والضعيف يفنى ، فما تفعله الطبيعة من انتخاب أصلح الموجودات لتمنحه ميزة البقاء يسمى (الانتخاب الطبيعى) والمخلوقات فى نزاع شديد ، فبين الانواع حرب عوان ، اسد يفترس ذئابا وذئاب تفترس خرافا وانسان يفترس كثيراً ، أضف إلى ذلك أن النوع الواحد قد يتنازع بعض أفراده مع بعض عند الازدحام على شىء لا يكفى لسد رغباتها جميعاً كما ترى من تنازع القطط على قطعة من اللحم ، وكما ترى من تنازع الانسان مع الانسان . وهذا التنازع الذى بين الانواع والافراد هو الذى يسمى (تنازع البقاء) يعنى التنازع لاجل البقاء ، وكون الذى يبقى هو أصلح الموجودات للبقاء يسمى (بقاء الاصلح) والصفات الغريزية التى فى الاصول تنتقل إلى الفروع فالنسل المتولد من الاقوياء قوى ومن الضعفاء ضعيف ومن تولد من ضعاف الصدر كان عرضة لمرض الصدر وهكذا ، وهذا هو (قانون الوراثة)

وليس هذا مقام شرح المذهب شرحاً وافياً وبيان ما استدل به أنصاره وما رد به معارضوه ، وانما ذكرنا هذا القدر توطئة لما نريد ذكره في الاخلاق، وقد توسع كثير من العلماء فى تطبيق هذا المذهب على كثير من الاشياء فطبقوه على النظم الاجتماعية وعلى أشكال الحكومات وعلى كثير من فروع العلم كعلم النفس وعلم الاجتماع والمنطق وعلى الفلسفة والدين[1]

ومعنى تطبيق هذا المذهب على العلوم بيان أن ما تبحث فيه هذه العلوم نشأ نواة أو جرثومة صغيرة أخذت فى الرقى خاضعة قانون « الانتخاب الطبيعى » يبقى منها ما يصلح ويأخذ فى الفناء ما لا يصلح وانها سائرة الى النمو والكمال — وعلى الجملة يمكننا أن نقول أن مذهب النشوء والارتقاء أثر في الباحثين وفى طريقة البحث أثراً كبيراً حتى يكاد يكون فى دماغ كل باحث عند بحثه الاسئلة الآتية : ما أصل هذا الشيء الذى أبحث عنه ؟ كيف نما حتى صار الى الحالة التى نشاهده عليها ؟ ماذا ينتظر له من الكمال فى المستقبل ؟

ومما طبق عليه هذا المذهب « الاخلاق » وممن فعل ذلك « هربرت سبنسر »[2] وآخرون ، يرى أصحاب هذا المذهب أن

(١) اذا اردت أن تعرف كيف طبق على كثير من العلوم فانظر كتاب Progress and History, Edited by marvin وكتاب The Universal Kinship by Moore

(٢) (هربرت سبنسر) فيلسوف انجليزى (١٨٢٠ — ١٩٠٣) كانت

الاعمال الاخلاقية نشأت ساذجة بسيطة وأخذت فى التدرج والرقى شيئاً فشيئاً ، وهى سائرة نحو « مثل أعلى » يعتبر هو الغاية ، والعمل خير كلما قرب من هذا المثل الأعلى وشر كلما أبعد عنه ، وغاية الناس فى الحياة أن يحققوا هذا المثل أو يقتربوا منه قدر المستطاع .

ونحن نلخص ما ذكره سبنسر في عملية التطبيق

« أن معاملة الانسان أو سلوكه « ناشئ » من سلوك الحيوان فنحن اذا نظرنا الى الحيوان نرى أن من أحط أنواعه نوعاً مائياً يتحرك لا لغاية يقصدها بل بدافع طبيعى ، فيقع فى أثناء تحركه اتفاقاً على غذاء يغتذى به ، وما هو الا أن يبصر به حيوان أرقى منه فيبتلعه — ولما كان هذا النوع من الحيوان ليس عنده من الشعور والقوة الدافعة ما يساعده على المعيشة وسط هذه البيئة كان نحو تسعة وتسعين فى المائة منه يفنى بعد ساعات قليلة من وجوده اما جوعاً أو تسلطاً من حيوان آخر أرقى منه

فاذا نحن ارتقينا الى حيوان آخر أرقى منه قليلا (Rotefer) وجدنا أن بناء جسمه أحكم ، ووجدنا أن سلوكه فى حياته أنظم فهو يتحرك باحثاً عن غذائه ، ويقاوم نوعاً من المقاومة ما يهدد حياته

فلسفته مؤسسة على مذهب النشوء ، وقد رقى الابحاث الاخلاقية والاجتماعية وألف كتباً كثيرة فى النفس والاخلاق والاجتماع والتربية والسياسة ويعد من أقطاب العلم الحديث

ويعدل نفسه على حسب الظروف المحيطة به ويستخدم بعض ما يحيط به فى مصلحته ولا يستسلم استسلاماً تاماً لما حوله

لنرتق بعد الى الحيوانات الفقرية نجد أن « السلوك » يرق تبعاً لرقى تركيب جسمها ، فالسمك مثلا يتحول باحثاً عن غذائه ثم اذا أدركه امتحنه قبل أن يأكله بشمه أو بالنظر اليه اذا كان على مسافة قريبة منه ، ثم اذا هو شعر بسمك أكبر منه جد فى الهرب منه ، فهو يعدل أعماله وفق غاياته ، وان كان هذا التعديل بسيطاً ساذجاً ، ولهذا كان ما يعيش منه الى سن الهرم نادراً اذا قيس بعدد ما يولد

حتى اذا بلغنا نوعاً راقياً من الحيوانات الفقرية كالفيلة رأينا سلوكها أنظم ووجدنا تعديلها حياتها على وفق ما يحيط به أتم ، واستخدامها ما حولها فى مصلحتها أكمل ، فهي تستطيع أن تمتحن غذاءها بالنظر أو الشم على مسافات بعيدة ، فاذا داهمها خطر أسرعت فى العدو ، كذلك نجد ما تعمله لتحصيل غذائها أرقى مما تعمله الاسماك مثلا ، فهي تكسر أغصان الاشجار المحملة بالاثمار وتنتخب من بينها أصلحها لغذائها ، وعند الخطر تدافع عن نفسها لا بالهرب فحسب بل بالمقاومة وبالنزال أيضاً — بل نجدها تعمل أعمالا كمالية فتذهب الى الانهار للاستبراد ، وتستعمل فروع الاشجار فى طرد الذباب ونحوه من على ظهورها ، وتصوت تصويتاً خاصاً اذا رأت خطراً لتعلم القطيع بذلك ، فيحترس ، وعلى الجملة

فسلوكها راق وتعديلها أعمالها لنيل أغراضها واضح جلي

ولم تكن إلا خطوات قليلة فى الترقى حتى نصل الى الانسان المتوحش فالمتمدين ، فنجده أكثر تعديلا لاعماله على وفق غايته ، وأحسن نظاماً فى ذلك من سائر الحيوان ، وانا لنجد الفرق فى ذلك بين القبائل المتوحشة والامم المتمدينة يشبه الفرق بين أعمال الحيوان والانسان المتوحش ، فغايات المتمدين أعظم ، وطرق الوصول اليها أكثر اتقاناً ، فاذا نظرت الى طعامه رأيته منظماً حسب الشهوة ، متقناً فى صنعه ، متنوعاً فى شكله وطعمه متفنناً فى اجادته ، واذا نظرت الى لباسه رأيته عند المتوحش ثوباً نسجه بيده من صوف غنمه ورأيت عند المتمدين المصانع الهائلة تصنع له ثياباً مختلفة الالوان ، مختلفة الانواع بديعة الصنع ، يدخل عليها كل يوم من أنواع التحسين ما يدعو اليه الذوق ، واذا نظرت الى سكنه وجدت البدوى يسكن بيتاً من شعر أو يلتجىء الى كهف ، على حين تجد المدنى قد ابدع فى قصوره الفخمة ايما ابداع

وكلما تقدم الانسان فى المدنية ازدادت حاجاته ، ونظم اجتماعه ، وتنوعت أعماله ، فرأيت أشكالا من الحكومات مختلفة ، ورأيت طرق التجارة وأعمال المصانع موزعة بدقة ، كل هذا لتكون حياة الانسان أبقى وأطول بل ولتكون حياته أعرض ونعنى بالحياة العريضة حياة مملوءة بالرغبات وفيها تلك الرغبات موفورة

مُروَاة — ونحن اذا قارنا بين معدل حياة البدوى والحضرى ورغائبهما وحاجاتهما رأينا المدنى أطول عمراً وأعرض حياة ، ذلك لان الحضرى أقدر تعديلا لنفسه على وفق الظروف المحيطة به كما أنه أقدر على الانتفاع بما حوله واستخدامه فى مصلحته

يتبين لنا من هذا أن فى طبيعة كل نوع من أنواع الحيوان دافعاً غريزياً يدفعه لحفظ شخصه « وينشأ هذا الدافع ويرتقى » تبعاً لنواميس الطبيعة

والآن نزيد أن فى طبيعة كل حيوان أيضاً دافعاً غريزياً يدفعه الى حفظ نوعه ، وان هذا يتبع (سنة النشوء والارتقاء) كالذى رأيناه فى حفظ الشخص ، ففى بعض الحيوانات البحرية الدنيئة يحصل التلقيح اتفاقاً ويترك النسل للقدَر يتصرف فيه كما يشاء ، وقل ما يعيش منها فاذا رقينا الى الاسماك مثلا رأينا منها مايختار المكان المناسب لبويضاته وما يحرس بيضه ويحفظه مما يعتدى عليه ، ثم اذا رقينا الى الطيور رأيناها تبنى عشها لبيضها وترقد عليه ، فاذا أفرخ أمدت صغارها بالغذاء حتى تستطيع الاعتماد على نفسها

ولا تزال ترتقى هذه الغريزة (غريزة حفظ النوع) حتى نصل الى الانسان المتوحش فالمتمدين ، فهو أكثر عناية بأولاده يربيهم مدة أطول من مدة الحيوان لأن حياة الانسان أكثر تركيباً

وقد شوهد أن رقى الانسان فى المحافظة على نوعه يسير جنباً لجنب مع المحافظة على شخصه ، فدرجات المحافظة متقاربة ، كلاهما ينشأ ساذجا بسيطاً ثم يرقى

* * *

يستنتج من ذلك كله أن الحيوان يكون أقرب الى الكمال كلما كانت نفسه واستعداداته معدلة على حسب ما يحيط بها ، فكل عمل يعمله الانسان إما أن يجعله فى وفاق مع ما حوله من الظروف ويجعل حياته وحياة نوعه أغنى وأسعد ، وإما أن يكون العمل لا يتفق مع ما يحيط به ويجعل حياته وحياة نوعه أفقر وأشقى ، فما كان من النوع الاول فعمل طيب ، والتخلق به حسن وخير ، وما كان من النوع الثانى فقبيح وشر — ولما كانت الاعمال كثيراً ما تمتزج فيها اللذة بالألم كان خير الاعمال ما كان أقرب الى اللذة الصافية — وحياة الناس الى الآن لم تبلغ الكمال ولكنها سائرة اليه تبعاً لسنة النشوء والارتقاء ويجب على الناس أن يساعدوا هذا السير — بتعديل أنفسهم حسب ما حولهم من الظروف — حتى يسرعوا فى البلوغ الى الكمال (١)

ترى من هذا أن مذهب سبنسر يتخذ مقياس العمل « تعديل النفس على وفق ما يحيط بها من الظروف » فالمعاملة خير اذا سببت لذة أو سعادة ، وإنما تكون كذلك اذا كانت ملائمة لما

---

(١) انظر كتاب سبنسر Data of Ethics

يحيط بها ، وبعبارة أخرى لانها فى وفاق مع ما حولها ، والمعاملة تكون شراً اذا سببت ألماً وإنما تكون كذلك اذا كانت لا تتفق مع ما حولها ولا تلائم الظروف المحيطة بها ، وكلما كان العمل أكثر ملاءمة أو أكثر وفاقاً كان أقرب الى الكمال

يرى أصحاب هذا المذهب أن الأعمال الأخلاقية نشأت ساذجة بسيطة وأخذت فى التدرج والرقى شيئاًفشيئاً وهى سائرة نحو مثل أعلى يعتبر هو الغاية ، والعمل خير كلما قرب من هذا المثل الأعلى وشر كلما أبعد عنه ، وغاية الناس فى الحياة أن يحققوا هذا المثل أو يقتربوا منه قدر المستطاع

وكل عملية من عمليات النشوء والارتقاء تشمل ثلاثة أشياء: بدء من نقطة معينة ، وتدرج فى السير نحو غاية ، وغاية يقصد الى الوصول اليها ، ففى نشوء الحيوان مثلا بدأت الحياة فى حيوانات دنيئة جداً ثم ارتقت شيئاً فشيئاً فى أجيال عديدة وآلاف من السنين وكان انتقالها تدريجيا وقد مر فى مراتب كثيرة من حشرات الى زواحف الى غير ذلك حتى وصل الى الانسان المتوحش فالمتمدين وهو سائر الى نوع من المدنية أرقى وأعظم — وفى العادة نجد أن نقطة البدء فى كل عملية نشوء والغاية التى يقصد اليها خفيتان عنا لا نميزها تمييزاً واضحاً وإنما الواضح أمامنا التدرج فى السير — كذلك الشأن فى الاخلاق اذا نحن استعرضنا المعاملة من مبدأ وجودها عند الحيوانات الى غاية ما يمكن أن تصل اليه

وجدنا المبدأ غامضاً ، ووجدنا الغاية التى هى المثل الاعلى غامضة كذلك نوع غموض والعمل كلما قرب منها كان خيراً وكلما بعد عنها كان شراً

وقد طبق الاستاذ ألكسندر ، ما قاله دارون فى « الانتخاب الطبيعي » و « تنازع البقاء » و « بقاء الاصلح » على الاخلاق ، وهاك خلاصة ما قاله فى ذلك « ترى فى الحيوانات أن بينها نزاعاً على البقاء ، يتنازع بعضها مع بعض للغلبة والظفر ، وهذا النزاع حاصل بين الافراد وبين الانواع ، ونتيجة هذا النزاع فناء بعض ، وبقاء بعض وهو الاصلح ، وهذه العملية تسمى « الانتخاب الطبيعى » وهذا ينطبق على الاخلاق ، فهناك حرب بين المعاملات وطرق المعيشة والمُثُل العليا للحياة ، فهذه الأمور تتنازع ولا يسمح بالبقاء الا لما يتفق منها مع الخير العام — نرى فى عالم الحيوان أن بعض الافراد أو الانواع قد ولد ممتازاً بميزات خاصة تجعله أصلح للبقاء من غيره ، ولهذا تبقى ، وتورث نسلها ميزاتها ، على حين أن الضعيف لا يجد له مجالا فى الحياة — أما فى الاخلاق فليس كذلك بين الافراد نفسها بل بين الآراء والعقول — ترى رجلا بما منح من قوة فكر يميل الى نوع من المعاملة أو يستنكر عادة ألفها الناس كأن يستنكر حالة المرأة ومعاملة الناس لها معاملة تقرب من معاملة الرقيق فيجهر برأيه ويقف وحده أو مع قليل من الناس مؤيداً ما يقول مدافعاً عنه ، وقد يثير قوله سخرية الناس وتهكمهم عليه واحتقارهم

له ، فاذا كان الرجل من كبار المصلحين لم يعبأ بذلك كله ولو جر الى الموت وظل يعلن رأيه ويجاهد في سبيله ، والرأي في أثناء ذلك ينتشر شيئاً فشيئاً ، والناس يستكشفون صلاحيته ويميلون اليه ويقتنعون به ، وينقلب عداؤهم للرأي تحزباً له ، وتؤيده كل يوم قوة جديدة حتى يصبح عقيدة أغلب الناس أو كلهم — ويحل الاقناع والتربية فى عالم الاخلاق والآراء محل تولد الجنس وافناء الضعيف فى عالم الحيوان ، لان طريق انتصار عقل على عقل هو الاقناع

وهناك آراء أخرى فى تطبيق مذهب النشوء والارتقاء وردود على الآراء المختلفة لا يسعها هذا المختصر

الحكم الاخلاقى

ذكرنا فيما تقدم أن الحكم الاخلاقى أي الحكم بالخيرية والشرية لا يصدر الا على الاعمال الاختيارية فما لم توجد ارادة لا يصدر حكم . فلو طغى ماء النيل فأغرق كثيراً من البلدان أو هبت عاصفة فدمرت مالاقته . أو أغرقت الامواج سفينة بمن فيها فلا يحكم على هذه الاعمال بانها شر إذ لا ارادة . أعنى لا يصدر الحكم على عمل النيل وأمثاله بأنه شر كما أنه لا يحكم على عمله بأنه خير إذا فاض باعتدال وروي الأراضى وأفادها ، كذلك اذا جمح حصان فأوقع راكبه أو سار سيراً حسناً فأوصله الى غايته لا يحكم على عمله بأنه شر فى الاولى ولا خير فى الثانية ما دمنا لا نعترف

له بارادة . كذلك أعمال الانسان غير الارادية كهضم معدته هضما جيداً وتوزيع القلب للدم توزيعاً منظما . وكارتعاشه لحمى أصابته ونحو ذلك

انما يحكم على الاعمال الارادية بانها خير أو شر تبعاً للمقياس الذى ذكرنا . والذي نريد أن نقوله الآن : هل يصدر الحكم على هذا العمل باعتبار النتائج التى أنتجها أو باعتبار غرض العامل الذى من أجله عمل العمل ؟ فكثيراً ما يريد انسان عملا يقصد به خيراً فيستتبع العمل من النتائج السيئة ما لم يكن فى حسبانه . كرجال حكومة أعلنوا الحرب على أمة أخرى لأنهم رأوا خير أمتهم في ذلك ، فقد قدروا قوتهم بأكبر من قوة عدوهم ، وحسبوا مايغنمون من اللذائذ اذا دحر عدوهم . ولكن خاب أملهم فهزموا وسلبوا بعض الولايات ، فهل يحكم على اعلان الحرب بأنه خير نظراً إلى الغرض منه — وهو خير الامة وتحصيل السعادة لها — أو أنه شر نظراً لما نتج عنه من الآلام ؟

وكذلك قد يريد الانسان الشر فيعكس عليه قصده ويأتى العمل بأحسن النتائج كمن يغش انسانا فيغريه بشراء شيء يظن فيه الخسارة فيغنم الشارى من وراء ذلك ربحاً كبيراً فهل يحكم على هذا العمل بأنه شر تبعاً للنية أو خير نظراً لما نتج عنه من الفوائد ؟

الحق أن العمل يحكم عليه بأنه خير أو شر نظراً الغرض العامل فالعمل الذى قصد به الخير خير مهما استتبع من النتائج . والذى

أريد به الشر شر ولو انتج نتائج حسنة . فقبل الحكم على عمل ينبغي أن نعرف غرض العامل منه . أما العمل فى ذاته فليس بخير ولا شر . فاحراق أوراق مالية قيمتها الف جنيه مثلا لا يمكن الحكم عليه في ذاته بخيرية ولا شرية بل قد يكون شراً اذا أراد المحرق الانتقام من مالكه . وقد يكون خيراً كما إذا قدمت رشوة لقائد أو قاض ورأى أنه لا سبيل الى تأديب الراشى إلا إحراقها . وكثير من الاعمال السيئة قد تعمل لغرض صالح فلا يحكم عليها بأنها شر، كما يقال من أن قدماء المصريين كانوا يرمون بكراً في النيل ليفيض

ولما كان الحكم الاخلاقى يعتمد على معرفة غرض العامل من عمله لم يجز لنا أن نصدر الحكم (بالخيرية أو الشرية) الا على انفسنا أو على من نتحقق غرضهم من أعمالهم ، اما باخبارهم أو بقيام القرائن علي اغراضهم ، فاذا رأينا من انسان عملا فلا نعجل بالحكم عليه بل يجب أن نتريث حتى نعرف الغرض منه ، نعم أن هناك ألفاظاً وضعت للدلالة على نتائج العمل كلفظى (نافع) و (ضار) فانه يصح الحكم على الاعمال بأنها نافعة أو ضارة نظراً لنتائجها لا للغرض منها، وكون الشيء نافعا أو ضاراً غير كونه خيراً أو شراً فالحكم بالنفع والضرر ليس حكما أخلاقياً لانه حكم يتبع نتائج العمل ، أما الحكم بانه خير أو شر فيتبع الغرض كما بينا ، واذن يكون من الواضح أن بعض الاعمال قد يكون خيراً ضاراً كاعلان الحرب فى المثال المتقدم ، ونعنى بخير أن غرض فاعله حسن ونعنى بضار

أن نتائجه وخيمة والعكس واضح

والانسان لا يلام على عمل عمله يريد منه الخير مهما ساءت نتائجه، وانما يلام اذا كان فى استطاعته أن يرى النتائج اذا دقق البحث وأمعن النظر ثم لم يفعل ، فوضع اللوم هو التقصير عند اختيار العمل لا ارادة العمل الصالح ، فلا يلام قدماء المصريين مثلا على رمى بكر فى النيل لانهم أرادوا من عملهم الخير وانما يلامون على اعتقادهم أن النيل لا يفيض حتى تهدى اليه بنت ، لانهم بنوا هذه العقيدة على استقراء ناقص وأساس غير متين — والامة التي أعلنت الحرب ففشلت لا تلام على اعلانها الحرب لانها رأته خيراً وانما تلام اذا لم تكن بحثت المسألة من جميع وجوهها بحثاً وافياً وكان في استطاعتها أن ترى النتائج ثم قصرت في البحث

هذا كله في الحكم الاخلاقى الذى يصدر على العمل، وقد يصدر الحكم على العامل نفسه فيقال انه خير او شرير طيب او خبيث فماذا يلاحظ فى ذلك ؟

عند حكمنا على العامل انما نلاحظ مجموعة مايصدر منه فاذا كان « حاصل الجمع » يبين ان اعماله الخيرة اكثر من اعماله السيئة حكمنا عليه بأنه رجل طيب والعكس. ومن ذلك يستنتج أن الرجل قد يصدر منه عمل خير وهو نفسه شرير وقد يصدر من الخيّر عمل شر ، ذلك لانا فى حكمنا على العمل انما نلاحظ

الغرض من عمله هذا فحسب . وفى حكمنا على العامل نلاحظ جميع أعماله فى حياته

نشوء الحكم الاخلاقي وارتقاؤه ان جرثومة الحكم الاخلاقي موجودة فى الحيوانات كجرثومة المعاملة ، ففى الحيوانات المستأنسة نرى الكلب مثلا يتمسح بصاحبه ويتملق له اذا هو عمل عملا منكراً ، فهو يميز الاعمال التى يستحق عليها العقوبة من غيرها ، والحيوانات الدنيئة لا تنظر في حكمها على الاشياء الا الى شخصها وبرقيها شيئاً فشيئاً يتسع نظرها فتشعر بأولادها ، ثم إذا زاد رقيها عاشت قطعانا ووجد عندها الشعور بالعمل لخير القطيع كما رأينا في الفيلة ، يصوت الفرد من القطيع صوتاً خاصاً اذا دهمه خطر لينبه بقية أفراد القطيع ، ثم يرقى الشعور بالغير حتى يصل إلى الانسان المتوحش فتراه يشعر بقبيلته ويعمل لنفعها ويعتقد خيراً ما ينفعها وشراً ما يضرها ، ولكن نظره فى الحكم لا يتعدى قبيلته فلا يعد شراً إلا ما يؤذيها ، وليس يحكم على الاعمال بنتائجها العامة ، — روى المؤرخون أن بعض القبائل فى افريقا تعاقب بالموت السارق الذي يسرق من أحد أفراد قبيلته وتشجع على السرقة من القبائل الاخرى

والناس في هذا الطور يعتقدون أن ليس عليهم واجبات أخلاقية لغير قبيلتهم ، فليس عليهم جناح اذا أغاروا على القبيلة

الاخرى أو سرقوا أو غشوا أو قتلوا منها ، يعتقد الفرد في القبيلة أنها عالمه الذى يعيش فيه وأنها وحدها الموجود حقاً الذي يستحق البقاء فى هذا العالم — وقد أجمع الرحالة على أن العلاقة بين القبيلة والقبيلة عند المتوحشين علاقة عداء غالباً ، وان أفراد القبيلة ينظرون إلى غيرهم كما ينظرون إلى الحيوانات التى حولهم ، كلاهما يحل صيده

فلما ارتقى الناس قليلا اتسع نظرهم وكانت أحكامهم الاخلاقية أقرب إلى الصواب ، فكانوا ينظرون إلى الامة المكونة من جملة قبائل كأنها جسم واحد ، ولكنهم كانوا ينظرون الى الامم الاخرى نظرة العداء ، كأمة اليهود ، كانوا يعتقدون أنهم خير ناس على وجه الارض ، أبناء الله وأحباؤه ، وان أرضهم المقدسة « فلسطين » مركز العالم ، وان حاضرة بلادهم أقدس مكان فى الارض وأطهر بقعة ، وكانوا يعتقدون أن لليهودى قبل اليهودى حقوقاً وعليه واجبات أما غير اليهودى فليس له حق « ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا مادامت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل »

كذلك كان الشأن عند اليونان ، كان العالم الأنسانى عندهم ينقسم إلى قسمين يونانيين ومتوحشين ، يعتقدون فى جبلهم « لوليمبوس » الذى لا يبلغ ارتفاعه الا ٩٧٠٠ قدم أنه أعلى جبل على وجه الارض ، وأنه مسكن الآلهة ، ويستبيحون الاسترقاق من غيرهم حتي أن فيلسوفهم أرسطو كان يقول « ان الارقاء

حيوانات مستأنسة لها عقل » ولهـذا النظر لم يكن اليونان يعدلون فى غيرهم

ارتقى الناس فيما بعد فكانوا فى حكمهم بالخيرية والشرية والحسن والقبح أوسع نظراً ، تبودلت التجارات بين الامم ، وحسنت الصلات ووجدت القوانين الدولية والاخلاق الدولية، ولم ينظر الفرد من أمة إلى الفرد من أمة أخرى نظرة العدو لعدوه وإن كانت لا تزال عنـد الامم وفى النفوس بقية موروثة من آبائنا المتوحشين

من هذا نرى أنه ينشأ الحيوان ضيق النظر فى حكمه ضيقاً لا يتعدى شخصه ، ثم يأخذ النظر فى السعة شيئاً فشيئاً حتي يشمل أمته وحتي يرى أن أمته ليست إلا جزءاً من العالم الفسيح وأن بجانب أمته أمماً كأمته ، فالحكم الاخلاقى اتسع أفقه من فرد إلى أسرة إلى عشيرة إلى قبيلة الى مملكة صغيرة إلى أمة كبيرة ولا يزال آخذاً فى السعة حتي نصل الى نظر واسع ،يجعل الانسان أخا الانسان لا يظلمه ولا يخونه ، يعدل معه كما يعدل مع أحد أفراد أسرته ، سيضمحل النظر الشخصى أو الجنسى خضوعا لسنة النشوء والارتقاء ويحل محله النظر إلى النوع الانسانى كأنه جسم واحد ، سيكون نظر الانسان الاخلاقى نظراً عالمياً بعد ان كان نظراً قبلياً (١)

(١) انظر Moore's The Universal Kinship

وهنالك جهة أخرى للنظر فى « نشوء » الحكم الاخلاقى، وهى أن الحكم الاخلاقى يتبع — عند المتوحشين والامم المنحطة — العرف فالشيء خير اذا وافق العرف وشر اذا خالفه ، حتى اذا ارتقت الامة بعض الشيء أخذت من العرف ووضعت لها قانوناً يبين الواجب والمحرم ، ويصبح ما يأمر به القانون خيراً اخلاقياً وما ينهي عنه شراً ، وبعد مضى زمان تتعارض أوامر القانون او نواهيه وتعرض من الجزئيات ما لم ينص القانون على حسنها او قبحها وتتغير حالة الناس الاجتماعية فيرون بعض اوامر القانون لا تصلح لهم فيضطرهم ذلك إلى البحث فى « روح القانون » وفى « أساس الخير والشر » فيأتي الدور الاخير وهو دور « البحث العلمي » في الاخلاق وفي المقياس الذى بملاحظته يصدر الحكم على الشيء بانه خير أو شر ، ويصل العلماء الى مقاييس تختلف باختلاف أنظارهم ، وتحل هذه المقاييس محل العرف والقانون

خضوع الانسان للقوانين

الانسان فى هذه الحياة محاط بقوانين كثيرة، ملزم بالخضوع لها جميعها . فاول تلك القوانين « القوانين الطبيعية » وهى القوانين التي تشرح لنا طبائع الاشياء، مثل قوانين المد والجزر والجذب العام والكهرباء ونحو ذلك ، وهذه القوانين ثابتة لا تتغير ولا يمكن مخالفتها ، جارية على سنن واحد ، عرفها الناس او جهلوها ، وقد

يتغير علمنا بها ورأينا فيها ، أما القانون نفسه فلا يتغير ، فالناس مثلا كانوا يعتقدون أن الارض ثابتة والشمس تدور حولها ثم تغير رأيهم وأثبت العلم أن الارض تدور حول الشمس ، فالذى تغير هو رأي الناس ، أما الارض فمن قديم كانت تدور حول الشمس ، والكهرباء كانت تؤثر أثرها فى الكون ولو لم يعرفها الناس الا حديثاً ، ولا تزال هناك قوانين طبيعية تعمل عملها فيما بيننا ولما نستكشفها ، وسيعلم الذين من بعدنا منها أكثر مما نعلم

هذه القوانين الطبيعية نافذة حتما فيما مضى وفى الحال وفى المستقبل ، ولوثوقنا بها وبنظامها نهيء أعمالنا على وفقها ، فنبنى بيوتنا مثلا لأنا واثقون بأن قانون الجذب سيعمل فى السنين الآتية ما كان يعمله فى السنين الماضية وهكذا

وهى لا ترحم صغيراً ولا توقر كبيراً . تنفذ حكمها على من يعصيها ولو كان طفلا رضيعاً أو شيخاً وقوراً ، فلو أمسك طفل النار بيده لاحترقت ولو لم يعلم أن النار تحرق ، ولو تعاطي انسان سماً مميتاً ظناً أنه سكر لمات بحكم القانون الطبيعى ولم يعذره الجهل

وكلما أكثر الانسان من معرفته بالقوانين الطبيعية وعرف كيف يستخدمها فى مصلحته كانت حياته أسعد ، وهذا هو السبب الذى من أجله نهتم بالبحث عن القوانين الطبيعية بما ندرس من « طبيعة وكيميا وعلم نبات وعلم وظائف الاعضاء » فالباعث الاول على دراسة هذه العلوم هو معرفة قوانينها ثم استخدامها

فى شؤوننا اليومية ، وهذه الحياة اليومية قد تغيرت تغيراً كبيراً بما عرف من قوانين الكهرباء والبخار ونحوهما ، وصرنا أسعد حالا من أسلافنا يوم ان كانت هذه القوانين غير معروفة لهم

قد تبين لنا من هذا أن موقف الانسان أمام هذه القوانين الطبيعية انما هو أن يجتهد فى تعرفها حتى اذا عرفها وفق بينها وبين أعماله ولم يعصها لانه إن عصاها فالضرر واقع عليه هو ، على أننا نتسامح في اللفظ إذا قلنا « عصاها » لان عصيانها فى الحقيقة لا يمكن ، إذ قوانينها نافذة شاء الانسان أو أبى غير أن الانسان تارة يعمل على وفقها فينتفع بها وتارة لا يعرف كيف يستخدمها فى منفعته فيؤذى بها

وليست هذه القوانين الطبيعية قاصرة على ما يحيط بنا من الجمادات بل أن الاحياء أنفسها من نبات وحيوان خاضعة لقوانين ثابتة تهتم بتعرفها علوم كثيرة « كعلم الحياة »

والانسان نفسه خاضع لقوانين طبيعية كثيرة تخصص لكل طائفة منها علم خاص ، فعلم يبحث فيه من حيث هو كائن عاقل وهو « علم النفس » فهو يبحث فى القوانين الطبيعية التى تخضع لها قواه العاقلة وعلم يبحث فيه من حيث هو كائن اجتماعى وهو « علم الاجتماع » فهو يبحث في الجمعية البشرية وبعبارة أخرى فى الانسان من حيث علاقته بالمجتمع الذى فيه ولد وفيه يعيش ،

وقد استكشف فى العصور الاخيرة قوانين طبيعية للمجتمع ثابتة لا تتخلف وبرهن على صحتها

كذلك لمعاملة الناس بعضهم بعضاً قوانين تبين خيرها وشرها وتبين ما يوصل إلى السعادة وما يبعد عنها ، كالقوانين التى تأمر بالصدق والعدل وتنهى عن الكذب والظلم ، والعلم الذى يهتم ببيانها هو « علم الاخلاق » وهذه القوانين شأنها شأن سائر القوانين الطبيعية فى إنها ثابتة لاتتغير وإنما الذى يتغير رأينا فيها ونظرنا اليها ، فالمعاملة الخيرة التى يجب على الناس أن يعملوا بها ثابتة لا تتغير وان تغير رأي الناس فيها فالاولون المتبربرون كانوا أكثر نزاعاً وأقل احتراماً لحقوق الغير ، لا يعنون إلا بأنفسهم وأقرب الناس اليهم ، وكان القوى يتعدى على الضعيف فيسلبه ماله أو حياته، وكانوا يرون الخير فيما يعملون، والناس اليوم أقل نزاعاً وأكثر تعاوناً، يرون من الخير العناية بالجريح في الحروب وان كان من الامم المعادية، بعد أن كان القدماء يرون الخير في الاجهاز عليه، وهم اليوم ينشئون المستشفيات للمرضى ويعنون بالمسجونين تربية وتهذيباً ، ولا يرون الاسترقاق جائزاً ، وهم يرون الخير فى ذلك كما كان القدماء يرون الخير فيما يسيرون عليه ، وسيكون من بعدنا أرقى معاملة وأحسن نظاماً — ولكن المعاملة التى هى خير لجميع الناس شيء واحد بالنسبة لنا وللسلف والخلف على السواء، وان

جهلها بعضهم — وعمل علم الاخلاق الاجتهاد فى البحث عنها واستكشافها لا فى خلقها من جديد

وهناك نوع آخر من القوانين التى يخضع لها الانسان يسمى القوانين الوضعية وهى مجموعة الاوامر والنواهى التى تضعها الحكومة وهى لا تكافيء المطيع ولكن تعاقب العاصى بعقوبات تختلف باختلاف الجريمة ، وقد اهتمت الحكومات بهذه القوانين فأحاطتها بشرطة لحمايتها وقضاة لايقاع العقاب بمن يخالفها، فاذا ارتكب انسان جريمة القتل مثلا قبض عليه رجال الشرطة وحوكم أمام القاضى وحكم عليه وكل ذلك لانه خرق حرمة القانون الذى ينهاه عن القتل

وبين القوانين الاخلاقية والوضعية فروق عديدة أهمها :

(١) أن القوانين الوضعية قابلة للتغير، وضعت لقوم في أحوال خاصة ، فاذا تغيرت تلك الاحوال تغير القانون ، وانا لنرى الحكومة من حين لآخر تعمد إلى بعض القوانين فتغيرها لان أحوال الناس اقتضت ذلك ، أما القوانين الاخلاقية فثابتة لاتتغير وانما يتغير رأى الناس فيها كما بينا

(٢) أن القانون الوضعى قد يكون صالحاً وقد يكون غير صالح كما إذا أخطأ واضع القانون فوضع مالا يتفق مع مصلحة الامة أو أساء القصد فى الوضع ، ولكن القانون الاخلاقى متى ثبت أنه أخلاقى لا يكون الا صالحاً

(٣) القانون الوضعى لا ينظر فى حكمه الا إلى الاعمال الخارجية أما القانون الاخلاقى فينظر إلى الاعمال والباعث عليها بل قد يحكم على العمل بأنه شر وان كانت نتائجه حسنة لان الباعث عليه سيء

(٤) القانون الوضعى تقوم بتنفيذه سلطة خارجية من قضاة وجند ورجال نيابة وسجون واصلاحية أحداث الخ أما القانون الاخلاقى فتنفذه قوة داخلية « قوة النفس » وهى الوجدان

(٥) القانون الوضعى لا يكلف الاشخاص الا بالواجبات التى عليها يتوقف بقاء المجتمع غالباً ، كاحترام النفس والمال أعنى لا يكلفهم إلا بالضروريات . أما القانون الاخلاقى فيكلفهم بالضروريات والكماليات معاً فهو يكلف الناس أن يكونوا أخياراً جهدهم وان يصلوا الى أقصى درجة في الرقى بمكنهم الوصول اليها — فالقانون الوضعى مثلا ينهى عن التعدى على مال الغير بالسرقة ونحوها ولكن لا يكلف الافراد أن يتصرفوا فى أموالهم أنفسهم بما ينفعهم وينفع أمتهم ، أما الأخلاق فانها تأمر الافراد أن يحسنوا التصرف فى أموالهم ، وتندبهم الى أن يتبرعوا للأعمال النافعة كالمستشفيات والجمعيات الخيرية ، وتَعُدُّ آثماً من فى استطاعته أن يوصل الخير الى الناس ولم يفعل

* * *

ولا بد لسعادة الانسان فى هذه الحياة من خضوعه للقوانين التى ذكرناها جميعها ، فلو حارب القوانين الطبيعية لهزم أمامها ولو خالف

القوانين الوضعية والاخلاقية لعاش عيشة سيئة ، لان هذه القوانين انما وضعت لاسعاده ، ذلك لان الانسان في هذه الحياة مضطر الى الاجتماع لا يمكنه أن يعيش وحده ولا بد أن تكون له علاقات بمجتمعات كثيرة من أسرة ومدرسة وبلد وأمة ، وكل انسان فى هذه المجتمعات له حقوق وعليه واجبات ، وكثيراً ما يدفع حب الانسان نفسه الى التعدى على حقوق الآخرين أو التقصير فى أداء واجبه ، فكان الناس فى حاجة الى قوانين تبين لهم حقوقهم وواجباتهم وتقف كلا عند حده وهذا هو عمل القانون الوضعى والاخلاقى — ولولا هذا الاجتماع وعلاقة الناس بعضهم ببعض ما احتجنا الى قوانين ولا كانت جريمة ولا عقوبة ولا أمر ولا نهى

نظرة اجمالية

فى تاريخ البحث الأخلاقى

لعل أول باحث فى الأخلاق بحثاً علمياً اليونان ، ولم يعر اليونان الأولون الأخلاق التفاتاً كبيراً بل كانت جل أبحاثهم تدور حول الطبيعيات ، حتى جاء السوفسطائيون (٤٥٠ — ٤٠٠ ق م) ، (ومعنى السوفسطائى فى اللغة اليونانية الحكيم) وهم طائفة من الفلاسفة كانوا معلمين متفرقين فى البلاد مختلفين فيما بينهم فى الآراء ، ولكن يجمعهم غرض واحد ، وهو اعداد شبان اليونان

ليكونوا وطنيين صالحين أحراراً ، يعلمون مايجب عليهم لوطنهم ، وقد أداهم النظر فى هذه الواجبات الى النظر فى أصول الاخلاق واستتبع ذلك نقد بعض التقاليد القديمة والتعاليم التى جرى عليها سلفهم ، فأثار ذلك غضب « المحافظين » ، وجاء أفلاطون بعدُ فعارضهم وانتقد متأخريهم ، وكانوا يتهمون بلعبهم بالالفاظ لقلب الحقائق حتى اشتقوا من اسمهم « سفسطة » وعنوا بها المغالطة في البحث والجدل ، من أجل ذلك شوه اسمهم مع أنهم ربما كانوا أبعد معاصريهم نظراً ، وأشدهم اجتهاداً فى ايقاظ العقول وتحريرها من الاوهام

وجاء « سُقراط » (٤٦٩ — ٣٩٩ ق م) فوجه همه الى البحث فى الاخلاق وفي علاقة الناس بعضهم ببعض ، ولم يهتم بما اهتم به الفلاسفة قبله من البحث فى منشأ العالم وفى الاجرام السماوية ، وكان يَعُد هذا قليل الفائدة ، ويرى أن الواجب أن يوجه النظر الى ما ينبنى عليه فى الحياة عمل ولذلك قيل « انه استنزل الفلسفة من السماء الى الارض »

ويعد سقراط مؤسس علم الأخلاق لأنه أول من حاول أن يبنى معاملات الناس على أساس علمى ، وكان يرى أن الاخلاق والمعاملات لا تكون صحيحة إلا اذا أسست على العلم حتى كان يذهب الى أن « الفضيلة هى العلم »(١)

(١) انظر شرح هذه الجملة عند الكلام على الفضيلة

ولم يعرف عن سقراط رأيه فى الغاية الأخلاقية ، وبعبارة أخرى المقياس الذى تقاس به الأعمال فيحكم عليها بأنها خير أو شر ، حتى لقد قامت فرق متباينة مختلفة الرأى في الغاية وكلها تنتسب الى سقراط وتتخذه زعيمها

وعلى أثر سقراط ظهرت المذاهب الأخلاقية وتنوعت وظلت متنوعة الى يومنا هذا ، وأهم الفرق التى ظهرت بعده الكلبيون Cynics والقورينائيون Cyrenics وكلهم من أتباع سقراط

أما الكلبيون فمؤسس مذهبهم أَنْتِسْتِنيس ، عاش من (٤٤٤ — ٣٧٠ ق م) ومن تعاليمهم أن الآلهة مَنزهة عن الاحتياج ، وخير الناس من تخلق بأخلاق الآلهة فقلل من حاجاته جهد الطاقة ، وقنع بالقليل وتحمل الآلام واستهان بها ، واحتقر الغنى وزهد فى اللذائذ ، ولم يعبئوا بالفقر وسوء رأى الناس فيهم متى كانوا مستمسكين بالفضيلة ، ومن أشهر رجال هذا المذهب دِيُوجانس الكلبي ، مات سنة ٣٢٣ ق م وقد كان يعلم أصحابه أن يطرحوا التكلف الذى اقتضاه اصطلاح الناس وأوضاعهم ، وكان يلبس الخشن من الثياب ويأكل ردىء الطعام وينام على الارض

أما القورينائيون فزعيمهم أَرِسْطِبُّس ولد فى قورينا (مدينة من مدن برقة فى شمال افريقية) وكانوا على عكس الكلبيين يرون أن طلب اللذة والفرار من الالم هما الغاية الصحيحة الوحيدة للحياة وان

العمل يسمى فضيلة اذا كان ينشأ عنه لذة أكبر مما ينشأ عنه من الالم

فبينا يرى الكلبيون السعادة فى الفرار من اللذة وتقليلها جهد الطاقة يرى القورينائيون السعادة فى نيلها والاكثار منها

ثم جاء أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق م) وهو فيلسوف أثينى تتلمذ أيضاً لسقراط ، وقد ألف كتباً كثيرة حفظت لعهدنا هذا كتبها على شكل محاورات ، وأكثرها شيوعاً « كتاب الجمهورية » وآراؤه في الاخلاق منثورة فى تلك المحاورات ممزوجة بأبحاثه الفلسفية

وكلامه في الاخلاق مبنى على « نظرية المثال » وتوضيح ذلك أنه كان يرى أن وراء هذا العالم المحسوس عالماً آخر روحانياً ، وأن لكل موجود مشخص مثالا غير مشخص في العالم العقلى أو الروحانى ، طبق ذلك على الاخلاق فقال ان بين هذه المثل مثالا للخير وهو معنى مطلق أزلى أبدى بالغ الكمال ، وكلما قربت المعاملة منه وسطع عليها ضوءه كانت أقرب الى الكمال ، وفهم هذا المثال يحتاج إلى رياضة النفس وتهذيب العقل ، ومن ثم لا يدرك الفضيلة فى خير أشكالها إلا من كان فيلسوفا

وكان يرى أن في النفس قوى مختلفة ، والفضيلة تنشأ من تعادل تلك القوى وخضوعها لحكم العقل ، وذهب إلى أن أصول الفضائل أربعة الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ، وهى قوام الامم كما أنها قوام الافراد ، فى الامم نرى الحكمة فضيلة الحكام

والشجاعة فضيلة الجنود والعفة فضيلة الرعية ، والعدل فضيلة الجميع تحدد لكل انسان عمله وتطلب منه أن يعمل على أحسن وجه وكذلك الشأن فى الفرد : الحكمة هى الفضيلة الحاكمة للشخص المدبرة له ، والشجاعة فضيلة بها يدفع الشرور ، والعفة بها يقاوم الميل إلى التغالى فى اللذائذ ، والعدل الفضيلة الدافعة للعمل عما يتفق مع مصلحة الناس

ثم جاء أرسطو أو ارسطاليس (٣٨٤ — ٣٢٢ ق م) وهو تلميذ أفلاطون أسس مذهباً خاصاً يسمى أتباعه بالمشائين Peripatetics « لانه كان يعلم وهو يمشى ، أو لأنه كان يعلم فى مماش مظللة » وقد بحث فى الاخلاق وألف فيها ، وقد رأى أن الغاية الاخيرة التى يطلبها الانسان من أعماله « السعادة » ولكن نظره إلى السعادة أوسع وأعلى مما يذهب اليه المنفعيون في العصور الحديثة وطريق نيل السعادة عنده استعمال القوى العاقلة أحسن استعمال

وارسطو هو واضع نظرية الاوساط ، أي أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين كالكرم وسط بين السرف والبخل ، والشجاعة وسط بين التهور والجبن ، وسنوضح ذلك عند الكلام على الفضيلة

(الرواقيون والابيقوريون) جاء هؤلاء فرقوا البحث في الاخلاق وبنى الرواقيون Stoics مذهبهم على مذهب الكلبيين ، وقد شرحنا مذهبهم قبل غير أنا نقول هنا أن المذهب

الرواق اعتنقه كثير من فلاسفة اليونان والرومان واشتهر من أتباعه فى صدر الدولة الرومانية سنيكا (٦ق م — ٦٥ ب م) وإبِكْتيتس (٦٠ — ١٤٠ ب م) والامبراطور مرقس أورليوس (١٢١ — ١٨٠ ب م)

أما الايقوريون فبنوا تعاليمهم على تعاليم القورينائيون. ومؤسس مذهبهم أبيقور Epicurus الذي ذكرنا قبل مذهبه وقد تبعه في العصور الحديثة الفيلسوف الفرنسى «جَسَنْدِي» (١٥٩٢ — ١٦٥٥) وفتح مدرسة فى فرنسا أحيا فيها تعاليم أبيقور وتخرج فيها موليير وكثير من مشاهير الفرنسيين

وفي أواخر القرن الثالث للميلاد انتشرت النصرانية في أوروبا فغيرت الافكار ونشرت أصول الاخلاق التى وردت في التوراة وعلمت الناس أن الله مصدر الاخلاق فهو الذي يضع لنا القواعد نراعيها فى معاملاتنا ويبين لنا الخير من الشر، والخير كل الخير في ارضاء الله وتنفيذ أوامره — وقد أقامت الاولياء والقديسين مقام الفلاسفة عند اليونان الوثنيين، وافقت النصرانية فى بعض تعاليمها فلاسفة اليونان ولا سيما الرواقيين ولم تخالفهم كثيراً في تقويم الاشياء خيرها وشرها. وإنما أهم ما خالفتهم فيه النظر إلى الباعث النفسى على المعاملة. فعند فلاسفة اليونان كان الباعث على عمل الخير المعرفة أو الحكمة مثلا وعند النصرانية انما ينبعث عمل الخير عن حب الله والايمان به

كانت النصرانية تطلب من الانسان أن يجتهد في تطهير نفسه فكراً وعملا. وتجعل للروح سلطانا تاماً على البدن وعلى الشهوات، ولذلك غلب على أتباعها الاولين احتقار البدن واعتزال العالم والميل الى الزهد والتنسك والرهبانية

الاخلاق فى القرون الوسطى: كانت الفلسفة — ومنها علم الأخلاق — مضطهدة في القرون الوسطى فى أوروبا فقد كانت الكنيسة تحارب فلسفة اليونان والرومان وتعارض فى نشر العلم والمدنية القديمين، لانها اعتقدت أن الحقيقة قد وصلت اليها من الوحى المعصوم فما أمر به فخير وما قال به فحق، فلا معنى بعد للبحث عن الحقيقة — وكان يسمح بقدر محدود من الفلسفة لتأييد العقائد الدينية وتحديدها وتنظيمها. فكان بعض رجال الدين يبحث في فلسفة أفلاطون وارسطو والرواقيين لتأييد التعاليم المسيحية وتطبيقها على العقل. وما يعارض النصرانية منها كان ينبذ نبذاً، وكان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة بهذا المعنى

وفلاسفة الاخلاق الذين ظهروا فى هذا العصر كانت فلسفتهم مزيجاً من تعاليم اليونان وتعاليم المسيحية ومن أشهرهم آبِيلَرْد فيلسوف فرنسي (١٠٧٩—١١٤٢) وتوماس أكْوَيْناس فيلسوف لاهوتي إيطالى (١٢٢٦ — ١٢٧٤)

الاخلاق عند العرب: لم يعرف للعرب فى جاهليتهم فلاسفة

دعوا إلى مذاهب معينة كالذى رأيناه عند اليونان من أبيقور وزينون وأفلاطون وارسطو . لان البحث العلمى لايكون الا حيث تعظم المدنية . انما كان عند العرب حكماء وبعض شعراء أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وحثوا على الفضائل وحذروا من الرذائل المتعارفة لعهدهم ، كما ترى في حِكَم لقمان وأكثم بن صيفى وأشعار زهير بن أبى سلمى وحاتم الطائى

الاسلام : حتى جاء الاسلام فدعا إلى الاعتقاد بأن الله مصدر كل شىء فى العالم ، فما فى الكون من ظواهر مختلفة ومخلوقات متنوعة من الحبة في ظلمات الارض إلى السماء ذات البروج فانما عنه صدر، وبه قام وانتظم

وكما خلق الانسان وضع له نظاماً يتبعه وطريقاً يسير عليه وشرع له أموراً من صدق وعدل أمره باتباعها وجعل السعادة في الدنيا والنعيم في الآخرة جزاء من اتبعها . وجعل عكسها من كذب وظلم رذائل نهى عنها وحذر من ارتكابها . وجعل الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة عقوبة من ارتكبها « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » « إن الله لايحب المفسدين »

وان الله لم يأمر بما أمر اعتباطاً ولا نهى عما نهى كذلك ،

بل إن الله جعل صلاح الدنيا يتوقف على أمور من عدل وصدق وأمانة وجعل فسادها بأضدادها . فأمر بما يتوقف عليه صلاح الدنيا وانتظام شؤونها ونهي عما يسبب فسادها (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما) (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا)

وما توقفت عليه مصلحة الناس وبدونه يفسد نظامه كالمحافظة على الارواح والاموال أمر به أمراً لا هوادة فيه وسماه فرضاً ، ومن أجل هذا أعظم عقوبةَ القاتل والسارق — وما تترتب عليه رفاهية الناس فحسب طالب به مطالبة دون الاولى وندب اليه كعيادة المرضى

البحث العلمى عند العرب : قل من العرب — حتى بعد أن تحضروا — من بحث فى الاخلاق بحثاً علمياً . ذلك لانهم قنعوا أن يأخذوا الاخلاق عن الدين ولم يشعروا بالحاجة إلى البحث العلمى فى أساس الخير والشر . ولذلك كان الدين عماد كثير ممن كتبوا فى الاخلاق كما ترى في كتب الغزالى والماوردى

وأشهر من بحث في الاخلاق بحثاً علمياً أبو نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩هـ واخوان الصفاء فى رسالة من رسائلهم وأبو على ابن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨هـ) وكان هؤلاء قد درسوا الفلسفة اليونانية فكان فيما درسوا آراء اليونان في الاخلاق

ولعل أكبر باحث عربي فى الاخلاق ابن مسكويه المتوفي سنة ٤٢١ هـ ألف فيها كتابه المشهور (تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق) بحث فيه بحثاً علمياً وحاول أن يمزج فيه تعاليم أفلاطون وأرسطو وجالينوس بتعاليم الاسلام ، وكان لتعاليم أرسطو الغلبة وكثيراً ما يعزو اليه قطعاً فى كتابه وقد اقتبس منه كثيراً من ابحاثه فى النفس

ولكن لم يسر كثير من علماء العرب على منواله ؛ وحبذا لو كانوا توسعوا فى نظرياته واستدركوا مافاته ، وأحلوا ما تثبت صحته من العلم الحديث محل مايظهر بطلانه من القديم

علم الاخلاق فى العصور الحديثة : فى النصف الاخير من القرن الخامس عشر ابتدأت النهضة فى أوروبا ، وأخذ العلماء يحيون فلسفة اليونان القديمة وابتدأ ذلك فى إيطاليا ثم عم أوروبا جميعها استيقظ العقل من سباته فأخذ يعرض كل شىء للنقد والبحث ورفعَ لواء حرية الفكر . وابتدأ ينظر إلى الاشياء نظراً جديداً ويقومها تقويماً جديداً

ومما عرضه للنقد والبحث قضايا الاخلاق التى وضعها اليونان ومن بعدهم . فنقدها العلماء الحديثون وتوسعوا فى بحثها مستعينين بما استكشف من قضايا علوم أخرى كعلم النفس والاجتماع ، ومالوا في بحثهم الى الواقع والحقيقة لا الخيال وراموا اظهار كل مافى الانسان من قوى وملكات بالحياة العملية فى هذا العالم . وقد

أنتج هذا النظار الجديد تغييراً في قيمة الفضائل . فلم يعد لفضيلة الاحسان مثلا تلك القيمة الكبرى التى كانت لها في القرون الوسطى وصار (للعدل الاجتماعى) قيمة لم تكن له من قبل — واتجه النظر إلى ضرورة اصلاح ما يحيط بالشاب والمرأة والطفل من النظم الاجتماعية حتى يصلح الفرد . وكان للابحاث الجديدة فضل فى تقرير الحقوق والواجبات وأشعار الفرد بعظم مسئوليته أمام المجتمع وأمام نفسه

ويعد ديكارت الفيلسوف الفرنسي (١٥٩٦ — ١٦٥٠ م) مؤسس الفلسفة الحديثة ، فقد وضع للعلم والفلسفة مبادىء جديدة للسير عليها أهمها (١) عدم التسليم بشىء مالم يفحصه العقل ويتحقق من وجوده ، فما كان مبنيا على الحدس والتخمين وما كان منشؤه العرف فقط يجب أن يرفض (٢) يجب أن نبتدىء عند البحث بأبسط الاشياء وأسهلها ثم نتوصل منها إلى ماهو أكثر تركيبا وأغمض فهماً حتى نصل إلى المقصود (٣) يجب ألا نحكم بصحة قضية حتى نتحقق منها بالامتحان ، وقد مال هو وأتباعه إلى مذهب الرواقيين ورقوا تعاليمهم كما أن جسندى وهوبز وأتباعهما مالوا إلى مذهب أبيقور ونشروا مذهبه — ثم جاء شفتسبرى وهتشسون فقالا بوجود حاسة غريزية عند الانسان يدرك بها الخير من الشر كالحاسة التى يدرك بها الجميل والقبيح ، واختلف العلماء الحديثون اختلافاً كبيراً فى شرح هذه الحاسة

وفي القرن الماضى جاء بنتام (١٧٤٨ — ١٨٣٢) وجون ستورت ميل (١٨٠٦ — ١٨٧٣) فحولا مذهب أبيقور إلى مذهب المنفعة أعنى أنهما نقلا مذهب أبيقور من القول بالسعادة الشخصية إلى القول بالسعادة العامة . وانتشر مذهبهما فى أوربا وكان له أثر كبير فى التشريع والسياسة

وجاء جرين (١٨٣٦ — ١٨٨٢) وهربرت سبنسر (١٨٢٠ — ١٩٠٣) فطبقا مذهب النشوء والارتقاء على الاخلاق كما رأيت

ومن علماء الجرمان الذين كان لهم أثر كبير فى الاخلاق فى العصور الحديثة سبينوزا [١] (١٦٣٢ — ١٦٧٧) وهجل (١٧٧٠ — ١٨٣١) وكانت (١٧٢٤ — ١٨٣١)

ومن الفرنسيين كوزن (١٧٩٢ — ١٨٦٧) وأوجست كمت (١٧٩٨ — ١٨٥٧) وليس يسع مختصر كهذا ذكر آرائهم وبيان مذاهبهم

وعلى الجملة فمن عهد جون ستورت ميل (١٨٧٣) وسبنسر (١٩٠٣) الى الآن يكاد البحث الاخلاقى يكون قاصراً على ايضاح النظريات السابقة وبسطها ، وبعبارة أخرى لم تستكشف من ذلك العهد نظريات جديدة ولكن العلماء اجتهدوا في توسيعها وتطبيق الحياة العملية عليها [٢]

---

(١) سبينوزا فيلسوف هولاندى ولد من أب يهودى برتغالى

(٢) انظر كتاب Sidgwick History of Ethics

وكتاب J. M. Robertson' A Short History of Morals

الكتاب الثالث

القسم العملى

وحدة المجتمع
وعلاقة الفرد به

إنا نرى الانسان يصيب عضواً من أعضائه مرض فيتألم له سائر الجسد . ولا يقتصر الالم على العضو المريض . وقد ينتهى ذلك بالموت فتسلب الاعضاء كلها ما فيها من حياة فأعضاء الجسم كلها متضامنة يتأثر سائرها بما يصيب أحدها

ونرى المجموعة من الحجارة لا رابطة بين أفرادها ولا يحس سائر الحجارة بما يقع على حجر منها فلو اننا أخذنا أحدها وحطمناه لم يتعد ذلك الاثر غيره

فما كان من الصنف الاول فهو (جسم عضوى) كالانسان والحيوان والنبات وما كان من الصنف الثانى ككل مجموعة من أحجار وأخشاب أو نحوها سمى (جسما غير عضوى)

فمن أى الصنفين الجمعية من الناس كالاسرة والحزب والامة ؟ أنا بقليل من النظر نرى أنها « جسم عضوي » ولنأخذ مجتمعاً صغيراً نحلله تحليلا دقيقاً لنتبين منه كيف يعتمد المجموع على

أجزائه والاجزاء على المجموع، ونتدرج فى النظر من الصغير إلى المجتمع الكبير ، فأصغر المجتمعات الاسرة ، وهى تتكون عادة من أب وأم وأولاد وأقرب الناس اليهم . وفيها يعتمد كل فرد على الباقين، الكل يخدم الفرد والفرد يخدم الكل . فاعتماد الاولاد على الآباء فى مأكلهم وملبسهم ومسكنهم ونظافتهم وغير ذلك واضح جلى — أما الآباء فقد يعتمدون على أولادهم إذا كبروا ومست الحاجة . ولكن أهم من هذا وأكبر قيمة في نظرهم ما يشعر به الآباء من السعادة بما يرون من حب ابنائهم لهم وحنانهم اليهم . وان كلمة شكر صادرة من قلب أو عملا يدل على الاعتراف بالجميل من الابن لابيه أو أمه ليدخل على قلبهما من السرور مالا يقدر

وانظر إلى علاقة الاولاد أنفسهم بعضهم مع بعض تر أن كل طفل في الاسرة يؤثر فى الباقين ويتأثر بهم ولوعاش الانسان من مبدئه عيشة عزلة وانفراد لنشأ كالحيوان الاعجم ، فكل طفل يتعلم من اخوانه وأخواته المشاركة فى العواطف فيشاركهم فى فرحهم ويشعر بالحزن لحزنهم ، ويتعلم درس الاخذ والعطاء فيعرف أنه يجب أن يعطي كما ياخذ، وأن يتنازل عن بعض مايحب ويتعلم تبادل المعونة فيعرف أن القوى يعين الضعيف والكبير يعين الصغير وكل من في مكنته نوع من المعونة للآخرين يبذله لهم

وفى الأسرة يتجلى ماقدمناه عن مميزات الجسم العضوى من أن الضرر الذى يصيب عضواً يتأثر به سائر الأعضاء . فالولد سيئ الخلق يحرم الأسرة كلها سعادتها والأب السكير أو المقامر يؤثر سلوكه في معيشة أسرته فيضايقها بما يصرف من مال وما يتبع سكره أو لعبه من اهمال لشؤون بيته . والأم الجاهلة يؤثر جهلها فى حال الأسرة ، فكم من ولد أصابته آفة أوشوهت خلقته أو أدركه الموت من جراء جهل أمه وهكذا .

كذلك الشأن فى الجمعيات التى هى أكبر من الأسرة كالمدرسة ، فطلبة المدرسة ومدرسوها وخريجوها جسم عضوى ، يستطيع كل فرد منهم بعمله الشخصى أن يرفع من شأن المدرسة أو يحط من قدرها . والصورة التى للمدرسة فى أذهان الناس وقيمتها عندهم نتيجة سيرة أفرادها

والحزب من الأحزاب يأتى فرد من أفراده عملا مجيداً فيمجد الحزب ويعلى مقامه وكذا العكس، وقيمة الحزب أوالمدرسة حاصل جمع ما يأتى به الأفراد من الأعمال

والأمة أسرة كبيرة . فهى جسم عضوى تتحد فى اللغة وفى الدين غالباً ، يحكمها قانون واحد ويشترك أفرادها فى المنافع والمضار ، كالامة المصرية يفيض نيلها باعتدال فينتفع بذلك كل المصريين وتحسن زراعة القطن فيها سنة وترتفع أثمانه فيكون القطر كله

فى رخاء . تاجر يبيع للفلاح مايحتاجه ، ومؤجرون يسهل عليهم تحصيل إجاراتهم ، وحكومة تحصل الخراج من غير عناء ، وتتيسر المعاملات بين الناس . فالملاك بقبضهم أجور أملاكهم يعمرون ويبنون فينتفع البناءون والنجارون ومنهم ينتفع غيرهم وهكذا

وأوضح المُثل لاشتراك الامة فى المنافع والمضار المثل الجغرافيــة ، فخزان اسوان بقعة من بقاع القطر المصرى يؤثر فى سعادة مصر جميعها فيصرف المياه بقدر حسب الحاجة اليها ولو تهدم ولم يؤد عمله لتضرر القطر كله

والمدارس العليا فى القاهرة لم تنشأ لمنفعة القاهرة فحسب بل أنشئت لمصلحة مصر كلها ، يتعلم فيها أبناؤها من جميع سكانها

بل تأمل فى كل طائفة من طوائف العمال كعمال السكك الحديدية وعجلات النقل وما ينال الناس من الخير منهم ، واعتبر ذلك فى أوقات اعتصابهم كيف يعطل كثير من الأعمال ويتأذى كثير من الناس

وعلى مثال ما قدمنا يمكن القول بأن الامة كلها يلحقها ضرر بليغ من وجود عدد كبير من أفرادها يشتغلون فى معامل غير صحية ، ويسكنون فى أزقة قذرة ، لا يصل اليها هواء نقى ولا تطهر مساكنها أشعة الشمس . فتضعف صحتهم وتقصر آجالهم ، ويكثر العجز فيهم فلا يستطيعون أداء أعمالهم حق أداء ، ويصبح كثير منهم عالة على الأمة ، يأكلون من عمل غيرهم ، فهم عضو

مريض عاجز فى جسم حى — وكذلك الشأن فى الامة اذا كثر فيها عدد الجاهلين أو السكيرين ، ومحال أن يكون جسم الأمة صحيحاً وفيها يكثر المقامرون أو المدمنون

وكما أن كل عضو فى الجسم ينفع سائر الاعضاء وينتفع منها ويضر سائر الاعضاء ويتضرر منها فكذلك الحال فى جسم الامة ، فالمتعلمون مثلا ينتفعون من الامة بمالها وسعيها لتنتفع الامة منهم بعد بعلمهم وعملهم ، وهكذا كل طائفة من طوائف العمال، فالمعلمون والنجارون والمزارعون والتجار وغيرهم أعضاء يكوّنون جسم الامة

وكل فرد عضو فى أمته يؤثر فيها أثراً صالحاً أو سيئاً، فالمدرس الصالح يبث فى روح تلاميذه أخلاقاً صالحة ويجعلهم أقرب الى الخير . وغيرهم يقتدى بهم ، والقاضى العادل يعدل بين الناس فيأمنون على حقوقهم ويثق ذو الحق بأنه سيصل الى حقه ، ويخاف المجرم من عقوبة الاجرام فيبتعد عنه ، ويجدّ العامل فى عمله لانه يعلم أن نتيجة سعيه له ، وانه ان اغتصب حقه فالقضاء كفيل برده اليه . وعلى العكس من ذلك القاضى المرتشى . ولا يخلو انسان من أثر وان لم تره عيوننا ، كالشعرة لها ظل وان لم تدركه أبصارنا ، فاذا ضم اليها شعرات كان الظل جلياً واضحاً . وهذا الاثر يختلف تبعاً لاختلاف درجات الناس فى الصلاح والفساد . ومقياس رُقى الامة وانحطاطها بمجموع عمل أفرادها

بل قد تجلى للباحثين في الايام الاخيرة أن الناس كلهم على

اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ودينهم جسم عضوى واحد .

فكل أمة تؤثر فى الأمم الأخرى وتتأثر بها ، فى صنائعها وعلومها وأخلاقها ، فليست أمة من الأمم غنية بمعادنها وصنائعها وعلومها عما حولها . بل ترى أن الله قد قسم الخيرات على العالم فأمة غنية بالحبوب ولكنها فى حاجة الى المعادن وأخرى على العكس منها وهكذا ، وكل ينفع وينتفع كما قال المتنبى :

الناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

اعتبر ذلك فى أيام الحرب العظمى تر أن كل أمة محايدة كانت أو محاربة قد أصابها الضنك بسبب حاجتها الى أشياء كانت تجلبها من الأمم الأخرى فأصبح نيلها عسيراً — وقد جرّت هذه الحقيقة — أعنى اعتبار الجنس البشرى جميعه جسما واحداً وكل أمة عضواً من أعضائه — بعض الباحثين الى النظر في الحروب التى تقع بين الأمم وذهبوا الى أنها ليست بسائغة كما لا يسوغ أن يعمل عضو فى جسم على أضعاف عضو آخر ، وتمنوا أن لو زال مثار الخلاف بين الأمم حتى لا يكون مساغ للحرب . واقترحوا لذلك انشاء محكمة تحكم بين الامم كما تحكم المحاكم بين الافراد المتنازعين ، وهذه هى المسماة بعصبة الامم ، وقال هؤلاء أن الخلاف الطبيعى بين الامم فى الاخلاق والعادات لا يحيل امكان التأليف بينها كما أن الاختلاف بين أفراد الاسرة بالذكورة والانوثة والشدة واللين لم يمنع من توحدها واعتبارها

جسما واحداً ، ولكنهم مع هذا دعوا إلى « الوطنية » والمحافظة على « القومية » مادامت الامم الاخرى تدعو اليها لان انعدام « الوطنية » فى أمة مع بقائها فى الامم الاخرى مؤذن بزوال تلك الامة

وقد تقدم الناس فى فهم هذه « الاخوية العامة » فاشتدت الرابطة بين الامم وكثر انتفاع بعضها ببعض فامتدت السكك الحديدية بين أمة وأخرى ، وعبرت البواخر البحار ، فارتبطت الامم براً وبحراً ، وعقدت محالفات كثيرة بين الامم المختلفة لمصلحة الناس كالاتفاق العام على البريد والتلغراف والسكك الحديدية ، ومن الادلة على ذلك ما نراه من ميل كثير من الناس إلى توحيد المقاييس والموازين وانشاء لغة عامة سهلة وعقد مؤتمرات عامة يحضرها من يمثلون حزبهم فى كل أمة (كمؤتمر الاشتراكيين) الى كثير من أمثال ذلك

* * *

هذا هو شأن المجتمعات : ونسبة الفرد اليها انه عضو من أعضائها ، ولا يخلو انسان من ارتباطه بمجتمعات كثيرة ، فكل انسان عضو فى أسرة وفى مدينة أو قرية وفي أمة وفى العالم بأسره وقد اختلف الباحثون فى أن الانسان مدنى بالطبع أو مفطور على الاجتماع الذى هو المدنية فى عرف الحكماء — أو أن الناس كانوا يعيشون مستقلين كل يعيش لنفسه ويسعى لنفسه ولكنهم

اجتمعوا باختيارهم وفكروا فرأوا خيراً لهم أن يعيشوا جماعات وأن يتنازلوا عن جزء من حريتهم لان معيشتهم الاجتماعية تقضى عليهم بالتنازل عنه للتمتع بالجزء الباقى منه ، وليس هذا موضع ترجيح أحد القولين — وعلى كل — فالانسان من قديم قد عاش عيشة اجتماعية وكانت له علاقات بمن حوله من الناس وهو يؤثر فيهم ويتأثر بهم

ومن المجتمع يستمد الفرد كل شىء من مأكل وملبس ومسكن وعلم وخلق ، ولو جرد الانسان من كل شىء ناله من المجتمع ما بقى له شىء : فجسمه وعقله وخلقه منحة من منح المجتمع وقد اخطأ ابن طفيل (١) فى رسالته « حى بن يقظان » إذ جعل « حياً » يتعلم من نفسه — بواسطة التفكير — أسرار الكون ويهتدي إلى أعمق المسائل في الالهيات ، وفاته أن ذلك لايحصل إلا بعد تعليم ، وذلك لايكون الا باجتماع ، وفى هذا الخطأ بعينه

(١) ابن طفيل فيلسوف اندلسى مات سنة ٥٣١ هـ الف رواية « حى ابن يقظان » . بطلها « حى » كان يعيش فى جزيرة لا يسكنها احد من الناس وليس له علاقة باحد من أهل الجزائر الاخرى . بحث بعقله بحثا منطقياً متدرجا من البسيط الى المركب حتى وصل الى الاعتقاد بالله وغرضه فيها أن يبين ان الشرع يتفق مع العقل وقد ترجمت الرواية إلى اللاتينية وظهرت سنة ١٦٧١ م

وحذا حذوه الكاتب الانجليزى « ديفو » فالف رواية روبنصن كروسو فرض فيها بطل الرواية قد عاش فى جزيرة وحده بعد أن كسرت مركبه وأمكن أن يصل بعقله الى كثير من الامور

وقع « ديفو » Defoe فى روايته روبنصن كروسو

وكما أن العضو اذا انفصل من الجسم مات ولم تعد له حياة كاليد تفارق الجسم والورقة تفارق الشجرة فكذلك الانسان اذا انفصل من مجتمعه أدركه الفناء ولم تكن له قيمة ، لان أعمال الانسان وأغراضه وعاداته لا تقوّم إلا بالنظر إلى المجتمع فليس الصدق خيراً ولا الكذب شراً الا لانسان يعيش فى مجتمع ولولا ذلك لم يكن أحدهما خيراً والآخر شراً ، بل لو دققنا النظر لرأينا الانسان لايستطيع أن ينفصل عن مجتمعه وان قصد الانفصال عنه ، ولكنه بقصده ذلك يفقد ما كان المجتمع يمده به من القوة والحياة

واذا كان للمجتمع على الفرد من الفضل ما بينا ، وكان الارتباط بينهما ما ذكرنا ، وجب عليه أزاء ذلك أن يقدم من الخير لمجتمعه أقصى مايستطيع ، جزاء وفاقاً

القانون والرأى العام

لكل من القانون والرأى العام أثر كبير فى المجتمع ، فهما يمنعان الناس من تعدى الحدود والجرى حسب الهوى ، ويلزمانهم بعمل ما يحفظ كيان المجتمع غالباً ، والناس يعملون على وفقهما أولا خوفاً من عقوبتهما ثم ينقلب ما كان يعمل عن خوف إلى عادة ، ومن عادة الى أن يعمل للشعور بأنه خير ، ونحن نذكر الآن أثر كل فى المجتمع وموقف الانسان أمامه

القانون : وضعت القوانين للمجتمع لتساعد على تحقيق العدل فيه؛ وهى تنفذ أوامرها ونواهيها طوعاً أو كرهاً — وهذه القوانين قليلة الغناء اذا كان من وضعت لهم متوحشين لا يحترمون قانوناً ولا يخافون من عقوبة — كذلك إذا بلغ الناس فى أمة درجة كبيرة من الرقى والحكمة لم يكونوا فى حاجة الى قانون ، ولم تصل أمة ما إلى هذه المنزلة من الرقى

والقوانين الوضعية تتبع حالة الناس ، وهى مظهر من مظاهرهم ، فاذا جد شىء فى الناس يستدعى قانوناً جديداً وجب أن يوضع واذا تغيروا عما كانوا عليه وقت وضع القانون وجب أن يتغير القانون فمثلا ظهر فى الوجود سيارات (أوتوموبيلات) لم تكن وهددت حياة الناس فاضطررنا الى وضع قانون يدرأ هذا الخطر بايجاب تسجيل السيارات وتحديد سرعة سيرها ومنح رخصة للسائق وهكذا — كذلك ما اخترع من الآلات البخارية والكهربائية أدخل تغييراً كبيراً فى حياتنا الاجتماعية اضطررنا معه الى وضع كثير من القوانين الجديدة ، فقطارات البخار بدل الجمال وطواحين بخارية بدل طواحين الهواء ، ومدن آهلة بالسكان أنشئت مكان قرى حقيرة ، وبريد وتلغراف ونحوهما كل ذلك غيّر شكل المعاملات بين الناس حتى صارت تخالف من وجوه كثيرة المعاملات فى الازمان السابقة ، فكانت نتيجة ذلك وضع قوانين جديدة

بل كثيراً ما يكون تغير أفكار الناس وحده كافياً لتشريع جديد ، فمثلا قد مر على الامم الاوروبية زمن كانت تعد فيه التعليم مسألة شخصية ، فللأب أن يعلم أولاده وله ألا يفعل — كما هو الشأن فى مصر اليوم — ثم تغيرت أفكارهم ورأوا ضرورة نشر التعليم بينهم ، واعتقدوا أن التعليم حق من حقوق الامة لا مسألة شخصية ، فوضع كثير من الامم قانوناً جديداً يجعل التعليم الاولى اجباريا وبالمجان

هذه أمثلة على قوانين جديدة لم تكن ، أما مثال التغيير فى القانون فنراه يحصل بين آن وآخر من تعديل مادة من المواد بأخرى يرى المشرعون أنها أنسب لحال الناس من الأولى

من هذا نرى أن القوانين يجب أن تتبع تغيرات الاحوال الاجتماعية وما يطرأ على الناس من رقى وأنه لا يمكن لحكومة أن تضع قانوناً صالحاً للعصور المختلفة

القانون والحرية : قد يظن لأول وهلة أن القانون أنشئ لتقييد حرية الفرد ، ذلك لانه قبل القانون حر أن يفعل وألا يفعل ، أما بعد وضع القانون فاذا لم يطعه عوقب وهذا سلب للحرية ، ولكن اذا دققنا النظر رأينا القانون وسيلة من وسائل نيل الحرية لا من وسائل سلبها ، فالمتوحش الذى لا قانون له حياته مهددة كل وقت ، يحتاج إلى عناية شديدة فى المحافظة على نفسه ، أما

الامم المتمدينة فالفرد فيها لا يحتاج إلى عناء في حفظ حياته ، وقواه موفورة ليرقى نفسه فى تحصيل علم أو نحو ذلك ، لان قوة القانون تحميه ، فالقانون وإن كان ضيق عليه وألزمه بالمحافظة على حقوق الناس والا فالعقوبة تحل به ، فانه ضيق على غيره من الناس وألزمهم بمراعاة حقه كذلك ، فكان له فيما وراء حدود القانون متسع ، فلسنا ننكر أن القانون صاد للانسان عن بعض الاعمال مقيد لبعض حريته ولكن ما يكسبه الفرد من الحرية بوضع القانون أكثر مما يفقده

لذلك كانت كل جمعية من الناس تبلغ درجة من الرقى تضع لنفسها قوانين تنظم شؤونها وتحفظ لها حريتها ، وتسهل عليها طريق العمل فتكسب بها من الحرية أكثر مما تفقد — مثال ذلك « قانون المبانى » وهو القانون الذي يحتم على كل بان فى القاهرة مثلا — أن يأخذ رخصة من « وزارة الاشغال » وهى تحدد له موضع البناء الخارجى ، فلو لم يكن هذا القانون ما انتظمت شوارع ولا طرق واصعب على الناس السير للوصول إلى أغراضهم فلما وضع هذا القانون سلبهم حرية البناء في ملكهم كما يشاءون ، ولكن منحهم سهولة السير ونظام الاعمال وحسن المنظر

احترام القانون : فى العصور الماضية وفى الامم المستبد بأمرها يوضع القانون بارادة الملك أو فئة قليلة تمثل الامة وهؤلاء ينفذونه بالقوة رضيت الامة أو أبت ، وفي الامم الشورية يوكل

وضع القانون الى بعض الخبيرين ، ثم يعرض على البرلمان « المجلس النيابى » وأعضاء هذا البرلمان قد انتخبتهم الامة ليعبروا عن رأيها فهم إذا قبلوا شيئاً أو رفضوه فمعنى ذلك أن الامة قبلته أو رفضته ، وبعد عرضه يتناقش فيه الاعضاء ثم تؤخذ الآراء فاذا وافقت عليه الاغلبية صار قانونا لان معنى موافقة أغلبية البرلمان موافقة أغلبية الشعب ، فيخضع أكثر الناس للقانون ويحترمونه لانهم هم الذين عملوه . وهو يعبر عن إرادتهم . أما العدد الذى كان معارضاً فكثير منهم يخضع عن رضا واختيار لانهم يحترمون رأى الاغلبية . ومن لم يخضع نفذ عليه القانون جبراً ولذلك أحاطت كل أمة قانونها بسياج لحمايته : من شرطة ومحاكم وقضاة وعقوبات توقع على المخالفين ، وخير القوانين ما يعبر عن رأى الامة كلها أو أغلبها كما أن خير خضوع للقانون هو الخضوع عن رضا واختيار . ذلك لان هذا الخضوع لا يسلب المرء حريته ولا يجعله يتحين الفرص للمخالفة

يجب أن نحترم القانون ونطيعه لانه يفيد الناس ويسبغ عليهم من الحرية أكثر مما يسلبهم كما بينا ، وفى خرق حرمته ضرر بالامه بليغ

وكثيراً ما تحدث بعضَ الناس أنفسهم بمخالفة القوانين والهرب من عقوبتها إذا رأوا فى اتباع القانون ضرراً بهم ويعرض هذا للناس كثيراً في أعمالهم اليومية كالذين يخفون ما معهم من البضائع فراراً من القانون الذى يلزم كل شخص بدفع ضريبة على

ما يأخذه معه من البضائع فى السكك الحديدية بشروط معينة ، ويبررون عملهم بأن القانون قاس ومن العدل أن تؤخذ الضريبة من التجار وهم ليسوا كذلك وانما يحملون معهم ما به يقتاتون مثلا أو يقولون أن على عمال السكك الحديدية أن يراقبوا الركاب ويعرفوا ما معهم مما يستوجب الدفع ، وليس على الركاب أنفسهم أن يخبروا العمال ، أو يقولون أنهم ليسوا بأغنى من الحكومة فدفع الضريبة يؤثر فى ماليتهم أثراً كبيراً ولكن قلما يظهر أثره فى مالية الحكومة »

وبالتأمل نرى أن هـذه الاقوال واهية ، وان كل انسان مكلف بحماية القانون ، وانه بقبوله أن يكون فرداً فى الامة قد تعهد بتنفيذ قوانينها وانه بخرق حرمتها يضعف سلطان الحكومة ، وانه بعصيانه قانون السكك الحديدية يبيح لغيره مخالفة « القانون المدني » وآخر « قانون العقوبات » وهكذا ، لانه قلما يسلم قانون من أن يراه بعض الناس غير عادل وبذلك نكون قد عرضنا كل القوانين لان تخالف وفى هذا من الضرر ما بينا : وبديهى بطلان دعوى أن ذلك واجب على عمال السكك الحديدية لا على الركاب فكلنا يحتقر من يأكل في مطعم ويختبئ فى الخارجين حتى لا يراه صاحب المطعم وكلنا يعد هذا عملا رذلا خسيساً ويعد من السخافة أن يقول أن على صاحب المطعم أن يرانى وليس علىّ أن أريه نفسى ، وليس غنى الحكومة بعذر صحيح يسوغ للفرد ألا يدفع ما عليه كما أن غنى الدائن لا يسقط حقه فى الدين مهما كان المدين فقيراً ،

وانما غنى الحكومة من مبالغ صغيرة كهذه تجمعت فكونت غنى ولو أجزنا هذا العمل لكل فرد أفقر من الحكومة لافتقرت

ومما يساعد على إطاعة القانون أن يوسع الانسان نظره فلا يقتصر على النظر لنفسه فى حادثة خاصة ، بل ينظر لمعنى القانون والحكومة وفائدتهما كما ينظر فى السبب الذي من أجله وضع القانون ، وماذا يكون الحال لو أن الناس كلهم عملوا كما عمل فخالفوا القانون ، وليس من الحق أن يرضى لنفسه بمخالفة القوانين ولا يرضى ذلك للناس فى موقف كموقفه ، فليس هو إلا فرداً من أفراد الامة ، يجوز له ما يجوز لسائر الافراد ، ويحرم عليه ما يحرم عليهم

أما إذا رأى أحد أن قانوناً من القوانين ظالم ضار بالامة وانه يجب تغييره فهناك طرق يمكن أن يسلكها لذلك كتقديم اقتراح إلى مجلس النواب أو الجمعية التشريعية يبسط فيه ضرر القانون القديم وضرورة تغييره وكالكتابة فى الجرائد ونحو ذلك ، وفى أثناء جهاده فى تغيير القانون يجب أن يحترمه ويخضع له

ومن خير الامثلة على ما يجب أن يعمل فى مثل هذا الموقف ما حكى عن جون همبدن Hampden أحد أعضاء البرلمان الانجليزى فى حكم شارل الاول : ذلك أن الملك سنة ١٦٣٦ كان فى حاجة الى المال ففرض على الاهالى ضريبة من غير أن يستشير البرلمان فى فرضها ، واحتج أعوانُ الملك بأن له الحق قديماً

أن يفرض الضرائب من غير برلمان ، واحتج معارضوه بأن سلطة الملك قد تقيدت بالبرلمان فلم يعد من سلطانه فرض الضرائب

فلما ذهب المحصلون الى همبدن قالوا له « يجب أن تدفع الضريبة بحكم القانون » فأجاب « ان القانون لم يوجب على شيئاً وان طلبكم غير قانوني » (ويجب أن يلاحظ هنا أنه لم يجب بأن القانون سيء ، وانما أجاب بأنه لم يكن قانوناً مستوفياً لشروط التشريع) ثم قدم للمحاكمة وعين لمقاضاته اثنا عشر قاضياً ، انحاز ثمانية منهم الى رأى الملك ، فكانت الاغلبية على همبدن فحكم عليه ، فاحترم الحكم وخضع له ودفع الضريبة لانه بحكم المحكمة صار الدفع قانونياً ، ولكنه رأى أنه قانون ظالم فجد فى تغييره

ولما رأي همبدن أن الملك وأعوانه يخرجون على القانون ويضعون القوانين الظالمة اجتهد في تأليف جماعة كبيرة على رأيه وجاهد فى سبيل ما يعتقده الحق وفي تغيير ما يراه ظلما حتى قتل سنة ١٦٤٣

وكثيراً ما يتردد الانسان بين مخالفة القانون وإطاعته ، وذلك يكثر حيث تتحارب العواطف مع العقل كما لو كلف شرطى بالقبض على لص كان قد أسدى اليه معروفاً ، ففى هذا الموقف قد تحمل الشرطىّ عواطفه على أن يكافىء اللص على معروفه بعدم القبض عليه ، ولكن بالتأمل نرى أنه يجب أن يقبض عليه لان الشرطى ليس واضعاً للقانون ولا مفسراً له وانما هو منفذ فحسب

ولان كون اللص ذا مروءة لا يلغى أنه تعدي علي مال الغير وهذا ما سبّب القبض عليه ، ووجه ثالث وهو أن الشرطى بقبوله هذا العمل قد تعهد أن ينفذ الاوامر ويفعل الخير للمجتمع فليس يقبض على اللص لشخصه حتى يكون ما أسداه من المعروف مانعاً ، وانما يقبض عليه لانه ضار بمجتمعه وهذا لم يزُل بما فعل من الخير انما له الحق أن يقدم الى اللص هدية على معروفه أو نحو ذلك

ومن هذا القبيل ما يحدث كثيراً : من أن القانون يوجب تبليغ الصحة عن المصابين ببعض الامراض حتى تؤخذ الاحتياطات فلا تنتشر العدوى إلى الاصحاء ، وكثيراً ما تدعو الشفقة الى مخالفة هذا القانون مع أن نظراً بسيطاً يكفى للاقناع بوجوب طاعته كما بينا فى المثال السابق وقس علي ذلك

يجب في هذه الامثلة ونحوها أن نخضع لحكم العقل وألا نرخى العنان لعواطفنا تتسيطر علينا

الرأى العام : كثيراً ما يخلط الناس بين الاعتقاد العام والرأى العام والعرف العام ونبدأ قولنا بالتفريق بينها ، فاذا فشت فى أمة عقيدة اعتنقها الناس عن غير بحث فيها ولا درس لها بل « قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون » فذلك اعتقاد عام

واذا اعتادت أمة عملا حتى صار يصدر منها عن غير روية فذلك عرف عام ، أما إذا ظهرت فكرة فى جمعية فقام أفرادها بامتحانها ونقدها ثم اتفقوا بعد فى الحكم عليها فذلك رأى عام ،

فلا يكون رأى عام الا اذا عرضت المسألة بادىء بدء للشك فيها وسلط عليها النقد ثم قامت البراهين على صحتها واشترك فى ذلك أفراد الجمعية، وبديهي أن أفراد كل جمعية لا يستوون فى مقدرتهم على نقد الاشياء وحكمهم عليها ، ولكن كل ما يتطلبه الرأى العام ألا تؤخذ الدعاوى قضية مسلمة بل يزلزلها الشك ثم يصدر الحكم عليها لاسباب معقولة ، وهذا مما يدخل فى مقدور أوساط الناس

فأساس الرأى العام البحث : تعرض فكرة فى ظرف خاص فيقوم فرد أو أفراد ينتقدون الفكرة أو ينكرونها ، فيهب من يراها حقاً للدفاع عنها وتأييدها بما يقيم من البراهين ، ويشتد النزاع بين الأفكار ويؤدي ذلك إلى تحليلها تحليلا دقيقاً ثم يؤول الامر إلى الاتفاق على شيء ، ولا يبقى أحد يضاد الفكرة أو يبقى عدد قليل لا يقاس بالاولين فيكون هذا رأياً عاماً — بهذه الطريقة تنهار العقائد الفاسدة وتقوم المذاهب الصحيحة وتصح أنظار الامة ولا تقف فى الرقى عند حد

والرأى العام لا يرقى في أمة الا بقدر مالها من الحرية فى البحث وبقدر ما لأفرادها من القدرة على تمحيص المسائل وسعة الصدر للرأي المخالف

ويساعد على تكوين الرأى العام الجرائد والخطابة ، فاذا كانت الجرائد حرة فيما تكتب والخطباء أحراراً فيما يقولون ، لا يصد الناس صاد عن الاجتماع والكتابة فى الجرائد أسرع الرأي العام

فى التكون ، أما اذا قيدت الحرية وخاف الكتاب والخطباء أن يفقدوا مناصبهم أو يصادروا فى املاكهم أو يساءوا فى معاملتهم اذا هم عبروا عما فى نفوسهم بصراحة فقلّ أن يوجد رأى عام

سلطانه : للرأى العام في الامم الممدنة سلطان قلما يساويه سلطان ، فله نفوذ على القوانين فى وضعها وعلى الحكومة فى خطتها وعلى الادارة فى سيرها ، ولمجلس النواب الذى يمثل الرأي العام الحق في إسقاط وزارة واقامة أخرى

وللرأى العام سلطان كبير على الافراد ، فالانسان غالباً يهمه رأى الناس فيه : يسره حسن اعتقادهم فيه وثناؤهم عليه ويؤلمه مقتهم له وذمهم إياه ، وهذا هو السبب فى خضوع أكثر الناس لرأي من حولهم والعمل على وفق مشيئتهم ، وإذا هم تشجعوا وخالفوه أحسوا بضيق وتولاهم الخجل، حتى كثيراً ما يفقدون شجاعتهم ويعودون الى موافقة الجماعة

ولكن هل من الصواب أن نطيع الرأي العام دائماً ونخضع لرأى من حولنا ولو اعتقدنا خطأهم ونخاف من نقدهم ومن خجلنا؟ هب أن وسطاً من الاوساط يرى عدم تعليم البنت فهل تنشىء بنتك جاهلة تبعاً لرأى قومك وان كنت لا تراه ؟ أوهب انك ترى رأياً سياسياً يخالف رأى قومك ويدعوك للعمل في طريق مخالف فهل تعمل على وفق رأيهم أو على رأيك ؟

فى ذلك نقول : يجب على المخالف أن يبحث رأيه ورأى الناس

بحثاً دقيقاً من جميع الوجوه فان رأى أن ما عليه الناس أنفع للجماعة ولكنه أضر لنفسه وجب أن يطيع رأي الناس ، لانه ليس المقياس الصحيح للخير والشر مصلحة الفرد ، وأما إن كان رأى الناس ضاراً بالامة فواجب عليه أن يسعى في تغييره ، ومن ضروب ذلك أن يخالفهم جهاراً فيعلم بنته مثلاو يحارب رأى قومه ويقارعهم الحجة وبذلك ينضم اليه قوم ولا يزالون يكثرون حتى يكوّنوا رأياً جديداً يحل محل القديم أولا يكون ذلك فيكون قد أرضى نفسه

وينبغى ألا نخضع لحكم الخجل وألا يحملنا ذلك على متابعة من حولنا ، فان حكم الخجل كثير الخطأ ، وكثيراً ما يخجل الانسان من عمل الحق ، فالصالح وسط فساق قد يخجل من الصلاة أو من عدم شرب الخمر ، وليس من الصواب أن يطيع الخجل ويترك الصلاة أو يشرب الخمر ، كما أن الانسان قد يخجل لا لذنب جناه ولا لجريمة ارتكبها كما يخجل لصممه أو عماه أو قصر نظره أو حبسة في لسانه أو لانه لبس ثوبه مقلوباً — ولست أنكر أن الخجل قد يصحب الجريمة أيضاً كمن يخجل أن رؤي سكران أو أخذت عليه كذبة — ولكن اذا كان يتبع الجريمة وغيرها لم يسغ لنا أن نسير وراءه ونخضع لسلطانه ونخاف من عاقبته دائماً كما يجب ألا نخضع لحكم الخوف من الناس ومن نقدهم فلو خشى كل ذى رأى أن يجهر برأيه المخالف ما تقدم الناس لانه انما

يرقى بأولئك الشجعان الذى يجهرون برأيهم ويتحملون من أجله كل أذى يصيبهم

وبعد فلكل من القانون والرأى العام سلطان كبير على الناس وهما وازعان يحملان الافراد على العمل وفقهما ، فان كانا صالحين صلح أثرهما وإلا فالضرر على الامة منهما عظيم

الحقوق والواجبات

ما للانسان فحق وما عليه فواجب ، وهما متلازمان فكل حق يستلزم واجبا بل واجبين ، واجب على الناس أن يحترموا حقه ولا يتعرضوا له أثناء فعله ، وواجب على ذى الحق نفسه وهو أن يستعمل حقه فى خيره وخير الناس ، — وقد خفى الواجب الثانى على كثيرين لانهم قصروا نظرهم على الواجب القانونى ولم يعدوه إلى الواجب الاخلاقى

والقانون ينفذ الواجب الاول غالباً ويلزم الناس باحترام حق ذى الحق وإلا فالعقوبة من ورائهم ، ولا يتدخل فى الواجب الثانى غالباً بل يترك تنفيذه الى ذى الحق نفسه أو إلى الرأى العام [1] ولنضرب لذلك مثلا من يملك شيئاً ، فواجب على الناس ألا يتعدوا

---

(١) قلنا غالبا لان القانون قد لا يتدخل فى تنفيذ الواجب الاول كملاطفة الزوجة ونحو ذلك من المسائل التى رؤى أن تدخل القانون فيها يضر أكثر مما ينفع ، وقد يتدخل فى الواجب الثانى كما فى بعض الامم ، يعاقب قانونها من يحاول الانتحار

على ملكه بسرقة أو غصب فان فعلوا فللقانون سلطة التدخل ورد العين الى مالكها أو تعويضه عنها — وواجب على المالك أن يستعمل ملكه فيما ينفع الناس ، ولكنه ان لم يفعل فتصرف فيه تصرفاً سيئاً لم يتدخل القانون ولكن تتدخل الاخلاق فان قال القانون « لكل مالك أن يتصرف فى ملكه كما يشاء » قالت الاخلاق « ليس للمالك أن يتصرف إلا ما فيه الخير للكافة »

وانما وجب عليه أن ينظر لمصلحة الناس لان هذه الحقوق التى ملكها انما ملكها إياه المجتمع لما رأى (المجتمع) أن مصلحته فى ذلك ، ولو عاش الفرد وحده ما كان له حق من الحقوق واذا كان المجتمع هو مانحها وقد قيده أن يستعملها فى خير الكافة تقيد بذلك وكان هذا واجباً عليه وسنتكلم الآن على أهم الحقوق اجمالا (١)

«١» حق الحياة

لكل انسان الحق أن يحيا ، ولكن لما كانت معيشة الانسان

«١» تسمى هذه الحقوق عادة بالحقوق الطبيعية Natural Right. ويعنون بها الحقوق التى منحها الناس من طبيعتهم وليس القانون الوضعى هو المانح لها و بعبارة أخرى الحقوق التى للانسان لانه انسان وكانت للانسان قبل أن تكون قوانين أما الحقوق التى منحتها له قوانين البلاد فتسمى حقوقاً قانونية أو شرعية ، فحق الانسان فى الحياة أو فى الحرية حق طبيعى وحقه فى ان يملك بالشفعة حق قانونى

معيشة اجتماعية وكانت الحقوق التى له مستفادة من قبل المجتمع كان عدلا أن يضحى الفرد حياته لحفظ حياة المجتمع اذا اقتضى الحال ذلك ، كما إذا هوجمت الامة من أمة أخرى قصد الاستيلاء عليها ، وهذه أحوال نادرة أما فيما عداها فحق الحياة حق مقدس لا يسمح به لاى شىء آخر

وهذا الحق مع وضوحه قد جهلته بعض الامم في بداوتها ، فالعرب فى جاهليتها كانت تئد البنات خوفاً من العار ، وتئد الاولاد خشية الفقر ، وكثير من الامم كانت تقتل أسرى الحرب متى ظفرت بهم — وفي بعض الامم الآخذة بحظ وافر من المدنية لا يزال حق الحياة معرضاً للخطر كما هو الشأن عند الامم التى تبيح المبارزة ، ولو أن الناس قدروا الحياة حق قدرها وتقدموا فى فهم حقها لما تحاربوا

وحق الحياة لا يمكن أن يوفر لكل أفراد الامة ما لم تتوفر لهم وسائل المعيشة . ومن أجل هذا كان حق الحياة يتضمن حق العمل لتحصيل الوسائل ، وعلماء السياسة والاقتصاد هم المتكفلون بالبحث فى هذا الموضوع أعنى موضوع الوسائل وكيف توفر للجمعيات

وحق الحياة ككل الحقوق يستلزم واجبين : واجب على ذى الحق وهو أن يحفظ حياته ويقضيها في أحسن الوجوه التى تنفع نفسه والناس . وواجب على الناس أن يحترموا هذا الحق

للفرد فلا يتعدوا عليه — واذا كان هذا الحق أقدس الحقوق كان من تعدى عليه بقتل أو نحوه مستوجباً أشد العقوبات ، وربما كان من الحق أن نسلبه أيضاً حقه فى الحياة

«٢» حق الحرية

كلمة الحرية من الكلمات الغامضة التى تستعمل في معان مختلفة ولذلك نبدأ بتحديدها

الحرية المطلقة هى « أن يريد ويعمل ما يريد من غير أن يكون لاى شىء آخر سلطان على إرادته أو عمله » وهى بهذا المعنى لاتكون الا لله ، فليس ثمت من لا تتأثر إرادته بأى مؤثر خارجى وعنده من القوة ما ينفذ به مايريد إلا هو — ، وإذ كنا انما نبحث عن حرية الانسان لم يكن هذا المعنى المطلق بصالح

انما يصلح للناس حرية مقيدة وقد جاء تعريفها فى « اعلان حقوق الانسان » الصادر في فرنسا سنة ١٧٨٩ بأنها « القدرة على عمل كل شىء لا يضر بالغير » وقريب منه ما قاله هربرت سبنسر « كل انسان حر أن يفعل ما يريد بشرط ألا يتعدى على مالغيره من مثل حريته » ومعنى قوله أن الناس كلهم متساوون فى حق الحرية ، ولكل انسان الحق أن يعمل مايريد مالم ينقص ذلك من حرية الآخرين

وعرفها بعض الاخلاقيين بأن يكون للانسان الحق في ترقية

نفسه بما يشاء، من غير تدخل في شؤونه ، إلا إذا وجدت ضرورة تدعو إلى ذلك ، أو كان التدخل لترقية من يتدخل فى شؤونه كما فى الحجر على السفيه

وعلى الجملة ان هذا الحق يتطلب أن يعامل كل فرد معاملة انسان لا معاملة متاع ، ومن أجل هذا حرم الرق والاستبداد والتسخير ونحوها مما يعامل فيه الانسان كأنه متاع يستخدم لغاية آخر

ولفهم الحرية فهماً صحيحاً يجب أن نذكر أنواعها ثم نبين كل نوع على حدته ، فأهم ما تستعمل فيه الحرية ما يأتى

(١) الحرية التى هى ضد الاسترقاق فيقال حر ورقيق

(٢) حرية الامم ويعنون بها الاستقلال وعدم الخضوع لحكم الاجنبى

(٣) الحرية المدنية وهى أن يكون الشخص آمناً من التعدي عليه وعلى ملكه ظلماً وهذه الحرية تشمل حرية الرأى وحرية الخطابة وحرية التصرف فى الملك الخ

(٤) الحرية السياسية وهى أن يكون للانسان الحق في أن يأخذ نصيباً فى حكومة بلاده بالتصويت فى الانتخاب ونحو ذلك

(النوع الاول) لايحتاج هذا النوع إلى شرح طويل فالفرق بين الحر والرقيق واضح جلى ، وقد كان الاسترقاق فاشياً فى العصور الماضية ولم يكن ينظر اليه بعين المقت التى ينظر اليه بها اليوم ، حتى ان ارسطو أكبر فلاسفة اليونان كان يرى أن

بعض الناس بفطرته غير قادر على أن يتصرف فى شؤون نفسه فخير له أن يكون رقيقاً فيدبر غيره أمره — وفى العصور الحديثة ساد القول بأن الحرية حق طبيعى لكل انسان ، وبعبارة أخرى حق منحه الله للانسان منذولد

وانما منح الناس جميعاً الحرية لسببين : أولهما ان حب الحرية متأصل فى نفس كل انسان فمن الظلم أن نسلبه هذه الرغبة ، وثانيهما أن الانسان لا يستطيع أن يقرر شؤونه بنفسه إلا إذا كان حراً ، أى انه لا يمكن أن يكون مسئولا إلا اذا كان حراً أعنى انه لا يكون إنسانا إلا اذا كان حراً ، قد ينعم بعض الناس فى ظل العبودية أكثر مما ينعمون فى ظل الحرية فبعض الارقاء كانوا اسعد حالا من بعض العمال اليوم ولكن قل أن يرضى هؤلاء العمال بحريتهم بديلا ، قد تكون الحرية مدرسة شاقة متعبة ولكنها المدرسة الوحيدة التى يتعلم فيها الانسان أن يكون انسانا حقاً

(النوع الثانى) حرية الامم أى استقلالها — وإنا لنرى أن الامة تحب أن تتمتع بحريتها وتحكم نفسها كما يحب الفرد أن يكون سيد نفسه ، وتحس بالضعة والمذلة اذا حكمها غيرها

ولو نظرنا إلى العالم نظرة عامة وجدنا أن بعض الشعوب يقوّم هذا النوع من الحرية قيمة كبيرة والبعض الاخر لا يرى لها قيمة ويفضل ان يكون جزءا من مملكة كبيرة على ان يكون

مستقلاً استقلالاً تاماً كالذى نراه عند أكثر الاستراليين فانهم يفضلون أن يكونوا جزءاً من المملكة البريطانية ولا يعدون أنفسهم أذلاء لكونهم جزءاً منها ، وينظرون الى بريطانيا نظرهم الى الأم الكبيرة ، وهى فى مقابل ذلك تطلق يدهم فى ادارة شؤونهم

وعلى العكس من ذلك الايرلنديون فان أكثرهم يشعر بذل الاستعباد ويشتاق الى الاستقلال ، وينظر الى الانجليز نظرهم الى المستبد الغاصب

ويرجع هذا وذاك إلى مبدأ واحد : وهو انه اذا كان الشعبان متحدين فى الجنس واللغة والتقاليد والشعور والعواطف والمنافع فلا يضرهما أن يكونا جسما واحداً كما هو الشأن فى انجلترا واستراليا أما اذا اختلفا فى كل الاعتبارات الماضية أو بعضها كانت التبعية ضارة والاستقلال خيراً للأمة المحكومة كما هو الشأن فى انجلترا ومصر

فاذا نحن سئلنا ما الفائدة التى تعود على الامة من استقلالها ، قلنا ان فائدتها من ذلك كفائدة من يُفك الحجر عنه ، فانا اذا منحنا المحجور عليه حرية التصرف فقد يخطئ ولكن هذا هو خير طريق ليعتنى بشؤونه وليكون مسئولا ، وانه اذا كان حرّ التصرف زاد طموحه لتكميل نفسه وشعر بأنه انسان حقاً ،

وكذلك الشأن فى الأمم اذا منحت استقلالها شعرت بمسئوليتها وطمحت ببصرها لتكون خيراً مما هى. واعتقدت أن نتيجة مجهودها لها لا لغيرها فضاعف ذلك في جدها

ووجه آخر وهو أن الأمتين — الحاكمة والمحكومة — اذا اختلفتا فى الاعتبارات المتقدمة أو بعضها كان كثيراً ما يحدث أن تتعارض مصالحهما فتكون مصلحة الامة الحاكمة فى شىء قد يضر الأمة المحكومة أو العكس فتنفذ الأمة الحاكمة ما يتفق مع مصلحتها بحكم مالها من القوة ولو أضر بالامة المحكومة (١)

وعلى الجملة فلا تحس الأمة بشخصيتها إلا اذا نالت حريتها ولا تنهض وتجدّ فى نيل كمالها إلا اذا كانت تدير شؤون نفسها بنفسها وهذا النوع من الحرية هو الخطوة الأولى فى كثير من الاحيان لتحقيق الانواع الاخرى كالحرية المدنية والسياسية —

(النوع الثالث) الحرية المدنية ، لا يتمتع الفرد بهذا النوع من الحرية إلا اذا كان فى أمة قد بلغت حظاً من المدنية ، فالأمم المتبدية — حيث لا يأمن الفرد فيها على نفسه من القتل أو السرقة أو مصادرة أملاكه — لا تتمتع بالحرية المدنية — حتى

---

(١) مثال ذلك أن الامة الحاكمة كثيراً ما ترى خيرها فى انفاق أكثر ميزانية الامة المحكومة على الاشياء المادية كاقامة الجسور وحفر الترع ولا تنفق على التعليم إلا النزر اليسير، ذلك لان التعليم كلما انتشر فهمت الامة حقوقها واصبح من الصعب خضوعها لحكم غيرها اما الانفاق على الماديات فيزيد فى ثروة البلاد وهذه الثروة تحت يد الحاكم يصرفها كما يشاء

اذا تقدم الناس في الحضارة أصبح لكل فرد في الأمة الحق أن يدافع عن نفسه أمام القضاء، وأمن أن يسجن أو يحبس أو يعاقب أية عقوبة إلا اذا حكم عليه بمقتضى قانون البلاد ، ولا يصح أن يتعدى عليه فى غير هذه الحالة ، ولا أن يكون ضحية لطمع ملك أو انتقام حاكم أو أمير ، كما كان الشأن قبل رقى الانسان ، وهذا النوع من الحرية يشمل :

ا حرية الرأى : ونعنى بها أن يكون كل انسان حراً فى الحكم على الاشياء بما يعتقد أنه الحق ، فليس « الاجتهاد » والتفكير والحكم على الاشياء بأنها صواب أو خطأ من حق طائفة خاصة ، بل من حق كل فرد أن يقول أو يكتب ما يراه صواباً بعد أن يتثبت منه ويقوم عنده البرهان على صحته — وان خالف العظماء والعلماء ، ذلك لأنه لا يعرف أحد من الناس كل الحق ، ونحن اذا منعنا الناس من أن يقولوا ما يعتقدون حُرمنا ما قد يكون في قولهم من رأى صائب أو فكرة حقة ولهذا يجب أن نسمح لكل فرد أن يكتب أو يقول ما يشاء ثم تتطاحن الآراء صحيحها وفاسدها حتى يتغلب الحق ويتجلى للناس

ب حرية الاجتماع والخطابة : وهى أن يكون الناس أحراراً فى اجتماعهم وفي خطبهم إلا اذا أدى ذلك الى ضرر بالمصلحة العامة فيمنع القدر الضار فحسب

ج حرية الصحافة : ونعنى بها أن تكون الصحافة حرة

فيما تكتب ، لا تتقيد بشيء إلا ما يقيدها به القانون العام ، ولا يكون عليها سلطان إلا سلطان محاكم البلاد ، وإنما منحت هذا الحق لأنها الواسطة بين الحاكم والمحكوم ، تعلّم المحكومين حقوقهم وواجبهم ، وتبصّر الحكومة برغبات الأمة وتبين لها عيوب ما تتبعه من نظام ، فيها خلاصة أفكار جميع الطبقات ، وهي معرض تعرض فيه آراء الأمة بأسرها فيستفيد من عرضها الحاكم والمحكوم معاً

(النوع الرابع) الحرية السياسية ، ونعني بها أن يكون للانسان نصيب في حكم بلاده، فالأمة التى أمرها بيد فرد أو فئة لم تنتخبها الامة لا تكون متمتعة بهذه الحرية وإنما تتمتع بها اذا كان أفرادها ينتخبون عنهم من يمثلهم وهؤلاء المنتخَبون هم الذين لهم حق وضع قوانين البلاد والغائها — وإنما كانت هذه حريةً لان الامة اذا كان ممثلوها هم المشرعين لها والمديرين لشؤونها قيل أنها تعمل حسب ارادتها ، وهذا هو معنى الحرية ، أما ان كان يشرع لها ويأمرها من لم يمثلها لم تكن تعمل حسب ارادتها بل هي مضطرة مجبرة ، والجبر ينافى الحرية

وقد كان حق المشاركة فى حكومة البلاد قاصراً على طائفة معينة كالملاك والاشراف حتى جاء القرن التاسع عشر فجعل حق الانتخاب واسعاً شاملا وناله فى الولايات المتحدة كل من استكمل الاهلية ، ومن ابتداء القرن العشرين — الى وقتنا هذا — نال النساء

حق الانتخاب في بعض الولايات المتحدة وفي انجلترا وبعض الممالك الاخرى

والحرية السياسية هى أضمن وسيلة لتمتع الامة بالحرية المدنية فانه اذا كان أفراد الامة هم الحاكمين لها أمنوا من استبداد فرد أو أفراد يسلبهم حرية صحافة أو خطابة أو نحوهما

وقد ثبت هذا الحق « حق الحرية » للانسان لانه لا يستطيع أن يكمل نفسه ، ويرقى أخلاقه ، ويصل الى غايته الا اذا كان حراً

وقد تأخر الناس فى فهم هذا الحق حتى بعد أن فهموا حق الحياة ، فقد ظل الرق فاشياً بعد أن كف الناس عن قتل أسرى الحرب ووأد البنات ولم يبطل الرق الا فى القرن الماضى ، والآن بعد أن ألغى الرق لم يتمتع العالم بانواع الحرية الاخرى كما ينبغى ، فأمم عديدة لا تزال تجاهد لنيل استقلالها ، فقد بطل استرقاق الافراد ولما يبطل استرقاق الامم ، وكذلك النوعان الآخران من الحرية أعنى الحرية المدنية والسياسية فهما مع اختلاف الامم في درجة التمتع بهما — لم يبلغا الدرجة القصوى المنشودة لهما

والعالم يخطو لنيل هذا الحق خطوات بطيئة جداً ، ولا ينال منه القليل الا يبذل الكثير ، ومن أجل ذلك لا يبذل هذا الثمن لنيل الحرية الا الراقون ومن أجل هذا أيضاً كان بذل الثمن الغالى أدعى إلى الاحتفاظ بما ينال

وهذا الحق أيضاً يستلزم واجبين: واجب على الناس والحكومات

أن يحترموا حق الفرد فى الحرية فلا يتدخلوا فى شؤونه إلا للمصلحة العامة وعند الضرورة ، فالحكومات لا تقوم بواجبها ان كانت تحجر على الصحف والكتب أن تُطبع حتى يجيزها الرقيب — الا فى أحوال استثنائية كحالة الحرب — أو كانت تحجر على الخطباء أن يخطبوا وعلى الناس أن يجتمعوا ، أو كانت تهاجم الافراد وتسجنهم وتعاقبهم من غير تهمة معينة ومن غير صدور حكم من القضاء ، والافراد لا يؤدون واجبهم إذا كانوا لا يسمحون لخطيب أن يخطب إلا إذا كان يرى رأيهم ، ويقول بلسانهم ، ولا يبيحون لكاتب أن يكتب ولا صحيفة أن تنشر الا ما يوافق مذهبهم ، انما يؤدون واجبهم يوم يكون القول حراً والنقد المؤدب حراً ، والحجة وحدها هى وسيلة الاقناع

يجب أن يستشعر المرء أنه حر وأن الناس أيضاً أحرار ، فكما أن له حقاً أن يكون حراً عليه واجب أن يحترم حرية الآخرين ، يجب أن ينضم الى شعور الشخص بأنه حر وانه سيد نفسه شعور بأنه ليس يعيش وحده ، ولكنه عضو في جمعية ، وانه مسئول عن حرية هذه الجمعية ، ومن مميزات الامم الراقية نماء هذين الشعورين فى أفرادها وتعادلهما ، أعنى الشعور بالحرية والشعور بالمسئولية — والواجب الآخر واجب على ذى الحق نفسه وهو أن يستعمل حريته فى خيره وخير الناس ، ومن أساء استعمالها كان خليقاً أن يُسلبها ، قال مِلْتن « من يتعشق

الحرية يجب أن يكون قبلُ طيباً حكيما » فليست الحرية تشرى أو تمنح ولكن تكسب بالعمل لنيلها وحسن الاستعداد لها

---

(٣) حق الملك

يكاد يكون حق الملك جزءاً مكملا لحق الحرية ، فان الانسان لا يستطيع أن يرقى نفسه كما يشاء الا بملك الوسائل

وقد دعا الى هذا الملك أن وسائل الحياة لا تكفى لسد رغبات كل الناس فتزاحموا على طلبها ودعاهم حب الذات الى الاستئثار بها فكان الملك

الملك الخاص والملك العام : وانا بالملاحظة نرى شكلين للملك ، فتارة يكون ملكا خاصاً كملك شخص كتاباً أو منزلا أو ثياباً وتارة يكون عاماً كالسكك الحديدية والمتحف ودار الكتب ودار الآثار

وانما جعلت بعض الاشياء ملكا خاصاً وأخرى ملكا عاماً لانا رأينا أن الملك الخاص أدعى الى عدم التبذير والى العناية ، وهو فى هذين يفضل الملك العام ورأينا الملك العام يحمى من الاحتكار ومن استبداد المالك

فالملك الخاص خير عند ما تكون ملكيته أدعى الى العناية والتدبير ، والملك العام خير عند ما تكون ملكيته أنفى للاحتكار واستبداد فرد أو أفراد قليلين بها ، فالثياب التى يلبسها الانسان

وما يأكله والمسكن الذى يسكنه خير أن تكون ملكا له لأنه بها أكثر عناية ، ولا خوف فيها من احتكار واستبداد ، أما المتحف أو الجزء من الشارع فلو كان في ملك فرد لاستبد بالناس وفرض عليهم من الرسوم ما يضر بهم فكان من الخير أن يكون ملكا عاماً

وهناك أشياء كان من الواضح فيها أن تكون ملكا عاماً لانطباقها على القاعدة المتقدمة فى الملك العام ولكن أعطيت للشركات تديرها كشركة المياه وشركة النور — ومنعاً لاستبدادها بالأمة عقدت الحكومة معها شروطاً تجعل حداً أقصى لثمن الوحدات

وليلاحظ أن الاشياء التى نقول أنها ملك عام هى التى يعبر عنها بأملاك الحكومة ، ذلك لأن الحكومة نائبة عن الأمة فهي تدير هذه الأملاك وتتصرف فيها نيابة عن الأمة

ولا يزال الخلاف قائماً على أشياء يرى البعض أنها يجب أن تكون ملكا عاماً ، ويرى آخرون أن تقسم بين الأفراد فتكون ملكا خاصاً كالأراضى الزراعية ، فأن « الاشتراكيين » يرون أن تكون الأراضى وما في باطنها ملكا للجمهور ، ينتفع بها الناس على السواء ، فكادوا يلغون بذلك الملك الخاص ، وعلى هذا الرأى جرى « أفلاطون » فى كتابه « الجمهورية » فكان يرى أن المثل الأعلى للحكومة حكومة يكون الناس فيها شركاء فى المتاع وليس للأفراد فيها حق الملك ، وخالفه أرسطو ، فقد كان يرى

أن خير مثال للحكومة حكومة يكون فيها الأفراد متمتعين بملك ما هم فى حاجة اليه ، ولكنهم مع هذا يعلمون كيف يستعملون ما يملكون في خير الكافة

وحق الملك يستلزم واجبين ، واجب على الناس ، وهو أن يحترموا ملكه : فلا يتعدوا عليه بسرقة أو غصب أو نحو ذلك ، وواجب على المالك ، وهو أن يستعمله أحسن استعمال

واذا كان من الناس من هم أحوج منا الى ما نملكه وكانوا يستطيعون أن يستعملوه أحسن مما نستعمله وجب علينا أن نتنازل لهم عنه ونبيح لهم استعماله ، فاذا كنا نملك عجلة أو سيارة وكان جارلنا مريضاً واحتيج الى العجلة للاسراع فى احضار الطبيب وجب علينا أن نبيح لهم استعمالها لأن استعمالها فى حفظ الحياة يفضل أى استعمال آخر كالترويض ، ولو أن بيتاً لغنى احتيج اليه في أيام الحرب ليكون مستشفى يعالج فيه الجرحى الذين دافعوا عن أوطانهم لوجب على المالك أن يبيح لهم ذلك ، والقرش فى جيبك اذا كان الفقير لو أخذه حفظ به حياته ، ولو أبقيته دخنت به تفكهة ، وجب عليك أخلاقياً أن تعطيه الفقير ، وقد صدق الشاعر إذ يقول

وحسبك داء أن تبيت ببطنة ... وحولك أكباد تحن الى القِدِّ

وكل إنسان منا عند اصطدام قطارين أو ترامين واجب عليه

أن يقدم ما يستطيع من منديل وعصا ودواء لاسعاف المنكوبين ، لأن هذا خير ما يستعمل فيه المتاع ، وهكذا

---

(٤) حق التربى [١]

لكل انسان الحق أن يتربى ويتعلم حسب كفاءته واستعداده ، فله الحق أن يتعلم القراءة والكتابة وأن يرقى ملكاته فى الفنون والعلوم حسب مايسمح له استعداده ، وأن يتهذب بأنواع التهذيب المختلفة

وإنما كان له هذا الحق لان التربى وسيلة من وسائل الحرية ومن وسائل الحياة الراقية ، فالجهل اذا فشا فى أمة أثر فيها أثراً سيئاً فى جميع مرافقها ، سواء فى ذلك الشؤون الاقتصادية والصحية والاجتماعية والسياسية ، فالمتعلم يستطيع أن يتكسب ويدبر أمور معيشته وينظم حياته أكثر مما يستطيع الجاهل ، والاسرة المتعلمة أقدر على مراعاة الامور الصحية من الاسرة الجاهلة ، واذا كثر الجهل فى أمة كثر فيها الفقر والتشرد والاجرام ، والمتعلمون أصوب حكما اذا انتخبوا من ينوب عنهم وأصدق نظراً وأقوم

«١» آثرنا كلمة التربى على التعلم لان الاولى أوسع معنى . فالتعلم أثر التعليم وهو توصيل العلم إلى ذهن المتعلم اما التربى فهو أثر التربية وهى تنمية قوى الانسان وملكاته ، فالتعلم ضرب من ضروب التربية ، وعمل المنزل والتمثيل المهذب والسينما توغراف المؤدب ضروب من التربية لا التعليم والانسان له الحق فى التربى بأوسع معانيه

رأيا اذا انتُخبوا ، والمرأة المتعلمة أقدر على تربية أبنائها وتنظيم بيتها وإدارة شؤونها وهكذا ، والعلم باب للاخلاق القويمة والدين الصحيح ؛ به يشعر الانسان بنفسه ، وبه يدرك الحياة العالية ، وبه ترقى شخصيته

وواجب على الحكومات إزاء هذا الحق إعداد الوسائل لكل فرد من أفراد الامة لينال درجة من التربية تؤهله لان يكون عضواً صالحاً فى الجمعية يعرف حقوقه وواجباته ، يجب عليها أن تقوم بهذا الواجب ويجب ألا يحول بينها وبين القيام به فقر الاب أو قصر نظره ، وبعبارة أخرى يجب أن يكون تعليم الاطفال كافة اجبارياً وبالمجان ، وأن يكون التعليم يؤهلهم لان يفتحوا لهم طريقاً في الحياة حسب كفاءاتهم وميولهم ، ويبعث فيهم الرغبة فى أن يعيشوا عيشة أخلاقية صالحة ، وعليها إعداد المعلمين الصالحين للقيام بهذه المهمة ، وواجب على الاغنياء والجمعيات مساعدة الحكومات فى نشر التعليم لنيل هذا الغرض

وهذا الحق لم تقومه الامم التقويم الذى يستحقه حتى أعلى الامم حضارة ، وهم يسيرون ببطء فى سبيل تحقيقه ، نعم أن أكثر الامم الممدنة خطت خطوات واسعة فى تسهيل التعليم الاولىّ وتعميمه ، فجميع الممالك الاوروبية — إلا روسيا — جعلت التعليم الاولىّ اجبارياً وكذلك فعلت اليابان منذ سنة ١٨٩٠ وهو

كذلك اجبارى في معظم انحاء الولايات المتحدة (١) ولكن لاتزال هذه الامم مقصرة في التعليم العالى ، ففيها تجد كثيراً من الراغبين في تتميم علومهم ولكن الطرق قد سدت فى وجوههم ، أما للنفقات التى تفرض عليهم وأما الاشتراط شروط أخرى لم تتوفر فيهم ، والمثل الاعلى للأمة أمة يجد فيها كل فرد وسائل رقيه وتعامه ممهدة موفورة

«١» أما مصر فالتعليم فيها ضيق ومعيب، جاء فى تقرير لجنة التعليم الاولى ان مجموع ما تنفقه الحكومة المصرية على التعليم يعادل ٢ فى المائة من مجموع مصروفاتها على حين ان ماتنفقه رومانيا و بلغاريا مثلا ١٠ فى المائة وما تنفقه انجلترا ١٣ فى المائة ـ وما تنفقه هذه الحكومات معظمه يصرف على التعليم الاولى وحده أما فى مصر فلا يصرف عليه إلا ١٩٠٠٠ جنيه اى أقل من ١ فى الالف من مجموع المصروفات السنوية

وجاء فيه أيضاً (قد دل الاحصاء الذى عمل فى مصر فى سنة ١٩٠٧ على أن ٩٦ فى المائة من الوطنيين فى القطر لايعرفون القراءة والكتابة) (٩٢ فى المائة من الذكور و٧ ر ٩٩ فى المائة من الاناث أما فى الممالك الاخرى فقد احصى من لايستطيعون التوقيع باسمائهم على عقود الزواج فبلغت نسبتهم فى الدانيمرك وبروسيا ١ فى المائة وفى بريطانيا العظمى ٢ فى المائة وفى هولانده ٣ فى الماية ، وفى فرنسا ٤ فى الماية وفى ارلنده ٨ فى المائة وفى ايطاليا ٣٨ فى المائة واحصى الاميون فى الولايات المتحدة فبلغوا ٨ فى المائة من عدد السكان وفيهم الزنوج ؛ وفى بلجيكا ١٣ فى المائة وفى فرنسا (وفيها ولاية الجزائر) ١٤ فى المائة وفى ارلندا وكندا ١٧ فى المائة وفى النمسا ٢٦ فى المائة وفى إيطاليا ٣٧ فى المائة وفى اسبانيا ٥٩ فى المائة »

حقوق المرأة

كل الحقوق التى قدمنا كان ينبغى أن تكون حقوقاً للرجل والمرأة على السواء فأنها حقوق للانسان لانه انسان ، ويشترك في الانسانيـة الرجل والمرأة ، ولكن لما كان الواقع غير ذلك كان لابد من افراد حقوق المرأة بكلمة خاصة

لم تتمتع المرأة إلى اليوم بكل حقوق الرجل وان كانت قد خطت للوصول الى ذلك خطوات واسعة — ففى القرون الوسطى وبعدها إلى أوائل القرن التاسع عشر لم تكن المرأة فى أوروبا تملك شيئاً من الحقوق القانونية ، وكانت تربيتها تنحصر فى تعليمها الطبخ وتربية الاولاد وخياطة الملابس ، فان كانت من طبقة عالية علمت العزف على آلة موسيقية

وفي أيامنا هذه قطعت المرأة شوطاً بعيداً فى نيل كثير من حقوقها ، وكانت المرأة فى الولايات المتحدة أسرع نساء العالم سيراً إلى ذلك ، فقد سمح لها هناك أن تغشى الجامعات فضلا عن المدارس ، ورخص لها أن تتعاطي كثيراً من المهن فصار منهن طبيبات ومحاميات ناجحات فى أعمالهن ، وحقوقها في الزواج تساوى حقوق الرجل فلها الحرية التامة فى اختيار زوجها ، وقد أعطى لها حق الانتخاب فى بعض الولايات ، وعلى الجملة فقد كادت المرأة الامريكية تساوى الرجل فى كل الحقوق

وقريب من هذا نساء أوروبا ، فقد سمح لهن فى أكثر الممالك أن يدخلن الجامعات والمدارس، وقرر مجلس العموم الانجليزى منح النساء حق الانتخاب فى يونيه سنة ١٩١٧ ومنحت ايطاليا هذا الحق للارامل ذوات الاملاك . وتختلف حركة نساء أوروبا فى المطالبة بحقوقهن قوة وضعفاً فهى فى انجلترا مثلاً أنشط منها فى فرنسا

المرأة غداً : يتوقع كثير من المفكرين أن المرأة (١) سوف تقاس أعمالها بنفس المقياس الاخلاقى الذى تقاس به أعمال الرجل ، وبيان ذلك أن المرأة والرجل الآن لاينظر إلى أعمالهما نظراً واحداً ولا يحكم على ما يصدر منهما حكما واحداً ، فى مصر اليوم مثلا اذا سهر الرجل خارج بيته الى منتصف الليل واعتاده لم ينظر الناس اليه كانه اجرم جريمة كبيرة ، ولكن اذا غابت المرأة يوماً إلى ما بعد الغروب عد ذلك جريمة كبرى في كثير من الاوساط واذا أبدى الرجل رغبته فيمن يتزوج كان ذلك عملا مألوفاً ، ولكن اذا أبدت المرأة رأيها فيمن تتزوج كان ذلك مستهجناً . سوف لا يكون ذلك ، وسوف ينظر إلى عمل النوعين على السواء ، وسوف يحتقر أحد النوعين اذا ارتكب جريمة ويعير من أجلها كما يفعل ذلك بالنوع الآخر «٢» ستكون للمرأة سلطة في المنزل تساوى سلطة الرجل وستكون شريكة له فعلا — كما هى شريكة نظريا — فى السعادة المنزلية (٣) ستربى تربية خيراً من تربيتها اليوم فتستطيع أن ترق اولادها وتنشئهم على اساس

علمى لاخرافى (٤) سيكون لها من الحقوق القانونية ما لزوجها ، وستكون حقوقها فى الزواج مثل ما للمراة الامريكية اليوم (٥) سيسمح للمراة بتعاطى بعض المهن عند حاجتها إلى ذلك كما اذا توفى عنها زوجها ولم يكن لها عائل

وسوف تسرع فى نيل حقوقها مادامت كلما أخذت حقاً من الحقوق أقامت البرهان على حسن استعمالها له ، فان هى فرطت فيما تنال كان ذلك عائقاً لها عن السير فى سبيلها

المرأة المصرية : ان الاسلام وان أعطى للمرأة كل الحقوق التى للرجل — الا في مسائل معدودة — فجعل لها الحرية فى التعلم وأعطى لها كل الحقوق القانونية من تصرف في أملاكها كما تشاء ، إلى كثير من أمثال ذلك الا أنها لم تتمتع فعلا بهذه الحقوق فهى فى أموالها كلّ على قريب لها أو وكيل ، يتصرف عنها ويغنم منها وهى لارأى لها ، وفى الزواج يزوجها أبوها ولارأى لها فيمن تتزوج ، ولا حق لها أن تراه ، واستشارة وليها لها استشارة صورية محضة ، وكثير من الرجال لايسمح لهن أن يتمتعن بما تتمتع به الحيوانات من استنشاق الهواء الطلق ، ولا يسمحون لهن أن يخرجن مع أولادهن إلى الحدائق والمتنزهات . ولايسمح المجتمع للزوج والزوجة أن يخرجا معاً ويمشيا جنباً إلى جنب فى حديقة أو على نهر ، فأن فعل ذلك عرض نفسه للانتقاد واللمز وفي مصر لاتدرس بنت واحدة فى مدرسة عالية ، ولا فى

جامعة ، ولا يوجد فى القطر كله الا مدرسة واحدة ثانوية للبنات ونسبة من يتعلم منهن التعلم الاولى نسبة ضعيفة حتى لقد بلغت نسبة الاميات فى أحصاء سنة ١٩٠٧ — ٧ر٩٩ ٪ أي أن في كل مائة امرأة لا تكاد تجد واحدة تعرف أن تقرأ أو تكتب ومن أجل هذا لا يستطيع جمهورهن أن ينشئن أولادهن نشأة صالحة ، وهذا أيضاً علة كبيرة من علل الفساد فى الاسر ، بل إلى اليوم لم يفهم أكثر نسائنا أنهن مهضومات الحقوق حتى يطالبن بها — وجهل المرأة هذا الجهل لم يجعل الرجل يحترمها الاحترام اللائق بها لأنه لا يقرأ فيها معنى المزاملة والصحبة اذ من شروط ذلك تقارب العقلين والمزاجين

ويجب أن تفهم المرأة أن بأزاء الحقوق واجبات فيجب أن تأخذ حقها كاملا ، وتؤدي واجبها كاملا — واجبها فى المجتمع لا يقل عن واجب الرجل ومسئوليتها عظيمة ، فهى مسئولة عن شؤون المنزل ومسئولة عن تربية الطفل ومسئولة عما تنال من الحرية كيف تستعمله ، فان هى قصرت فى أداء واجبها فللمجتمع الحق أن يبطيء فى انالتها حقوقها

وكلما نالت شيئاً من الحق استلزم ذلك شيئاً من الواجب ، فهى ان نالت حق التصرف فى مالها وجب عليها أن تتعلم كيف تدبره وكيف تتصرف فيه ، وان نالت حق اختيار من تتزوج وجب عليها أن تستعمل الحكمة فى ذلك ، وتغلب العقل على العواطف

على انا اذا قارنا بين المرأة اليوم والمرأة أمس ، وجدناها خطت خطوة كبيرة ، ونالت شيئاً من حقوقها ، وأدت شيئاً من واجبها ، واذا استمرت فى سيرها كان من المحتمل القريب أن يكثر ميلها إلى التعلم ، ولا تكتفى بالمعلومات الاولية ، فتضطر الأمة والحكومة أن تنشيء لها المدارس الراقية التى تناسب في نظامها وعلومها مزاج البنات ، وبهذا يرقين ويفهمن أن لهن حقوقا يطالبن بها ، ويستطعن أن يربين أولادهن تربية حسنة : جسمية وعقلية وخلقية

انا نريد من المرأة أن تكون انسانا لها حقوق الانسان وعليها واجباته ، ولسنا نريد أن تساوى الرجل فى كل شيء ، فتحترف وتوظف فانها ان فعلت ذلك أضاعت سعادة البيت ، وأضاعت الاولاد ، انما نريد أن تكون المرأة شريكة الرجل فى الحياة ، تدبر المنزل وتقوم بمصالح الاولاد وتفهم الرجل ويفهمها ، ويشعر منها بمعنى الزمالة ولا يكون ذلك حتى تعلّم تعلما مفيداً . نريد أن تتمتع بما أحل الله من رياضة بدنية يصح بها جسمها ، ورؤية للعالم ومعرفة بشؤونه ينمو بهما عقلها ، نريد أن تعامل معاملة انسان لا معاملة متاع . والا يكون للرجل عليها هذا السلطان القاهر ، فيطلق من غير سبب ويتزوج أخرى من غير حاجة . نريد أن يصغى الاب الى رأى بنته فيمن تتزوج فلا يستبد بها

ولا يرغمها على أن تتزوج من لا تشاؤه وانما يبدى لها النصيحة والارشاد . نريد أن تربى تربية دينية خلقية فتعود العمل الصالح وترجو الله وتخافه ، انا إن فعلنا ذلك صلحت المرأة فصلحت الاسرة فصلحت الامة

الواجب

تستعمل كلمة « الواجب » فيما يقابل « الحق » فما لغيرنا علينا فحق لهم وواجب علينا ، وفى هذا المعنى استعملنا الكلمة فى الفصل السابق — وكثيراً ما نستعملها ولا نلاحظ فيها مقابلتها للحق فنقول « قد أدى الواجب » و « الواجب يقضى بكذا » ولسنا نلاحظ فيها أنها في مقابلة « حق » وان كان التحليل الدقيق قد يؤدى إلى ذلك

وقد عرفه بعض الأخلاقيين بأنه العمل الاخلاقي الذى يبعث على الاتيان به الوجدان

وقد اختلف علماء الأخلاق في الطريقة التى يتبعونها فى تقسيم الواجب فمنهم من قسمه الى (١) واجبات شخصية أعنى واجبات على الشخص لنفسه كالنظافة والعفة (٢) واجبات اجتماعية أعنى واجبات على الشخص لمجتمعه كالعدل والاحسان (٣) وواجبات لله كالطاعة

وهذا التقسيم غير محدود فكل واجب يمكن رجوعه إلى

أى قسم من هذه الاقسام الثلاثة تبعاً لاختلاف النظر ، فالنظافة مثلا واجب شخصى من حيث مايترتب عليها من صحة بدن الشخص وراحته ، واجتماعى إذا لاحظنا أن صحته تؤثر فى حالة المجتمع ، وآلهى إذا نظرنا اليها من جهة أنها تنفيذ لامر آلهى

وقسم آخرون الواجب إلى قسمين (١) واجبات محدودة يمكن أن يكلف بها الاشخاص على السواء من غير تنويع ، ويمكن أن توضع فى قانون الامة مثل لاتقتل ولا تسرق ، ويمكن أن يوضع بجانبها عقوبات لمنتهكها ، وهذه يشترك فى طلبها القانون والاخلاق

(٢) واجبات غير محدودة وهذه لايمكن أن توضع فى قانون الامة ، وإذا وضعت سببت ضرراً أكبر ، ولا يمكن أن يعين المقدار المطلوب فيها كالاحسان ، فانه يختلف المقدار الواجب فيه باختلاف الزمان والمكان والظروف المحيطة بالشخص

والقسم الاول يشمل الواجبات الاساسية التى يتوقف عليها بقاء المجتمع وباهمالها لايصلح حاله ، والقسم الثانى يشمل الواجبات التى عليها رقي المجتمع وسعادته — ومن أجل هذا قيل أن النوع الثانى أرقي من الاول وأعلى منه شأناً لان الاول ينفذه القانون والثانى ينفذه الوجدان كالعدل والاحسان، فالعدل من القسم الاول وعليه يتوقف المجتمع ، والاحسان من النوع الثانى وهو لايكون حتى يكون العدل ، فالعدل الدعامة والاحسان مشيد فوقه

والواجبات على الناس مختلفة متنوعة ، فلكل حالة من حالات الحياة تقتضى واجباً معيناً ، والناس في هذه الدنيا كبحارة السفينة وكجنود الجيش ، لكل عمل وعلى كل واجب ، على اختلاف بينهم فيما يجب عليهم — ذلك لان الناس مختلفون من وجوه عدة (١) بحسب الثروة فنهم غنى وفقير وبين ذلك (٢) وبحسب الرتب فملك وأمير وعامة (٣) وبحسب العمل فنهم من عمله عقلي كالقاضى والمدرس ومنهم من عمله يدوى كالنجار والحداد إلى كثير من أمثال ذلك — وهذا ينتج خلافاً في الواجبات فما يجب على حاكم غير ما يجب على أحد الرعية ، وما يجب على غنى غير ما يجب على فقير ، — وعلى كل انسان أن يؤدى واجبه ، ولا يستصغرن أحد ما يجب عليه فكثيراً ما تتوقف كبار الواجبات على صغارها فمثلا لا يصح أن نعد عمل الكناسين فى الشوارع والازقة واجباً تافهاً حقيراً فان عليه تتوقف حياة كثير من الناس وحسن صحتهم ، وليس هذا بالامر الهين ، وان كسر قطعة صغيرة في سفينة قد يؤدى إلى غرقها كما قد يؤدى الى ذلك فقد سُكّانها (دفتها) ، وضياع مسمار صغير فى ساعة قد يؤدى إلى وقوفها كضياع الزنبلك

أداء الواجب : على كل انسان أن يؤدى واجبه ، ذلك لان الانسان فى هذه الحياة لا يعيش لنفسه فحسب بل يعيش له وللناس وأداء الواجب يؤدي إلى هذه السعادة ، فالتلميذ الذى يؤدى واجبه لأسرته ومدرسته يسعد والديه ، والاغنياء بتأديتهم

ماعليهم من بناء للمستشفيات وتبرع للجامعات ونحوها يزيدون فى راحة الناس ، وعلى العكس من ذلك السارقون والسكيرون ، فأنهم بأهمالهم الواجب عليهم وعدم إطاعتهم قوانين البلاد يزيدون في شقاء الناس وتعاستهم — ولا يبقى العالم ويرقي الا بأداء الواجب ، ولو أن مجتمعاً قصر فى أداء كل واجباته أياما لفنى ، فلو أن المدينين لم يؤدوا ديونهم ، ورفض طلبة المدارس أن يتعلموا ، ولم يؤد أفراد الاسرة واجبهم ورفض كل ذى عمل أن يؤدى عمله لحاق بالمجتمع الفناء العاجل — وبقدر قيام الافراد بواجبهم يقاس رقى الامة

يجب أن نؤدى الواجب لانه واجب ، نؤديه اطاعة لوجداننا لا طمعاً فى ربح نناله ، ولا رغبة فى شهرة نحصلها ، ان الذين يفعلون لك الخير لما يرجون منك من الخير تجار يبيعون اليوم ما يقبضون ثمنه غداً ، انما مثلنا الأعلى أن نصل من الرقى الى حد أن نتلذذ من عمل الخير للناس كما نتلذذ من وصول الخير الينا ، ونردد مع ابى العلاء قوله

فلا هطلت علىّ ولا بأرضى ... سحائبُ ليس تنتظم البلاد

بل مع البارودي قوله

أدعو الى الدار بالسقيا وبى ظمأ ... أحق بالرى لكنى أخو كرم

وكثيراً ما يكلفنا القيام بالواجب مشقات ينبغى أن نتحملها ، ويتطلب منا تضحية يلزمنا تقديمها ، فالقاضى العادل قد يضطر الى الحكم على صديقه أو قريبه فيؤلمه ذلك ، والجندى يعرض حياته

للخطر محافظة على أمته ، ورئيس السفينة إذا عطبت يجب أن يبقى فى السفينة حتى ينتقل جميع من فيها الى قوارب النجاة، وأعلان الانسان رأيه وتمسكه بمبدئه قد يبعده عن منصب ويحرمه من فائدة ، وفى جميع ذلك يجب أن نتحمل التضحية - مهما آلمت — عن رضا وارتياح ، ولكن يجب هنا أن ننبه الى أمرين كثيراً ما يخطىء الناس فيهما

(الاول) أن التضحية ليست مقصودة لذاتها ، ولا يصح أن تكون غرضاً يريد الانسان تحصيله، فهي ليست إلا ألماً محضاً ينبغى الفرار منه إلا إذا استتبع خيراً ، فما يفعله بعض الزهاد من الامتناع عن الأكل ، وحرمان النفس من التمتع بما أحله الله ، ولبس الخشن من الثياب لا لغرض إلا طلب المثوبة بهذا الشقاء — خطأ لا يرضى عنه عقل ولا دين ، وقد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من نذر أن يصوم قائماً فى الشمس ، فامره باتمام صيامه ونهاه عن القيام في الشمس لان الله لم يضع تعذيب النفوس سبباً للتقرب اليه ، وليست المشقة نفسها سبباً فى رضاء الله . وانما رضاؤه فى عمل صالح قد يستلزم المشقة ، وليس بصحيح قول الناس « الثواب على قدر المشقة » إذا أخذ على عمومه انما يكون صحيحاً إذا كان العمل المقصود عملا خيراً لا يمكن أن ينال إلا بمشقة

(الثانى) ليس لأداء أى واجب تقدم أية تضحية ، بل لابد أن يوازن بين الواجب والتضحية ، فليس صواباً أن يضحى الانسان

حياته ليرتاح من ألم أسنانه ، ولكن خيراً أن يقلم أشجاره ليزيد ذلك فى ثمارها ، فمتى كان الخير الذى تناله من العمل يرجح التضحية وجبت التضحية ، كالطبيب يهجر نومه ويتعرض للتعب والبرد لازالة ألم مريض وادخال السرور عليه وعلى أسرته ، وكالعالم يهجر راحته ولذته من أجل اخراج كتاب يهدي الناس أو لاستكشاف يزيد فى خيرهم والجندى يضحي نفسه لتحيا أمته ، والامثلة على ذلك كثيرة — وهذه الموازنة قد تسفر عن ترجيح أى الامرين (الواجب والتضحية) بمجرد النظر أو بقليل من البحث ، وقد يدق الامر على الفكر لتقاربهما فى الخيرية والشرية قرب (٨/٩ من ١٧/١٩) ويصعب الحكم بتفضيل احدهما ، ويجب عندئذ أعمال الفكر وإطالة النظر حتى يتجلى الحق

ومتى اقتنع الانسان بخيرية التضحية وجبت عليه ، ذلك لانه عضو من جسم كما بينا فليس من الحق أن يستأثر انسان باللذائذ ، ويتمتع بالراحة التامة والناس من حوله ألمون متعبون ، كما لا يستأثر عضو بكل الغذاء ، ويترك سائر الاعضاء تتضور جوعاً

وكلما عظم الغرض كانت التضحية أوجب ، كما تفعل الامم الحية تضحى الالوف من أبنائها دفاعاً عن حريتها ، وحفظاً لشخصيتها ، وليست تستكثر ما تبذل لعظم ما تطلب

وسير عظماء الرجال مملوءة بالشواهد على التضحية ، ولا تكاد تجد عظيما لم يضح كثيراً ، اما لنشر مبدأ يخالف فيه الرأى العام

أو لمحاربة عدو يريد اغتصاب أمة ، أو لتخليص عقائد دينية مما دخل عليها من التغيير، أو لتحقيق مسألة علمية كثر فيها البحث والجدال - وهذه التضحية هي التي تكونهم ، وهي سر عظمتهم فان ما يبذلون في حياتهم من الجهد لتذليل الصعاب التي تعترضهم وما يتحملونه من العناء للتغلب عليها ينمي ملكاتهم، ويعودهم الصبر على المشاق لنيل أغراضهم ،أما من يستسلم للنعيم ويخلد للراحة فمحال أن يكون عظيما لانه يشب غير قادر على تحمل مشقة للاتيان بعمل كبير

أهم الواجبات

الواجبات على الانسان لله

في العالم قوة خفية تحركه وتدبر شؤونه ، هي له كارادتنا فينا ، وهي علة وجوده وبقائه ، وهي سر ما نشاهد من نظام دقيق ، وقوانين لا تتخلف وظواهر تتتابع بانتظام، نجوم قد دق نظام سيرها « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » وفصول تتعاقب بدقة تستخرج العجب ونباتات وحيوانات جلت حياتها عن الوصف - هذه القوة هي الله رب العالمين

لهذه القوة نحن مدينون بكل شيء لنا ، بحياتنا وبصحتنا وبحواسنا وبكل ملذات الحياة وصنوف النعيم

فواجب علينا حبه واجلاله وشكره - نحبه لانه مصدر كل خير لنا ، وهو الذي يمدنا من قدرته بكل ما لنا من وجود وقدرة ، ونحبه لانه الموجود الكامل الذي لا حد لكماله ، ونحبه لان من طبيعتنا أن نحبه ، فكل انسان على الفطرة يشعر بحنين الى آله يفزع اليه عند الشدائد ، ويتضرع اليه في كشف السوء عنه ، ويجدُ في الالتجاء اليه سلوة وأسى عند المصائب ، ومشجعاً على العمل وباعثاً على التضحية اذا دعت الحال

ومن آثار حبه التعبد بأشكال العبادات المختلفة ، فانها خير ما تكون اذا دعت اليها حرارة الحب وكانت مظهراً من مظاهر الاخلاص لله والطاعة له وإلا كانت مجرد حركات وصور وأشكال لا روح لها

وان أحسن أنواع الشكر لله الخضوع لقوانين الاخلاق والعمل بما تقتضيه ، ذلك لان الله خلق هذا العالم وجعل سعادته مرتبطة بأشياء من صدق وعدل وأمانة ونحوها ، وشقاءه وفناءه في أضدادها ، ثم أمر بما يوصل الى السعادة وسماه خيراً ، ونهى عما يجلب الشقاء وسماه شراً ، وتلك الامور التي توصل الى السعادة هي بعينها قوانين الاخلاق ، فمخالفها عاص لأمر الله جاحد لنعمه ومطيعها مطيع لامره مؤد لواجبه

اذا امتلأت النفس عقيدة بما قدمنا من أن قوانين الاخلاق هى أوامر الله صدرت الاعمال عنها ممزوجة بقوة تجعلها أقوى أثراً وأكثر نفعاً ، ولذا ترى أن أكثر من اندفعوا لنصرة الحق وتشددوا في التمسك به ، وقدموا أنفسهم فداء للفضيلة ، كانوا ممتلئين عقيدة بالله ووجوب طاعته ، ألهبتهم حماسة رغبة فى رضائه وشوق الى لقائه

واجب الانسانية لامته

« الوطنية »

الوطنية حب الانسان لبلاده ، أرض آبائه وأجداده ، وانما نحب وطننا لما بيننا وبينه من الصلات المتينة ، فقد تربينا فى جوه وبين قومه ، وصرنا منه بمنزلة الفرع من الشجرة ، كوّن هواؤه وتربته أجسامنا ، وصارت قوانينه وعرفه عاداتنا ، وأصبحت طريقة أهله فى مأكلهم وملبسهم وكلامهم طريقتنا ، نحنّ اليه اذا نزحنا عنه ، ويهيج أشجاننا اليه ذكرانا له ، ونأنس بقربه ، ونعتز بعزته ، ونألم لهوانه

على أن حب الوطن يكاد يكون طبيعياً فى كل انسان ، حتى لنرى بعض الحيوانات تحن الى أوطانها ، كما تحن الطيور الى أوكارها ، ولقد ينشأ البدوى فى بلد جدب ومكان قفر وهو مع ذلك يسعد بوطنه ويقنع به ويفضله على كل مصر ، « وترى

الحضرى يولد بأرض وباء وموتان ، وقلة خصب فاذا وقع ببلاد أريف من بلاده ، وجناب أخصب من جنابه ، واستفاد غنى حنّ الى وطنه ومستقره [١] » هذا هو السر فى أنك ترى البلد تفشو فيه أنواع الحميات ، أو يكون مثارا للبراكين من حين الى حين ، أو عرضة لطغيان الماء ، أو عصف الرياح ، ثم لا يبرحه أهله ، ولا يعدلون به بلدا سواه ، « قيل لأعرابى كيف تصنع فى البادية اذا اشتد القيظ ، وانتعل كل شئ ظله ، قال وهل العيش الا ذاك يمشى أحدنا ميلا فيرفض عرقاً ثم ينصب عصاه ويلقى عليها كساءه ويجلس فى فيئه يكتال الريح ، فكأنه فى إيوان كسرى »

ويكون حب الوطن عند أكثر الناس في حالة كمون إلى أن يدهم وطنهم خطر أو توجد دواع تنبههم فتنتبه مشاعرهم ، ويظهر حبهم لوطنهم بأجلى مظاهره ويدعوهم للعمل على خدمته فيبذلون نفوسهم وأموالهم في سبيل نصرته والذود عن مجده وحريته

مظاهر الوطنية : يستطيع الانسان أن يخدم وطنه من طرق عديدة

(١) الدفاع عن البلاد إذا هوجمت أو أريد التعدى على حريتها وهذه هى وطنية الجنود ، وقد ظهر هذا النوع من الوطنية بأجلى مظاهره في الحرب العظمى . فقد بذلت فيها الدماء من كل فريق من المتحاربين بسخاء حفظاً على البلاد من التعدى عليها أو على حريتها

---

(١) الجاحظ

(٢) وقف الحياة على خدمة الوطن ، وهذه وطنية السياسيين والمصلحين فالسياسيون يديرون دفة البلاد نحو ما يرقيها ويعلى شأنها ، ويقودون الرأى العام إلى ما فيه مصلحة الوطن ، فان رأوا رأيا لم يرضه عامة الناس عملوا ما يرونه حقاً ولم يثنهم عن عزمهم تهمة يتهمون بها ، ولا نقد يوجه اليهم ، يفضلون عمل الحق ولو أهينوا على عمل خطأ يرضى الجمهور وان كرموا ، عمادهم اخلاصهم ومرشدهم وجدانهم ، — وأما المصلحون فانهم يرون موضع الداء فى الامة فيعالجونه ، وكثيراً ما يحدث أن الداء يتأصل فيها حتى تألفه وتظنه السلامة ، فاذا دعاها المصلح الى العمل على الخلاص منه قامت فى وجهه وعارضته وحسبته خارجاً عليها كما قال الله تعالى « أو كلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » ولكن المصلح يزيده الاضطهاد تمسكا برأيه ودفاعا عنه ، ولا يزال الناس يلتفون حوله شيئاً فشيئاً حتى يصبح المذهبَ المقرر والرأى السائد ، ويعجب الناس إذا نظروا إلى ماضيهم كيف كانوا يعتنقون هذا المذهب الفاسد وكيف لم يدركوا فساده بمجرد الدعوة اليه

(٣) اداء الواجب — وهذه وطنية الناس كلهم ، فأداء كلٍّ واجبه اليومى فى عمله وفي بيته ومع أولاده وأصحابه ومن يعاملونه ، وانتخابه خير الناس اذا انتخَب ، وتعضيده المشروعات النافعة

بماله وعلمه وجاهه — كل هذه وطنية صادقة صحيحة ترفع شأن الوطن وتعلى مكانته

(٤) تشجيع المصنوعات الوطنية والحاصلات البلدية وتفضيلها على غيرها من المصنوعات والحاصلات الاجنبية ، كما أن وطنية الصانع والمنتج تقضى عليهما أن يبذلا الجهد لجعل المصنوع والمنتج في حالة لا تقل عن أمثالها مما يرد من الخارج ، وعلى الحكومة مساعدة ما تنتجه البلاد نفسها بما تضع من نظام الضرائب ونحوها — وان الامة اذا ساعدت المصنوعات والحاصلات البلدية تكون قد ساعدت على حفظ الثروة فى بلادها ، وجعلتها تنتقل من يدها الى يدها ؟ وكلما زاد اعتمادها على البضائع الاجنبية انتقلت الثروة من يدها الى يد غيرها وفقدت بذلك استقلالها الاقتصادي

وبعد فكل انسان يستطيع بعمله ولو حقيراً أن يخدم وطنه ، وليست خدمة الوطن قاصرة على العظماء ، بل ان العظماء لا يكون لهم أثر كبير ما لم تؤيدهم الامة ، فالقائد الكبير انما فخره نتيجة عمله وعمل الجنود الصغار بل وعمل من صنع للجنود نعالهم وملابسهم ونحو ذلك ، والسياسى العظيم لا يصل الى غرضه الا بمعونة كتّاب يعينونه فى فروع من العمل مختلفة ، وأفراد يبذلون ما يحتاج اليه من المال ، وأمة تلبى بأجمعها نداءه ، وتسير فى الطريق الذى يخطه لها

الامة كالساعة ، كل آلة لها عمل ، ولا بد من أداء كل آلة عملها لينتظم سيرها وان كان يختلف عمل الآلات أهميـة ، وسير هذه الآلات وانتظامها لاتقع عليه العين عادة ، وانما مظهر هذا الانتظام سير العقارب ، فاذا دلت على الاوقات بالضبط دلنا ذلك على أداء كل آلة وظيفتها والا لا ، كذلك الحوادث العظيمة في الامة والنجاح الكبير لها مظهره عظماء الرجال وقواد الجيوش . ولكن ما كان يتم ذلك فى الحقيقة لولا أعمال آلاف من الناس لم يعرفهم التاريخ ، فهؤلاء الآلاف منزلتهم منزلة آلات الساعة الخفية ، والعظماء بمنزلة عقربى الساعة ، هما مظهران لاعمال عديدة دقيقة ، غير أن الشأن في الساعة أنه إذا تعطلت آلة منها وقفت الساعة جميعاً ، أما فى الامة فاذا تعطل أحد أفرادها عن السير حملت الامة عبئه وسارت ، فالجندى في الجيش إذا خر صريعاً سار الجيش وتحمل عبء الجندى ، وكان الاولى للجيش ألا يخر أحد منه صريعاً وان يحمل كل واحد عبئه فقط

فالفلاح فى زرعه الارض وعنايته بالبقر والغنم ، والنجار فى صناعته ، والتاجر ببيعه وشرائه ، والجندى بمحاربته ، والكناس فى الشارع يكنس الاقذار ، والام تربى بنيها وتعنى بالبيت وشؤونه والخادمة بخدمتها ، والاطباء بمحاربتهم الامراض ومعالجتهم المرضى ورجال الحريق باطفائهم النار ، ورجال العلم الذين ينشرون العلم ويحاربون الجهل ، ورجال السياسة الذين ينصرون الحق ويخذلون

الباطل باقوالهم واعمالهم ، والشعراء والموسيقيون وجميع رجال الفن الذين يمدون الحياة بالسعادة ، ويشعرون الناس بالجمال ، كل هؤلاء يخدمون وطنهم بعملهم ، وكل هذه الاعمال لا بد منها لسير الامة الى الامام ، وكل هؤلاء اذا أدوا أعمالهم باتقان ولم يراعوا فيها مصلحتهم الشخصية فحسب بل راعوا فيها خيرهم وخير الناس فهم وطنيون صادقون ، يفخر الوطن بهم ويشرف بعملهم

الفضيلة

الفضيلة هى الخُلق الطيب ، وقد قدمنا ان الخلق هو « عادة الارادة » فاذا اعتادت الارادة شيئاً طيباً سميت هذه الصفة فضيلة ، والانسان الفاضل هو ذو الخلق الطيب الذى اعتاد أن يختار أن يعمل وفق ما تأمر به الاخلاق ، وبذلك يكون الفرق بين الفضيلة والواجب واضحاً ، فالفضيلة صفة نفسية ، والواجب عمل خارجى وعلى هذا يقال فلان عمل الواجب ولا يقال عمل الفضيلة بل حاز الفضيلة

وقد تطلق الفضيلة على العمل نفسه ، فيقال « فضائل الاعمال » وليس يعنى بها كل عمل أخلاقى بل الاعمال العظيمة التى يستحق فاعلها الثناء الجزيل فلا نسمى دفع ثمن ما اشتُرى فضيلة ، انما نسمى الاتيان بالعمل الكبير مع تحمل المشاق في سبيله فضيلة ، ويشهد لهذا المعنى اشتقاق الكلمة نفسها ، فانها مأخوذة من الفضل

وهو الزيادة — وعلى هذا المعنى تكون « الفضيلة » أخص من « الواجب »

اختلاف الفضائل : تختلف قيمة الفضائل في الامم اختلافاً كبيراً ، فلو انا وضعنا لامة قائمة تتضمن الفضائل مرتبة بحسب أهميتها لها لوجدناها تخالف ما يجب أن يوضع لامة أخرى، ذلك لان ترتيب الفضائل في كل أمة يجب أن يتبع مركزها الاجتماعى وظروفها المحيطة بها ، وما يفشو فيها من أمراض أخلاقية وما اعتورها من أشكال حكومات ونحو ذلك ، فترتيب الفضائل فى الامة المحكومة غيره فى الامة الحاكمة ، وفى الامة الآخذة بحظ وافر من المدنية غيره فى الامة البدوية ، وفى الامة البحرية غيره في الامة ساكنة الصحراء وهكذا ، فالامة الحربية ترى الشجاعة أهم فضيلة والامة الآمنة المطمئنة ترى العدل خير فضيلة والامة القائمة على الصناعة ترى الامانة والاستقامة عماد الفضائل وهكذا

ويختلف أيضاً مفهوم الفضيلة الواحدة باختلاف العصور ، فما كان يفهم من الشجاعة عند اليونان غير ما يفهم منه فى العصور الحديثة، قد كادوا لا يفهمون منها إلا الصبر على تحمل الآلام الجسمية واليوم نفهم منها ما هو أعم من ذلك حتى انها تشمل تعبير الانسان عن رأيه من غير خشية لمن حوله ، والعدل تطورَ مفهومه تطورات عديدة حسب تطور الامم فى حالتها العقلية والاجتماعية، وإحسان

الفرد بالتصدق عليه قد كان يعد من أهم الفضائل فى القرون الوسطى حتى وضع موضع النقد فى العصور الحديثة ، واعترض عليه بأنه لا يميز فيه بين المستحق للاحسان وغير المستحق تمييزاً يوثق به ، وبأنه يشل المحسَن اليهم ويقعد بهم عن العمل ، ويميت ما فى نفوسهم من شرف وأباء ، واستحسن المحدثون انشاء جمعيات للاحسان يحسن اليها الافراد ، وهى التى تتولى الانفاق على المعوزين بعد أن تدرس حالتهم وتعرف فقرهم . ولا تكتفى هذه الجمعيات بأعطاء المال إلى المحتاجين بل توجد عملا لمن لا عمل له ، وتنقذ أولاد الفقراء من آبائهم حتى لا ينشئون نشأتهم . ولا يصابون بمرضهم ، فتنشىء لهم المدارس الصناعية وتعلمهم علماً عملياً يكتسبون منه أقواتهم ، وقد اهتم كثير من الامم الممدنة بأنشاء هذه الجمعيات وحرمت احسان الفرد للفرد وحضت على احسان الفرد للجمعيات — وهكذا الشأن فى كثير من الفضائل قد هذ بها رقي العقل وتقدم المدنية

كذلك تختلف قيمة الفضائل باختلاف حالة الافراد وأعمالهم ففضيلة الكرم بالنسبة للفقير ليست من الاهمية بالدرجة التى لها بالنسبة للغنى ، ولا الفضائل التي يلزم أن يتصف بها المسن هى بعينها الفضائل التى يتصف بها الشاب ، ولا فضائل المرأة مرتبة ترتيب فضائل الرجل ، ولا فضائل التاجر هى نفسها فضائل العالم وهكذا —

ومن الصعب على الاخلاقي التعمق في التفصيلات وبيان الاختلافات الدقيقة — بين الاشخاص — التي يترتب عليها اختلاف فى قيمة الفضائل، وكل الذى نستطيع أن نقوله أن الناس جميعاً مطالبون بفضائل من صدق وعدل ونحوهما يجب أن يتصفوا بها، وانهم على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم يستوون فى شيء واحد وهو أن كلا منهم مطالب أن يتصف بما يناسب حالته ويتفق مع مركزه الاجتماعي وعمله الذى يؤديه وان اختلف تطبيق ذلك

أقسام الفضيلة : بعض الفضائل يمكن أن تدخل فى فضائل أشمل منها كالامانة فانها تدخل في مفهوم العدل. وكالقناعة فانها تدخل تحت العفة وبعض الفضائل يكون مولداً من فضيلتين أو أكثر كالصبر فانه ينتج من العفة والشجاعة وكالحذر من العفة والحكمة، فما أصول الفضائل التى هى أساس لغيرها ؟

قد ذهب سقراط الى أنه لا فضيلة الا المعرفة «العلم» أى أن علم الانسان بأن الشيء خير علماً تاماً يحمله حتماً على عمله، ومعرفته بضرر شيء تحمله لا محالة على تركه، وليس انسان يعمل الشر وهو عالم بنتائجه، وعلل ذلك بأن كل انسان بطبيعته يقصد الخير لنفسه ويكره لها الشر، فمحال أن يفعل ما يضرها وهو عالم بضرره، فما يصدر عن انسان من الخطأ انما منشؤه الجهل بالعمل — وعلاج الشرير أن يعلم نتائج الاعمال السيئة التى تصدر عنه، وتعويد انسان الخير وجعله مصدراً للفضيلة يعلّم نتائج الاعمال

الحسنة، وتوسع فى تطبيق نظريته فعنده الانسان الخير هو الذى يعلم ما يجب عليه، والملك الصالح هو الذى يعرف كيف يحكم الناس حكماً عادلا وهكذا

وهو محق من جهة أن أساس الفضيلة المعرفة فلا يكون الانسان فاضلا حتى يعرف الخير ويقصد الى عمله. أما الذى يعمل العمل لا عن علم بخيريته فليس «فاضلا» ولو كانت نتائج عمله حسنة — ومخطىء من جهة أن المعرفة هى كل شيء وأنها تستلزم العمل على وفقها لا محالة، فكثيراً ما نعلم الخير ونتجنبه ونعلم الشر ونأتيه، فمعرفة الخير ليست كافية فى الحمل على فعله، بل لا بد ان ينضم اليها ارادة قوية حتى يعمل على وفق ما علم

وكان أفلاطون يرى أن أصول الفضائل أربعة: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل، وقد شرحنا ذلك عند الكلام على تاريخ العلم

وهو تقسيم لا يسلم من نقد فان الحكمة اذا فسرت بمعناها الواسع الذى يقتضيه اللفظ شملت جميع الفضائل من شجاعة وعفة وعدل وغيرها فكل شيء لا بد أن يتصف بالحكمة ليكون فاضلا

وعند أرسطو الفضيلة هى عادة اختيار ما يعمل بحكمة وترو والانسان الفاضل هو من كان ذا خلق يجعله يختار — باستمرار — أن يعمل الحق، ولما كان الحق دائماً عنده وسطاً بين طرفى الافراط والتفريط كان أرسطو يرى أن الفضيلة هى اختيار الوسط بين

الشرين ، والاعمال الفاضلة هي ما كانت وسطاً بين رذيلتين فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، والكرم وسط بين السرف والبخل وهكذا وتسمى هذه النظرية « نظرية الاوساط » وقد بنى عليها ابن مسكويه في كتابه « تهذيب الاخلاق » وغيره من فلاسفة العرب كلامهم فى الفضيلة وتوسعوا فيما ذهب اليه أرسطو من أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين ، وقد اعترض على هذه النظرية بجملة اعتراضات

(١) ان « الوسط » فى كلام ارسطو يفهم منه « المنتصف » وليس ذلك بصحيح ، فليست الفضيلة دائماً فى نقطة المنتصف أعنى أنها ليست على بعدين متساويين من الشرين ، فالشجاعة مثلا أبعد عن الجبن منها عن التهور ، والكرم أقرب الى نقطة السرف منه الى نقطة البخل وهكذا

(٢) أن هناك كثيراً من الفضائل ، لا يظهر فيها أنها أواسط بين رذائل كالصدق والعدل فليس هناك الا كذب أو صدق وعدل أو ظلم ، وقول ابن مسكويه أن العدل وسط بين الظلم والانظلام لعب بالالفاظ دعاه اليه تصحيح كلام أرسطو ، فليس الانظلام الا أثر الظلم

(٣) ليس لدينا مقياس مضبوط يبين لنا المنتصف بياناً تاماً

واتبع بعض المحدثين طريقة أخرى فى تقسيم الفضائل فقالوا ان الفضائل أما فضائل شخصية ، وأما فضائل اجتماعية ، وأما فضائل

دينية ، فالاولى تشمل (١) ضبط النفس و (٢) تهذيب النفس ، فضبط النفس عن الانهماك فى اللذائذ هو العفة وضبط النفس عن الاسترسال فى الالم وشدة الخوف منه هو الشجاعة : وتهذيب النفس أعني حملها على العمل وفق العقل هو الحكمة — والفضائل الاجتماعية تشمل العدل وهو اداء الحقوق للناس ، والاحسان وهو أداء ما يحتاجون اليه فوق حقوقهم — والفضائل الدينية تشمل ما يلزم الانسان الاتصاف به لخالقه

وقد اعترض على هذا التقسيم أيضاً : بأن (١) الانسان ومجتمعه ليسا منفصلين ، فما يؤثر فى أحدهما يؤثر فى الآخر ، واذا كان كذلك فلا يمكن أن تكون هناك فضائل شخصية محضة ، ولا رذائل لا يتأثر بها المجتمع ، فالعفة والدعارة والشجاعة والجبن تستتبع — لا محالة — نتائج اجتماعية وأيضا أن الفضائل الاجتماعية كالعدل والاحسان منبعثة عن الشخص نفسه

ولكن يمكن أن يقال أن الفضائل الشخصية هى الفضائل التى تنظم حياة الفرد وتجعل ملكاته وقواه في حالة تعادل ورقى ، وأما الفضائل الاجتماعية فهي الفضائل التى تجعل الانسان فى وفاق مع من حوله من الناس وترقي شؤونهم ، نعم أن النوعين من الفضائل يتوقف كل منهما على الآخر — فانه اذا انعدمت الفضائل الشخصية لا يمكن تحصيل الخير للمجتمع ولا سيره في طريق رقيه ولا ايصال الحقوق للناس واذا انعدمت الفضائل الاجتماعية

ساءت أخلاق الفرد ولم يستطع أن يرقى نفسه ترقية تامة ولكن يمكن التمييز بين النوعين بسهولة وكون كل من النوعين يتوقف على الآخر لا يخل بالتقسيم

ومهما يكن من شيء فانا لا نستطيع الآن حصر الفضائل والكلام على كل منها تفصيلا ، لذلك نختار بعض الفضائل الهامة ونشرحها

الصدق

هو أن يخبر الانسان بما يعتقد أنه الحق ، وليس الاخبار قاصراً على القول بل قد يكون بالفعل كالاشارة باليد ، وهز الرأس ، ونحوهما — وقد يكون بالسكوت من غير قول ولا فعل فمن ارتكب جريمة ورأى غيره يؤنّب على ارتكابها ثم سكت كان كاذباً

ومن الكذب المبالغة فى القول مبالغة تجعل السامع يفهم أكثر من الحقيقة ، كما اذا بالغ انسان في وصف شيء بالعظم أو الكبر أو الصغر حتى أفهم السامع أكثر من حقيقته

ومن الكذب أن يحذف المتكلم بعض الحقيقة ويذكر بعضها اذا كان ذكر ما حذف يجعل لما ذكر لوناً خاصاً

وهناك طريقة واحدة للصدق ، وهو « أن يقول الانسان الحق ، كل الحق ، لا شيء غير الحق »

وانما كان الصدق فضيلة لانه أهم الاسس التى تبنى عليها المجتمعات ولولاه ما بقى مجتمع ، ذلك لانه لابد للمجتمع من أن يتفاهم أفراده بعضهم مع بعض ، ومن غير التفاهم لا يمكن أن يتعاونوا ، وقد وضعت اللغات لهذا التفاهم الذى لا يمكن أن يعيشوا بدونه ، ومعنى الافهام أن يوصل الانسان مافى نفسه من الحقائق الى الآخرين ، وهذا هو الصدق

يتجلى لك ذلك في المجتمعات الصغيرة كالاسرة والمدرسة ، فكلاهما لا يبقى الا بالصدق ، فلو كذب الطلبة فى كل ما يتكلمون وكذب عليهم مدرسوهم ما بقيت المدرسة ، وكذلك البيت — واذا كان المجتمع لا يمكن أن يبقى اذا كان كل ما يتكلم فيه كذبا ، كان من الواضح أنه يتضرر بقدر ما فيه من الكذب ، فقد يبقي اذا غلب فيه الصدق على الكذب ، ولكنه يكون فاسداً منحطاً

ويدلك على ضرورة الصدق أن أغلب المعلومات التى وصلت الينا بالسماع أو القراءة مبناها الصدق ، وعليها يعتمد الانسان فى معاملاته وتصرفاته ، فلو كانت كذبا لكانت الاعمال المبنية عليها خطأ وضلالا . ولما وصل الينا من العلم الا شيء قليل وهو ما يمكننا أن نجربه بأنفسنا ، وهو لا يغنى فى الحياة

ومن أجل هذا عد الصدق أساساً من أسس الفضائل ، وجعل عنوانا لرقي الامم وانحطاطها

ومما يشاهد في شأن الكذب أن الكذبة الواحدة قد تستوجب عدة كذبات لتغطيها ، ذلك لان الكاذب يخلق فى الدنيا بكذبه مالم يكن ، يخلق خيالا لايتفق مع الواقع ، وقد يضطره هذا الخيال الذى خلقه أن يكذب كثيراً ليوفق بين الواقع والخيال ولا يزال الانسان يكذب حتى يفقد ثقة الناس به وتصديقهم له حتى فيما هو صادق فيه ، كما روى عن أرسطو انه سئل ماضرر الكذب قال (ألا يثق الناس بقولك حين تصدق) وكل انسان في هذه الدنيا فى حاجة شديدة الى ثقة الناس به ، سواء كان تاجراً أو طبيباً أو مدرساً أو محترفاً حرفة ، فمن فقد ثقة الناس به فقد حرم خيراً عظيما

وكما يكذب الانسان على غيره كصاحبه وأخيه يكذب على نفسه ،وكثيراً ما يكون ذلك ، كمن يحاول أن يقنع نفسه بأنه بذل مافى وسعه لاداء ما يجب عليه وهو فى الحقيقة لم يفعل ذلك ، وكما يحصل كثيراً من محاولة المرء أن يخلق لنفسه الاعذار عن كسله أو بخله أو قسوته أو جبنه غشاً لنفسه وخداعاً وصرفاً لها عن الحق — وقد يغلو المرء في هذا الامر حتى يصير عادة له وحتى لايستطيع أن يفرق بين الحق والباطل والصدق والكذب . ويكون مثله مثل من يطيل الاقامة فى الظلام فاذا خرج إلى النور فجأة لم يستطع تمييز ما فيه ، وهناك أنواع من الكذب قد وضعت لها أسماء خاصة :

كالنفاق ، وهو أن يظهر الانسان غير ما يبطن ، اشتقته العرب من النافقاء ، وهو احدى جِحَرَة اليربوع ، يكتمها ويظهر غيرها ليلجأ اليها عند الحاجة ، ومن هذا سمى الرجل الذى يظهر الايمان ويبطن الكفر منافقاً ، فهو كذب عملىّ ، ومن هذا النوع أيضاً من يظهر الصداقة ويبطن العداء ، وكلُّ من يظهر بمظهر ينافي حقيقته منافق مذموم

وكالملَق أو التملق . وهو أن تمدح آخر بما لاتعتقده فيه لتدخل على قلبه السرور رجاء أن تنال منه منفعة أو نحو ذلك

وضد النفاق والملق الصراحة . وهى أن نفتح قلوبنا لمن نخاطبهم وأن نصدق فى التعبير عما تكنه ضمائرنا — والكلمة مأخوذة من قولهم « لبن صريح » اذا ذهبت رغوته وكان خالصاً ، فالصريح من الناس من يخلص من الغش ، ويظهر لمن يحدثه حقيقة ما في نفسه — وقد يخطئ قوم فى فهم الصراحة فيظنون أنها تقتضى أن يقول الانسان كل حق لكل انسان . وهذا ليس بصحيح فهناك مجال للقول ومجال للسكوت . وليس من الصراحة أن تجرح احساس الناس وتؤلم مشاعرهم من غير حاجة تدعو إلى ذلك . أو أن يحدث الطبيب الناس بامراض من يعالجهم من الأسر ويسميهم اذا كان ذكر ذلك يسيئهم ، كما انه ليس من الصراحة

أن تفخر بأعمالك أو تفشى ما تعرفه من أسرار نفسك أو بيتك أو جيرانك أو أصدقائك ولو كان ما تحدث به حقاً ، وانما الصراحة أن تقول — إذا قلت — الا الحق ، ولكن لاتقوله الا لمن له الحق أن يعرفه

ومن ضروب الكذب الممقوت « خلف الوعد » فمن وعد آخر وعداً وفى نيته عند وعده ألا يفى فقد كذب ، وكذلك من كان فى نيته الوفاء ثم أخلف لا لعذر أو لعذر يستطيع التغلب عليه ، فى خلف الوعد اضرار بالموعود كاضاعة وقته أو ايجاد أمل كاذب عنده أو نحو ذلك — والوعد دَيْن فكما يجب وفاء الديون يجب وفاء الوعود ، ويجب الاقتصاد فيها حتى لايعد الانسان وعداً الا وفى عزمه أن يعمل ، وفى استطاعته أن يفى

ولا يحق لانسان بحال من الاحوال أن يفتح على نفسه باب الكذب ، بل ينبغى أن يلتزم الصدق فى جميع أقواله وأعماله — ولسنا ننكر أن التزام الانسان الصدق فى كل ما يقول ويفعل يستلزم مشقة كبيرة ، ويحتاج إلى عناء ورياضة نفس وصبر وشجاعة . ذلك لانه يعرض للانسان فى حياته اليومية مسائل دقيقة يرى فيها قصار النظر أن الكذب أنفع وانه لامفر منه ، ونحن نورد لك أمثلة من أقواها ونبين حجتهم في الكذب ثم نبين وجه الخطأ فيها

(١) ناشئ ابتدأ يتعلم فن الشعر ، عرض عليك قصيدة له

لم تستحسنها ، فهل تصدق وتقول انها قصيدة سقيمة المعانى ظاهر فيها التكلف ، سخيفة النسج ، وحينئذ تكون قد آلمته وجبهته وقد يكون قولك سبباً فى تركه الشعر مع انه لو شجع لكان بعدُ شاعراً مجيداً ، أو خير أن تكذب وتقول انها قصيدة جميلة ، فتدخل على قلبه السرور ، وتشجعه على السير فى طريقه حتى يبلغ غايته ؟

والجواب أن هنالك مندوحة عن الكذب فان المسئول اذا كان لايجيد الشعر ، ولا يستطيع الحكم عليه يمكنه أن يقول بحق « لست من الشعر بالمنزلة التى تخول لى الحكم » ، فان كان يجيده أو يستطيع أن يميز بين جيده ورديئه فليستحسن من الأبيات ما هو حسن فى نظره ، ولينتقد بلطف وأدب مواضع النقد عنده ، ويرشده إلى طريقة التخلص من عيوبه ، فهذا صدق لايؤلم ، وفيه من الفائدة ما ليس فى المدح الصرف الكاذب ، انما يؤلم النفس احتقار الشىء جملة ، أو أن يقال الصدق بخشونة وفظاظة ، أما النقد النظيف المؤدب فأشهى إلى نفس طالب الحقيقة من القول الكاذب المزوّق

(٢) الكذب فى الحروب ، فقد ترى أمة محاربة لأخرى أن تكذب عليها للايقاع بها كأن تقول انها ستهاجمها من جهة لاتريدها ، أو تشرع بالفعل فى الهجوم من ناحية وفى عزمها الهجوم من ناحية أخرى تريد بذلك التعمية عليها ؛ فهل يصح أن نلزمها

الصدق فنضيع عليها النصر مع أن الحرب خدعة ؟

والجواب أن الكذب في الحروب ليس كذبا في الحقيقة لأن الأمة بأعلانها الحرب على أمة أخرى قد أعلنتها بان لا تفاهم بينهما ، وحيث لا تفاهم لا كذب ، لان معنى اعلانها الحرب انها ستفعل معها ما تستطيع من الايقاع بها ولو بالخديعة ، فمثلها مثل من قال لآخر « سأقص عليك خبراً كاذباً » ثم قصه عليه فليس هذا بكذب لانه لم يخبره بغير ما يعتقد ، فان اعتقد السامع صدق الخبر فاللوم عليه

(٣) وأدق من هذا وأصعب ما يحدث كثيراً ، يكون لامرأة ولد مرض بالسل مثلا وهي التي تُمرّضه وتعنى بشؤونه وكان قد مرض لها ولد من قبل بذلك المرض ومات منه ، استدعت الطبيب ففحصه وعرف مرضه فسألته هل هو مصاب بالسل ؟ سألته وهي مرتبكة مرتجفة تخشى أن يكون الجواب نعم . أفليس من الحكمة أن يقول الطبيب أنها نزلة شعبية حتى تسترد قوتها وتعنى بالولد وهو في أشد الحاجة الى عنايتها ، أو يقول الحق فتفقد قواها وترتبك فى تمريض الولد فيثقل المرض عليه وقد يؤدى ذلك إلى موته ؟

أن الناظر اذا قصر نظره على هذه الحادثة فى وقتها رأى أن الكذب قد يكون واجباً ولكنه اذا وسع نظره رأى أن الولد قد يبرأ من مرضه وتعلم الأم أن مرضه كان السل لا النزلة الشعبية

وأن الطبيب قد كذب عليها رحمة بها فاذا مرض الولد ثانية وسألت الطبيب فلا تثق بقوله مهما أكد لها أن المرض ليس سلا ، ولو كان فى الحقيقة كذلك ، ولو علم الناس أن الاطباء جميعاً يتبعون هذه الطريقة لفقدوا الثقة بهم ، فهذا الكذب قد أضاع معانى اللغة ، وأزال الثقة بين الناس . وينبغي للانسان عند الحكم على شيء أن يوسع نظره ليرى ما يترتب عليه من الاضرار فى المستقبل القريب والبعيد ، ومع هذا فانا نوجب على الطبيب أن يتخير الالفاظ التى يستعملها لاداء الخبر . وأن يفتح على المريض وأهله باب الامل بالقدر الذى يعتقد ولكن لا يحيد عن الصدق

على انه اذا كان الصدق قد يودى بحياة بعض الأفراد . والكذب ينجيهم — وان كنا لم نعثر في حياتنا اليومية على شيء من هذا — فلم لا نضحى هذه الأنفس القليلة فى سبيل الحق ، وفى سبيل المحافظة على معانى اللغة وثقة الناس بعضهم ببعض ، وهى كلها ركن عظيم من أركان العمران ؟ اذا كان من الصواب أن نضحى آلاف النفوس للمحافظة على مملكة ، أفلا يكون من الحق أن نضحي نفوساً معدودة ونتحمل اضراراً محدودة للمحافظة على الحق ؟

فلندع هذا النوع من الجدل ، ولنلزم أنفسنا بقول الحق كل الحق فى كل حال

الشجاعة

الشجاعة مواجهة الألم أو الخطر عند الحاجة بثبات ، وليست مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض الناس ، فالذى يرى النتائج ويخاف من وقوعها ثم يواجهها بثبات رجل شجاع ، ومادام الانسان يعمل في موقفه خير ما يُعمل فهو شجاع ، فالقائد الذى يقف فى خط النار فيرتعش ويخاف أن ينزل به الموت ثم يضبط نفسه ويؤدى عمله كما ينبغى قائد شجاع ، بل هو شجاع أيضاً اذا رأى أن خير عمل يعمله أن يتجنب الخطر ، وأن الواجب يقضى عليه أن ينسحب بجنوده حيث لا خطر ، فان هو أضاع فى موقفه رشده ، أو ترك موقفاً يجب أن يقفه ، أو فرّ بجنوده من خطر كان عليه أن يواجهه فهو جبان

فليست الشجاعة تعتمد على الاقدام أو الاحجام ، ولا على الخوف وعدمه انما تعتمد على ضبط النفس وعمل ما ينبغى ، فان ضبط الشخص نفسه وعمل ما يجب أن يعمل فى مثل موقفه رغم خطر أمامه ورغم ما يشعر به من خوف فهو شجاع والا فلا

وليس بالمحمود أن يتجرد الانسان من كل خوف فقد يكون الخوف فضيلة وعدمه رذيلة ، فالخوف عند امضاء عقد سياسى مثلا أو انهاء أمر خطير فضيلة ، إذ هو يحمله على الروية حتى يختمر رأيه ، وفضيلة أن يخاف الانسان من ثلم عرضه وشرفه ، فليس

بشجاع من يدخل الحانة ويشرب جهاراً أو يقامر على ملأ من الناس غير هياب ولا وجل فذلك ضعف فى الشعور لا شجاعة

انما الجبن المذموم والخوف المرذول أن يبالغ الانسان فى الخوف أو يهول فى الشيء المخوف ، فمثلا كل انسان عرضة لكلب كلب يعضه أو سلك ترام يصعقه ، أوسيارة أوقطار يدهمه أو نار تشب فى بيته أو مكروب ينال منه ، كل هذه أشياء تخيف ولكن الجبان يبالغ فى الخوف منها ويخشى جد الخشية من وقوعها ثم يحمله خوفه على اجتناب العمل ، فلا يركب مركباً مثلا خوف أن يغرق به ، ولا يرحل عن وطنه اذا لم يجد عملا خوف أن يدركه الموت ولكن الشجاع لا يفكر كثيراً في احتمال الشر ثم اذا وقع لم يطر قلبه شعاعاً ، بل يصبر له ويتحمله بثبات ان مرض لا يضاعف مرضه بوهمه ، وإذا نزل به مكروه قابله بجأش رابط تخفف من شدته ، وبالجملة فالشجاع ليس بالمتهور الطائش الذى لا يخاف مما ينبغى أن يخاف منه ، ولا بالجبان الذى يخاف مما لا يخاف منه

وليست الشجاعة قاصرة على حمل السلاح ومشاهدة الحروب بل ان كثيراً من الاعمال اليومية يحتاج الى شجاعة لاتقل عن شجاعة الجنود ، فرجال المطافىء والاطباء وعمال المناجم وصيادو الاسماك في البحار عنداشتداد الرياح وتلاطم الامواج والممرضات اللاتى يتعرضن للاخطار بتمريض المصابين بالامراض المعدية

وربانو السفن البخارية ، كل هؤلاء وأمثالهم شجعان يتحملون الاخطار كما يتحمل الجنود ، ويقابلون الشدائد بصبر وثبات

ومن أكبر مظاهر الشجاعة حضور الذهن عند الشدائد فشجاع من اذا عراه خطب لم يذهب برشده بل يقابله برزانة وثبات ويتصرف فيه بذهن حاضر وعقل غير مشتت ، قد يرى انسان ناراً تلتهم بيته أو لصاً يغشي منزله أو قطاراً يكاد يهشم رجلا أو سفينة أشرفت على الغرق فان فقد رشده وضاع صوابه وحار طرفه ودله عقله ولم يدر ماذا يفعل كان جباناً ، وان هو ملك نفسه وثبّت قلبه وتصرف فى الامر على أحسن وجه كان شجاعاً حقاً كالذى حكى عن عبد الملك بن مروان : أتاه فى يوم واحد خبر مقتل ابن زياد وهزيمة جيشه ودخول ابن الزبير فلسطين وثوران ثورة فى دمشق ومسير ملك الروم الى الشام فما تزعزع ولا طاش وقد رؤى فى هذا اليوم ثابت الجنان غير مقطب الوجه ، ثم شغل ملك الروم بمال يؤديه اليه ، ووجه جيشاً الى فلسطين فاستردها وسار إلى دمشق فأسكن فتنتها

الشجاعة الادبية : لما تقدم الناس فى المدنية لم يكونوا في حاجة كبرى الى الشجاعة البدنية كما كانوا يحتاجون اليها أيام بداوتهم ، فظهر للشجاعة معنى جديد يسمونه الشجاعة الادبية يعنون بها أن يبدى الانسان رأيه وما يعتقد أنه الحق مهما ظن الناس به أو تقولوا عليه ، ومهما جر ذلك عليه من غضب عظيم

أو أمير ، لايخاف من تحمل ألم يصيبه فى سبيل قول حق يقوله أو مبدأ هام ينشره ، فلو رأى فى مسألة غير ما يراه علماء وقته أو من حوله من الناس أو خالف حاكماً أو عظيماً جاهر برأيه غاضاً عما يناله من الاذى ، يقول الحق بأدب وان تألم منه الناس ، ويعترف بالخطأ وان نالته عقوبة ، ويرفض العمل بما يراه صواباً ولو لم يقع رفضه موقعاً حسناً

والتاريخ مملوء بكثير من الناس ضحوا أموالهم وأنفسهم فى سبيل قول الحق ونصرته ، وصبروا على الآلام عشقاً للحق وهياماً به ، واستعذبوا طعم الرزايا تنزل بهم ، لانهم يحبون الحق أكثر مما يحبون أنفسهم ، ومنهم الانبياء والمرسلون والشهداء ونوابغ العلماء ، فقد أوذوا فى الحق فتحملوا الاذى وباعوا أنفسهم وأموالهم مرضاة له ، كالذى حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء اليه عمه أبو طالب ينصحه بالعدول عن دعوة الناس فقال له : « ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته »

ومن هؤلاء سقراط الفيلسوف اليونانى قد علم شبان أثينا ماوصل اليه علمه وبذل جهده في تثقيف عقولهم فلما بلغ سن السبعين اتهم بأنه يجحد آلهة اليونان ويضلل الشبان فحكم عليه بالاعدام « ٣٩٩ ق م » وكان في استطاعته أن ينجو بنفسه اذا هو

تعهد أن ينقطع عن التعليم ولكنه أصر على قول الحق وأضاع نفسه

وفى تاريخ العرب كثير من أمثال ذلك فابن رشد الفيلسوف الشهير المتوفى سنة ٥٩٥ هـ اضطهد من أجل اشتغاله بالفلسفة وسجن ونفى فلم يعبأ بذلك كله

وابن تَيْمِيَة أحد الفقهاء المشهورين المتوفى سنة ٧٢٨ هـ أداه اجتهاده الى مخالفة فقهاء عصره فى بعض المسائل فوشوا به إلى السلطان فسجنه فظل يكتب الرسائل فى سجنه يؤيد بها مذهبه ويدحض بها حجج معارضيه

وفى العصور الحديثة لولا أن قوماً من العلماء ضحوا كثيراً فى قول الحق ما تقدم العلم والمدنية الى الحد الذى نراه فجاليليو الفلكى الايطالى (١٥٦٤ — ١٦٤٢ م) اخترع التلسكوب فرأى به أن المجرة ليست الا نجوماً عديدة، وان فى القمر جبالا ووديانا كالتى فى الارض ورأى به كَلَف الشمس، وكان يُعلّم أن الارض تدور حول الشمس مخالفاً لتعاليم بطليموس القائلة بان الارض هى مركز الكون، فاضطهده من أجل ذلك بعض القسيسين وأمروه بالكف عن تعاليمه فلم يستطع الصبر عن الحق فاخذ وسجن وعذب كثيراً من أجل تعاليم يعرفها كل تلاميذ المدارس اليوم

وداروِن الفيلسوف الانجليزى (١٨٠٩ — ١٨٨٢) لم يعذب كما عذب من قبله بسجن أو نفى أو قتل ولكنه عذب بالانتقاد المر من رجال عصره فتحمله، وأبان الطريقة التى اتبعها النبات

والحيوان في نشوئه وارتقائه ولم يقعد به ضعف صحته عن البحث وراء الحقيقة فكان رغماً عن مرضه وألمه يجرى التجارب ويجتهد أن يتعلم دائماً أشياء جديدة عن الدنيا التى يعيش فيها

وكامبَانِلاَّ الفيلسوف الايطالى (١٥٦٨ — ١٦٣٩) قد أغضب بعض القسيسين والامراء بتعاليمه الجديدة، فقد كان يقول أننا نستطيع أن نتعلم من امتحان الاشياء التى حولنا كالاشجار والازهار والجبال والانهار أكثر مما نتعلمه من كتب الفلاسفة القدماء أمثال ارسطو، وكان يقول أن هناك نظاماً من الحكومة خيراً من النظام الحاضر الذى يستبد فيه الامراء والحكام بالشعب وقد سجن من أجل أقواله هذه وعذب عذاباً شديداً واستمر فى الحبس خمساً وعشرين سنة ثم أفرج عنه

فواجب أن نقف بازاء الحق نصرح به وندافع عنه ونتعشقه ونتحمل الآلام في سبيله ونتخذ من ذكرنا مثلا صالحاً فى حياتنا

ومن هذا النوع من الشجعان من يهجر لذته وراحته ويتحمل الألم لخير الناس وإسعادهم، كمن يرى مرضاً اجتماعياً فى أمته فيخصص حياته لدراسته ومعرفة أسبابه ثم يتحمل المتاعب في سبيل إصلاحه، كأن يرى الاطفال الذين لم يتجاوزوا العاشرة يعملون فى المعامل ساعات طويلة فى أماكن غير صحية بأجر قليل لا يرحمهم ولا يشفق عليهم أصحاب المعامل ورؤوس الاموال فيشبون ضعفاء جهلاء يقسون على من دونهم كما قُسِى عليهم، أو يرى

أولاد الشوارع ينشئون ولا علم ولا عمل فيكونون بعد مجرمين يعبثون بالامن ويعثون فى الارض فسادا ،أو يرى فقراء يألمون في الحياة آلاماً جسيمة ، يقضون أطول زمن في العمل وينالون أقل أجر ، تشتد مزاحمتهم على العمل ويخضعون لنظم شاقة ، يسكنون مساكن غير صحية وهم مع ذلك يستأجرونها بأجرة باهظة إذا قيست بمساكن الاوساط والاغنياء ، أثمان طعامهم ووقودهم وحاجاتهم أغلى مما يدفعه الاغنياء ، لانهم مضطرون إلى شراء كميات قليلة في أوقات يقل فيها الصنف ، تكثر بينهم الامراض والوفيات ، ويشتد بهم الضيق بمجرد قعودهم عن العمل لانهم لم يستطيعوا أن يوفروا شيئاً من أجورهم وقت عملهم ، بيوتهم وحاراتهم تشمئز منها النفس قذارة ، اضطرهم الفقر الى الازدحام فى الحجرة الواحدة مع ما يفشو فيهم من الامراض ، تنشأ بينهم أبناؤهم وبناتهم فيجدون حولهم جواً خانقاً ، سكر وعربدة وتسول ومسكنة وكذب جر اليها الفقر وسوء الحال فيخضعون لذلك مضطرين ويسيرون سير آبائهم وهم في ذلك مجبرون لا مخيرون

فمن رأى شيئاً من ذلك أو نحوه من الامراض فخصص حياته لمعالجته ، وضحى بكثير من مصلحته لمصلحة أمته ، وصبر على ما يناله من الشدائد ، وتغلب على ما يصادفه من العقبات كان أشجع من جندى في خط النار

علاج الجبن : الشجاعة والجبن ونحوهما من الفضائل والرذائل

تعتمد على الوراثة والتربية معاً ، فنحن نرث من آبائنا شجاعتهم أو جبنهم ، ولكن يجب ألا ننسى أن للتربية أثراً كبيراً فهي إذا كانت صالحة زادت الشجاع شجاعة وقللت من جبن الجبان واذا عولج الجبان علاجاً ناجعاً فقد يبرأ من مرضه ، وليس للجبن علاج واحد بل ينبغي أن ينظر الى سببه ثم يتخذ له العلاج اللائق به ، شأن جميع الادواء ، فقد يكون سببه الجهل بالشيء فالعلاج إذاً العلم به كالذى يرى شبحاً فى الظلام فينزعج منه وترتعد فرائصه فاذا علم أنه حجر أو متاع أنس به وزال خوفه ، ومن هذا النوع أكثر ما يخيف فى الظلام من عفاريت ونحوها

ويتصل بهذا عدم الالف فكثيراً ما يكون سبب الجبن فالانسان اذا لم ير الشيء ويألفه يجبن أمامه كالطالب لم يتعود الخطابة فان هو حاولها تهدج صوته وجف ريقه وارتعشت أطرافه ومن لم يتعود غشيان المجالس ومخالطة الناس يخاف منهم ويلجئه الجبن الى حب العزلة ، فان هو اضطر يوماً الى الاجتماع بهم علاه الخجل واضطربت حركاته وزاد ارتباكه ، وثقل على الناس وثقلوا عليه ، وعلاج هذا الالف والتعود ، فلا يزال الرجل يتكلف الخطابة حتى يصير خطيباً والجرأة حتى يصير جريئاً

ومما يفيد فى هذا الباب أن يفرض وقوع النتائج التى تكون ان وقع المكروه ثم يهونها على نفسه ، فلو تصور أنه خطب فلم يجد وانتقده السامعون ثم صغر هذه النتيجة وهونها تشجع ولم

يجبن ، ولو قرر الاطباء أن تعمل له عملية جراحية فقدر الموت واستصغره قابل العملية بثبات وهكذا

ومن العلاج أن ينظر الى نتائج كل من الجبن والشجاعة فاذا ظهر له أن ما يصل اليه من الخير اذا هو تشجع أكبر مما يصل اليه من الجبن استحثه ذلك على الشجاعة ، فمن جبن عن أن يرحل عن بلده لطلب رزق أو علم فلينظر ير أن من المحتمل أن يصيبه مرض فى رحلته أو يموت فى غربته ولكن من المؤكد أنه ان لم يرحل ضاق رزقه أو قل علمه وكان جباناً حتماً ، فان ذلك النظر قد يحمله على أن يكون شجاعاً ، لا سيما ان علم أن ليست الحياة أن ينبض قلبه ويأكل فى اليوم ثلاثاً انما الحياة أن يعمل وينفع ويستفيد ويفيد

تذكر وقت جبنك سير الابطال وأكثر من مطالعة تاريخ حياتهم تستشعر الشجاعة وتمتلىء حماسة ، وتحس بقوة تدفعك الى العمل على مثالهم ، والسير فى طريقهم

ويجب أن يتجنب الولدان مع الطفل ما يخيفه فلا يذكران أمامه أحاديث الجن والعفاريت والمخلوقات الفظيعة ، فان ذلك يتأصل فى نفوسهم ويضعف من قلوبهم فيشبون وهم يخافون من ظلهم ومن وحدتهم ولا ينمحى ذلك تماماً مهما أوتوا بعد ذلك من عقل وعلم

ضبط النفس

أو العفة

ضبط النفس — أو العفة بأوسع معانيها — هو اعتدال الميل الى اللذائذ وخضوعه لحكم العقل ، وليس ذلك قاصراً على اللذائذ الجسمية بل يشمل أيضاً اللذات النفسية كالانفعالات والعواطف ، فلا يسمى الشخص « ضابطا لنفسه » الا اذا اعتدل فى لذاته الجسمية من مأكل ونحوه ، واعتدل أيضاً فى انفعالاته فلم يغضب لأى داع ، ولم يندفع فى السير وراء عواطفه كأن يحن حنيناً شديداً الى وطنه اذا نزح عنه أو يفرط فى حزن لفقد عزيز عليه ، وكثير من الرذائل يرجع سببه الى عدم القدرة على ضبط النفس كالشراهة والدعارة والطمع والاسراف والغضب والسخط والثرثرة والادمان

تتضمن هذه الفضيلة أن يكون الانسان سيد نفسه لا عبداً لشهوات تسيره كما تشاء

والناس ازاء الملذات أصناف فمنهم من ذهب الى الزهد وقمع الشهوات وقالوا « ان شهوات النفس غير متناهية فاذا اعطاها المراد من شهوات وقتها تعدتها الى شهوات قد استحدثتها ، فيصير الانسان أسير شهوات لا تنقضى وعبد هوى لا ينتهى . ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ، ولم يوجد فيه فضل [1] » — هؤلاء ،

(١) ادب الدنيا والدين

يرون أن أرقي أنواع الحياة الاخلاقية محاربة الشهوات فلا يتزوجون — مثلا — ولا يأكلون اللحوم، ويعتزلون الناس جهدهم ولا يمكنون النفس من مأكل أنيق أو مقعد وثير أو ملبس جميل، وقد شنع «سنيكا» على من يشرب الماء مثلجا في أيام الحر وقال «قد انتزع الترف من القلوب ما كان بها من موارد الشفقة وأسباب العطف حتى صارت أشد بردا وقسوة من الثلج والجليد» — وبالغ بعض الزهاد فلم يكتف بقمع الشهوات بل تعداها الى تعذيب النفس بالقيام في الشمس فى أشد ساعات الحر والتمرغ على الرخام فى الشتاء وهكذا، وهذا مذهب أكثر المعتنقين له من الناقمين على الحياة، المتشائمين من كل شيء في الوجود، المصابين بفقر الدم، الذين ضعفت شهواتهم لضعف جسمهم — وقد يرى هذا الرأي أيضاً من قويت صحته وكمل جسمه واشتدت شهواته ولكن كانت ارادته أشد وسلطانه على نفسه أقوى — وأقوى ما يكون ذلك اذا أتى من ناحية الدين

والزاهد فى الحقيقة ليس يرفض اللذة لانها لذة بل هو يرفضها للذة أخري أكبر منها فى نظره

والزاهدون أنواع — فمنهم من يرفض أن ينعم في الحياة بالمأكل الشهي ونحوه لانه يري أن الاستمرار فى طلب اللذائذ يسبب آلاما فتصبح النفس شرهة، أطماعها كثيرة وآمالها واسعة، وكلما نالت منها الكثير طمعت فيما هو أكثر منه، ثم هى تتألم

الآلام الشديدة لما حرمت، وتتجرع مع ما تنال غصصا من الآلام، أضف إلى ذلك أن كثرة التمتع باللذة يفقدها قيمتها، فمن يأكل كل يوم أكلا شهيا يصبح بعد مدة وهذا النوع من الاكل عنده عادي حتى تكون مقدار لذته منه تعادل لذة من قنع بالقليل، يرى هؤلاء أن شعور الانسان بانه قادر على حرمان نفسه يرفعه فوق حوادث الزمان ويجعله يرى أن لا قدرة للحوادث ولا للدهر على اخضاعه وهذا الشعور يحرر الانسان من ربقة الخوف — وهو شعور فيه من اللذة ما ليس فى الملذات الجسمية — فهم فى الحقيقة يفرون من لذة للذة أخرى أكبر منها، هى لذة الراحة والطمأنينة وعلو النفس

هؤلاء نظرهم شخصى أكثر منه اجتماعيا فهم يبغون لذة أنفسهم، غاية الامر انهم وجدوها في الراحة وعدم الانغماس فى الشهوات

ومن الزاهدين نوع آخر أرقي من هؤلاء، زهدوا فى اللذائذ لان ذلك وسيلة الى اسعاد الناس وراحتهم، كما فعل عمر بن الخطاب لم يشأ أن يمتع نفسه بالملذات لانه رأى انه ان فعل ذلك توسع الولاة ومن بيدهم أمر الامة في البذخ والنعيم حتى يرهقوا الرعية، فزهد ليسعد الناس، ومن هذا الصنف كثير من المصلحين والعلماء الباحثين يهجرون راحتهم ليستكشفوا ما يوفر الراحة على الناس

وهؤلاء — أيضاً — فى الحقيقة لم يضحوا لذتهم بل هم من صنف راق يجدون — فى شعورهم بانهم مصدر لاسعاد الناس — لذة قلما تعادلها لذة

ومن الزهاد صنف يتزهد تدينا ، يتقربون الى الله بالامتناع عن التمتع بملذات الحياة — ولهؤلاء نقول، ان الله تعالى شرع الشرائع لاسعاد الناس وقد رضى عمن اتبعها لانه عمل لاسعادهم فمن هجر لذته هو في عمل صالح يرضى الله وبعبارة أخري يسعد الناس كان عمله مقبولا وكان من الصنف الثانى ولكن من ظن أن الله يرضى عن الزهد لانه زهد فقد أخطأ لانه تعالى لم يجعل تعذيب النفوس سبيلا لرضاه ، وماذا ينال الله والناس ممن انقطع للعبادة وزهد في الحياة ؟ مدح رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بانه يقوم الليل ويصوم النهار ولا ينقطع عن العبادة فقال رسول الله فمن يقوم بشأنه ؟ قالوا كلنا قال « كلكم خير منه » — وحقا ليس يصح لاحد أن يستحل أن يأكل من عمل الناس ولا يعمل هو فى الحياة للناس شيئاً . انما يرضى الله عمن هجر لذته ليسعد قومه، وليس من العقل تحمل الالم لانه ألم كما قال جون ستورت ميل « ان من النبل والشرف أن يكون الانسان قادراً على التخلى عن نصيبه من السعادة ولكن هذه التضحية لابد أن تكون لغاية، لانها ليست غاية لنفسها ، ولا يمكن أن يتحمل البطل أو الزاهد هذه التضحية الا اذا اعتقد انها توفر على من عداه تضحية مثلها،

ان كل الشرف الذى يناله من يحرمون أنفسهم لذات الحياة انما يكون اذا كان هـذا الحرمان سببا لتمتع الآخرين ؛ أما من يحرم نفسه لأى سبب آخر فلا يستحق شيئا من الاحترام — نعم يمكن أن يكون عمله دليلا على مبلغ قدرته وقوة ارادته ولكنه لا يكون مثالا لما ينبغى أن يعمل » (١)

* * *

ومن الناس من يرى — على العكس من هؤلاء الزهاد — أن يطلق لنفسه العنان ويمكنها من كل ملذات الحياة — يرون أن الانسان في هذه الحياة انما خلق ليتنعم ، ولم يمنح العقل الا ليبحث له عن وسائل النعيم ، فهو لذلك يعب اللذائذ عبا وينهمك فيها ما استطاع — وهذا ضار بالفرد وبالمجموع معاً ، فلو أبحنا لكل فرد أن يتلذذ كما يشاء، ما انتظم شأن مجتمع ، ولتعارضت شهوات الافراد وكانت الفوضى المطلقة ، وان جمعية أفرادها ليسوا أعفاء أعنى انه لا تحكمهم الا شهواتهم الحسية لتحمل معها بذور الانحلال والانحطاط

وفضيلة العفة تتطلب من الانسان القصد فى اللذائذ فان هو أفرط فانهمك فى شهواته أو فرط فاماتها وبالغ في الزهد فقد حاد عن سواء السبيل، خير طريق فى الحياة أن ينيل الانسان نفسه ملذاتها الطيبة ويعطيها مشتهياتها مالم تخرج عن حدود الاخلاق

(١) جون ستووت ميل فى رسالته مذهب المنفعة باختصار

فذلك ادعى الى نشاطها ،وأقرب إلى طبيعتها ، انما يجب الا نتجاوز الحدود المشروعة ، ففي داخلها من الملذات ما هو أضمن لسعادة الفرد والمجموع « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »

وكثيراً ما يكون من المصلحة أن يمنع الانسان نفسه مما لا بأس به حذراً مما به بأس كالذي حكى عن بعضهم انه أشعل لفافة فاحس منها بلذة شديدة . فكان ذلك حاملا له على ألا يدخن ، وسبب ذلك — على ما يظهر — انه تخوف من نمو الرغبة في التدخين وخشى شدة تسيطر العادة عليه فيما بعد ، وكان احساسه اللذة علامة هذا الخطر فتركه

ونردد هنا مبدأ الاستاذ چيمس القائل بانه يجب أن نحافظ على قوة المقاومة ونتبرع بعمل صغير كل يوم لا لسبب الا مخالفة النفس والهوى ، فان ذلك يعيننا على مقاومة المصائب اذا حان حينها

فليس يقتضى ضبط النفس القضاء على الرغبات والشهوات وانما يقتضى تهذيبها واعتدالها وجعلها خاضعة لحكم العقل ، ففي القضاء على الشهوات قضاء على الشخص وعلى النوع وفي اعتدالها سعادتهما جميعاً

أهم أنواع ضبط النفس —

(١) ضبط النفس عن الغضب ، فمذموم أن يكون الانسان سريع الغضب ، يخرج عن عقله للكلمة الصغيرة والسبب الحقير

وليس الغضب بالخطأ دائما ، فهناك حالات يمدح فيها ، فلو رأيت شاباً يعذب صغيراً لم يجن جناية أو ضعيفاً لا يستحق عذاباً أو حيواناً لا حول له ولا حيلة فحق أن تغضب ، كذلك طبيعي أن يغضب الانسان اذا عومل معاملة لا تتفق مع شرفه أو نحو ذلك، فلا بد له من الغضب ليدرأ عن نفسه أو غيره الظلم

ولكن هذه الحالات قليلة اذا قيست بغيرها من حالات الغضب ، فأكثر حالاته رذيلة مذمومة ولذلك عد رذيلة وعد ضبط النفس عنه فضيلة

وأكثر ما يدفع الانسان إلى الغضب أثرته وحبه الشديد لنفسه وكثرة التفكير في حقوقه ، فيتخيل في ما لا يغضب احتقاراً له ونيلا منه ، وكثيراً ما يستسلم لغضبه فلا يعي ما يقول ولا يعقل ما يفعل ويظن انه بذلك يظهر بمظهر المحترم لنفسه المحافظ على كرامتها وهو انما يظهر بمظهر الطائش الاحمق

والانسان في غضبه حاكم غير منصف، يبالغ في الشيء، ويسوئه فهو كواضع على عينيه منظاراً يكبر ويشوه ،وهو لا يرى وقت غضبه الا الاغلاط ولذلك تراه يحكم حتى على أعز الناس عليه أحكاماً قاسية والواجب أن نتريث ونسائل أنفسنا ، هل نحن محقون في غضبنا؟ أوليس لما عمل أو قيل محمل حسن؟ هل الشيء يغضب حقيقة بالقدر الذي أرى ؟ أو ليس ان أغضبني حسنات كثيرة بجانب هذه الاساءة ؟

واجب ألا نستسلم للغضب، وان نسلم زمام انفعالاتنا لعقلنا

(٢) ضبط النفس عن الاسترسال فى الانقباض والسخط لان ذلك يكدر صفو الحياة — وفى الناس كثير من هؤلاء المتشائمين الساخطين Pessimists الذين يرون أن لاأسوأ من هذا العالم وان لذائذه لا تكاد تذكر بجانب آلامه وحامل لواء هذا المذهب في العصور الحديثة « شوبنهور » الفيلسوف الالمانى (١٧٨٨ — ١٨٦٠) — كان يرى أن حياة الانسان سلسلة آلام ونزاع وكفاح وان هذا العالم أسوأ ما يكون، فيه من الآلام والشرور أكثر مما فيه من اللذائذ — وان النجاة منه تكون (١) بالحياة حياة عقلية صافية (٢) وبالتغلب على حب الحياة لا بالانتحار ولكن بالزهد وبقمع الشهوات البدنية

وأغلب ما يكون هذا النظر عند من ضعفت صحتهم أو ساءت أعصابهم أو توالت عليهم المصائب من موت أو فقر أو نحوهما فتظلم الدنيا فى أعينهم ولا يرون فيها الا مايؤلم، أحب الشعر اليهم أمثال شعر أبي العلاء، وخير نغمات الموسيقى عندهم ما يبعث على البكاء

ويظهر أن هؤلاء قد قصرت مشاعرهم عن إدراك ما فى العالم من ملذات فمثلهم كمثل عمي الالوان الذين يدركون بعضها دون بعض — وان الدنيا مملوءة بالمسرات والمؤلمات جميعاً « ولولا سوء النظم الاجتماعية الحالية وفساد التربية الموجودة لكانت السعادة

حظ أكثر الناس ان لم أقل كلهم »

وان الناس يخطئون فى اعتقادهم أن ما يحيط بالانسان من الامور الخارجية هى التى تجعله ساخطاً أو راضياً بائساً أو منعماً — نعم ان الانسان قد يكون أقدر على السعادة فى بعض الظروف دون بعض ولكن الظروف نفسها لا تجعله سعيداً، فكثيراً ما تتوافر وسائل السعادة عند قوم وهم مع ذلك أشقياء بأنفسهم لانهم يخلقون من كل شيء ما يستوجب السخط، ويلونون كل ما يرون باللون الاسود

أن السعادة أو المسرة تعتمد على أنفسنا أكثر مما تعتمد على الظروف الخارجية، ويجب أن يتعلم الانسان فن المعيشة وكيف يكون راضياً ولو لم يكن كل شيء حوله وفق ما يتمنى

(٣) ضبط النفس عن الاسترسال فى الشهوات الجسيمة ولا سيما الخمر والنساء، فهما شر ما يقع فيه الانسان ويفسد عليه حياته ويضعف روحانيته ويقلل من حريته ويسوقه الى أسوأ حياة، وطريق الاحتياط لذلك عدم التعرض للمغريات فلا يجالس المستهترين الذين لا يتحرجون من قول الهجر والحض عليه ولا يقرأ الروايات المثيرة ولا يغشى أماكن اللهو غير المؤدب ويجب أن يصحب من قويت شخصيتهم ونظف لسانهم وطهرت روحهم — وأوجب ما يكون ذلك في السن بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين ففيها تنمو الشهوات وتبعث على الشرور فلو لم يحصن الشاب بوسط صالح ورفقة مؤدبة،

ويعن بما يوضع في يده من كتب وما يشاهد من تمثيل وما يغشى من مجتمعات كان عرضة لاحط أنواع الشرور، فى هذه السن يكون المرء عرضة للتحول وأكثر من ساءت حالهم وفسدت أخلاقهم كان فسادهم فى هذا الدور ، وقل أن يسقط أحد بعد أن ينجو منه

(٤) ضبط الفكر فلا يتركه يهيم فى كل واد ، ويتجول في كل مجال فالفكر اذا حام حول الشرور يوشك أن يقع فيها كما بينا ذلك عند الكلام على العادة

وعلى الجملة فضابط نفسه كراكب الفرس الذلول يقصد حيث أراد فيوجهها كما يشاء — ومن لم يضبط نفسه كراكب الصعبة ، لا يسيرها كما لا يهوي ، ولا يصل الى غرضه بالسير كما تهوى ، فى ضبط النفس حفظ الصحة وطمأنينة العقل والسعادة والحرية وسلطان كسلطان القائد على جنده أو الربان الماهر على سفينته

الاقتصاد

من أهم وسائل السعادة فى الحياة بعد النظر ، وتوجيه الاعمال حسب مايقتضيه النظر البعيد، فالزارع انما ينجح بنظره الى مستقبل زراعته وما ستحتاج اليه وتشكيل أعماله وفق ذلك ، والطالب انما ينجح في دراسته إذا هو نظر إلى مستقبله واستعد لاداء ما سيمتحن فيه وعدل حياته على وفق الغرض الذى يرمى اليه وهكذا كذلك الشأن فى حياة الانسان المالية لابد أن ينظمها الفكر

والنظر البعيد . والا اضطربت معيشته وساء حاله

ليس يطلب المال لذاته ، انما يطلب لانه وسيلة للحصول على ما يرغب وكما قال « ميل » « ليس فى النقود ذاتها ما يرغب فيه أكبر مما فى كمية من الخرز اللماع . وانما قيمتها تنحصر فيما يمكن أن يشترى بها أي في الرغبة فى الاشياء التى هى واسطة لتحصيلها » ولكن قد ينسى الانسان ذلك « ويرغب في النقود لذاتها وتصير الرغبة في كسبها أشد من الرغبة فى انفاقها » وكذلك الشأن فى السلطان والشهرة فان « سبب حبهما ما لهما من القوة الهائلة فى مساعدتنا على نيل رغباتنا . وان الارتباط الشديد بينهما وبين تلك الرغبات هو الذى جعل لهما تلك المكانة التى تفوق عند بعض الناس كل الرغبات الاخرى [1] »

ليس المال فى ذاته شيئاً حسناً إنما هو حسن أو قبيح حسب استعماله ، فهو حسن فى يد من يحسن استعماله ، وقبيح فى يد من يسيئه . ويجب أن نتعلم فن استعمال المال وطرق كسبه وتوفيره. ولذلك علاقة كبيرة بالاخلاق . فكثير من الفضائل والرذائل عمادها المال . فالكرم والامانة والاحسان والاقتصاد — والطمع والبخل والارتشاء والاسراف كلها تتصل بحالة الانسان المالية

«١» مقتبس من كلام جون ستورت ميل فى كتابه مذهب المنفعة utilitarianism

بل هناك فضائل ورذائل تنتج عن المال من طريق غير مباشر ، فكثيراً مايضطر المدين الى الكذب ،وتحمله ديونه على تلفيق الاعتذار لدائنه لماطله . وكثيراً ما يكون الفقر سبباً للاجرام وعدواً للحرية وكذلك العكس ، وادخار شيء من المال يبعث في النفس قوة يجعلها أبعد من المذلة والهوان ، وأكثر مطالبة بالحقوق وأصلب أخلاقاً فمن الحق عد تدبير المال وحسن التصرف فيه أساساً من أسس الاخلاق الفاضلة . وقد الفت الكتب العديدة في تدبير المال وتنمية الثروة ونحو ذلك من الشؤون المالية ولكن لانتعرض هنا الا لما يمس الاخلاق

كل انسان عرضة لاخطار ومتاعب تصادفه في الحياة من مرض أو شبوب نار أو اعتزال منصب ، فلا بد من اقتصاد جزء من المال ندخره لوقت الحاجة . ونحفظ به أنفسنا من الدَّين ومن المذلة —

كذلك قد يكون للانسان أغراض في الحياة أعلى من حياته الحاضرة ولا يستطيع الوصول اليها الا بمال يوفره ، وهذه قواعد أولية لابد من مراعاتها في استعمال المال

(١) يجب أن نقدم — عند اقتناء الاشياء — الضروري منها على الكمالي فليس من الصواب أن نعمل وليمة ونحن وأهلنا محتاجون الى مأكل وملبس كما لا نزين الحجرة قبل فرش أثاثها

(٢) لا يصح أن نشتري شيئاً يضرنا أكثر مما ينفعنا فالتدخين

والمسكرات تضر صحتنا ضرراً نشعر به في مستقبل حياتنا ويكون لذلك من الالم أكثر مما نجده من اللذة الحاضرة

(٣) لا يصح اقتناء شيء قد ينفعنا ولكن يضر غيرنا ضرراً كبيراً فاذا قل صنف في بلد كالبترول أو القمح فلا يصح لنا أن نشتري منه أكثر من حاجتنا الضرورية — ولو كانت ماليتنا تسمح بذلك — لان ترفنا بالزائد عن حاجتنا يمنع قوماً من نيل الضروري لهم ، وإذا اعتصب عمال الترام مثلا واعتقدنا أنهم مصيبون في اعتصابهم لا يحق لنا أن نركب الترام اذا سيرت الشركة بعض القطارات لان ذلك يضر بمصلحة العمال المنصفين في اعتصابهم

(٤) يجب أن نحسب دخلنا وخرجنا بالدقة . وألا يسمح الانسان لنفسه أن ينفق أكثر مما يكسب لانه بذلك يعيش من دخل غيره . ولا يلبث طويلا — اذا عاش على هذا النمط — أن يركبه الدين . ويقع في هوة يصعب خلاصة منها — بل لا يصح أن يكون الخرج مساوياً للدخل الا عند الضرورة وفيما عدا ذلك يجب توفير شيء من الدخل لما بينا من قبل

يتطلب الاقتصاد المحمود أن يكون الانسان وسطاً بين الاسراف والتقتير ، فالاغنياء الذين لا ينفقون شيئاً من مالهم في المنافع العامة كالمستشفيات والمدارس . ويحبون المال حباً جماً ويتلذذون من جمعه ويألمون من انفاقه بخلاء لا مقتصدون . هؤلاء

قد تجاوزوا الاقتصاد إلى الشح . واتخذوا جمع المال مقصداً وليس هو إلا وسيلة لاسعاد الفرد والامة

كذلك ضرر الامة من اسراف أبنائها ضرر بليغ . اعتبر ذلك بما يصيبها من المسكرات، فان الاموال التى تستهلك فيها كثيرة ولو أنفقت فى مشروعات نافعة لانتجت نتائج عظيمة . ويزيد فى ضررها أن الاموال المنفقة فيها يخرج أكثرها من جيوب فقراء الامة الذين هم في حاجة إلى ضروريات العيش . أضف إلى ذلك ما يستوجبه الافراط فى شربها من الامراض والوفيات وفى ذلك خسارة على الامة عظيمة

مضار الدّين والقمار : لعل أضر الاشياء بمالية الانسان الدين والقمار

أما الدين فانه يعرض الشرف للخطر . وعواقبه وخيمة من ذلك

(١) تأثيره السىء فى الصحة بسبب ما يصحبه من اضطراب الفكر وقلق البال

(٢) اضراره بأفراد الاسرة الابرياء

(٣) قد يؤدى دين الشخص الى فساد أعمال آخرين كما اذا أفلس المدين فان ذلك يؤثر فى تجارة دائنيه

(٤) كثيراً ما يحمل الدين صاحبه على الخيانة والكذب اذا ضاقت به الحال وألح عليه الدائنون

وسبب الدين قد يكون عوارض تصادف الانسان فى حياته

كمرض أو فقد منصب أو نحو ذلك . وهذا أشرف الاسباب لان هذه العوارض خارجة عن طوقه . وان كان صاحبه محلا للوم اذا كان في استطاعته أن يدخر شيئاً في وقت سعته ولم يفعل

وكثيراً ما يكون السبب داخلا فى مقدورنا . وفى استطاعتنا أن نتجنبه . فكثير ممن يستدينون انما حملهم على دينهم عدم العناية، لايعرفون دخلهم ولا خرجهم ، ولا يقارنون ما يكسبون وما ينفقون . ولا يعرفون ان كان ما يشترون مما تتحمله ماليتهم أولا حتى إذا جاء وقت الحساب تبين أنهم وقعوا فى الدين وصعب عليهم الخلاص منه ، ومن هذا النحو الرفاهية والترف ، فهى سبب لاستدانة كثيرين ، يودون أن ينعموا بما لايستطيعون ، ويطمعون أن يروا كل شىء في حياتهم لذيذاً ساراً ، ويتطلبون السرور من أى طريق ، ولا يضبطون شهواتهم فاذا هم مدينون

يجب أن نتعود ألا نسرف فى النعيم ونحبب الى أنفسنا بساطة العيش

كذلك يدعو الى الدين الخيلاء، وحب الظهور بمظهر أكبر من الحقيقة وهو ضرب من الكذب العملى يجب أن نبتعد عنه

ومن أهم أسباب الدين القمار وليس أدل على ضرره مما نشاهده حولنا من خراب بيوت كانت عامرة ووقوع أسر غنية فى الفقر بسببه، أضف الى ذلك أنه يفسد على اللاعبين حياتهم العملية فلا يصلحون لاداء أعمالهم أداء حسنا ، فمن أمل أن يغتنى فى لعبة

يصعب عليه أن يصبر على عمله الهادىء حتى يربح أجره القليل ، يجب أن نفهم أن ربح المقامر لاينشأ الا من خسارة آخرين ومن أجل هذا لم ترض عنه الشرائع وليست كذلك المعاملات المالية الحلال فأجر العامل انما يأخذه لانه أفاد المؤجر فى نظير أجرته والبائع يتبادل مع المشترى الاخذ والعطاء ولكن فى المقامرة لا يربح أحد الا بخسارة آخر وبقدر الربح تكون الخسارة ، واللاعبون يتبارون فى أغراق بعضهم بعضاً ، ولا يخفى ما فى ذلك من الضرر الاخلاقى

المحافظة على الزمن

الزمن كالمال ، كلاهما يجب الاقتصاد فيه وتدبيره وان كان المال يمكن جمعه وادخاره لوقت الحاجة بخلاف الزمن

قيمة الزمن كقيمة المال ، كلاهما قيمته فى جودة انفاقه وحسن استعماله ، فالبخيل الذى لاينفق من ماله الا ما يسد رمقه فقير كما اذا كانت أمواله مزيفة ، كذلك من لم ينفق زمنه فيما يزيد فى سعادته وسعادة الناس فعمره مزيف

انا نعيش فى زمن محدود . ليل ونهار يتعاقبان بانتظام ، ليس يطغى أحدها على الآخر ، وحياة مقسمة تقسيما محدوداً ، صبا فشباب فكهولة فشيخوخة ، ولكل قسم عمل خاص لا يليق أن يعمل فى غيره ، كالزرع إذا فات أوانه لم يصح أن يزرع فى غيره ،

وحياة محدودة فاذا جاء الاجل فلا مفر من الموت

وما فات من الزمن لا يعود ، فالصبا اذا فات فات أبداً ، والشباب اذا مر مر أبداً ، والزمن المفقود لا يعود أبداً

واذا كان محدوداً وكان لا يمكن أن يمد فيه أو يقصر وكانت قيمته فى حسن انفاقه وجب أن نحافظ عليه ونستعمله أحسن استعمال

وليس لاقتصاد الزمن والمحافظة عليه الا طريق واحد ، ذلك أن يكون لك غرض فى الحياة ترضى عنه الاخلاق فتنفق زمنك فى الوصول اليه وتوسيعه — وضياع الزمن لسببين الاول الا يكون للانسان غرض يسعى اليه قال عمر بن الخطاب « انى لاكره أن أرى أحدكم سبهللا ، لا فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة » — فما أضيع زمن قارىء يقرأ ما يقع فى يده من الكتب من غير أن يكون له غرض معين كبحث موضوع خاص أو دراسة مسألة خاصة — وما أتعب من يمشى فى الطريق لا لغرض يسير من شارع لشارع وينتقل من حانوت لآخر لا لغرض معين — وتحديد الغرض يوفر من الزمن الشىء الكثير وييسر الانسان فى الحياة على هدى ، كلما صادفته أمور عرف كيف ينتخب منها ما يغذى غرضه ويتجنب ما لا يتفق معه ، ان الذين لا يحددون أغراضهم ويتركون الزمن يمر عليهم كما يمر على الجماد قلما يصدر عنهم خير كبيراً أو يأتون بعمل عظيم — والانسان بلا

غرض كالسفينة في البحر بلا مقصد — متروكة فى يد الامواج تلعب بها

ويلاحظ أن أكثر الناس عملا أوسعهم زمناً ، ذلك لانهم محدودو الغرض فهم يوجهون أعمالهم لنيله ولا يصرفون زمنهم فى التردد والاختيار، ولا يكونون كرة فى يد الظروف تلعب بهم كما تشاء بل هم الذين يخلقون الظروف ويتصرفون فيها حسب أغراضهم فى الحياة

الثانى مما يضيع الزمن أن يكون للانسان غرض محدود ولكنه لايخلص لغرضه فلا يجدّ للوصول اليه ولا يعمل ما يتفق معه عدم الغرض وعدم الاخلاص له هما اللصان اللذان يسرقان الزمن ويضيعان فائدته

ومن نتائج هذين العدوين التأجيل وعدم الدقة فى مراعاة الوقت المحدود للعمل وعدم المواظبة — فتأخر دقائق عن البدء المحدد معناه ضياع دقائق من وقت العمل، وذلك يؤدى الى احدى نتيجتين اما الاسراع فى العمل وعدم الدقة فيه ليعوض الزمن الفائت ، وأما التعدي على أوقات خصصت لواجبات أخري — ومن هذا النحو تأجيل العمل الي وقت غير وقته، فالعمل المؤجل قلما يعمل واذا عمل فقلما يعمل باتقان كما اذا كان فى وقته

وليس يتطلب الاقتصاد في الزمن والمحافظة عليه أن نعمل باستمرار والا نترك وقتاً للراحة ، انما يتطلب أن نستعمل أوقات

الراحة والفراغ استعمالا يجعلنا أقدر على العمل، فاذا صرفنا وقت الفراغ فى كسل وخمول لم ننتفع به ولم يفدنا فى العمل ، واذا نحن صرفناه فى لعب مفيد وحركة جسم أو فى رياضة أفادنا ذلك فى عملنا ، وأنالنا من القوة ما نستطيع أن نخدم بها غرضنا وكان هذا تدبيراً واقتصاداً

الزمن هو المادة الخام للانسان كالخشب الخام فى يد النجار والحديد الخام فى يد الحداد ، فكلٌ يستطيع أن يصوغ منه حياة طيبة بجده وحياة سيئة باهماله — ولأجل أن نجعل لحياتنا قيمة يجب أن نقضى أوقاتنا فيما يتفق مع أغراضنا

ومما يعين على الانتفاع بالزمن أن نعرف — بعد تحديد الغرض — هاتين المسألتين (١) كيف نبتدئ العمل (٢) وكيف نستمر فيه حتى ننتهى منه

لعل من أشق الاشياء معرفة الانسان كيف يبتدئ عمله ، وكثير من الزمن يذهب سدى فى التفكير في ذلك — ترى الطالب يريد مذاكرة دروسه فيفكر بم يبدأ ، فيرى أن يبدأ بالرياضة ويشرع في ذلك ثم يستصعبها فيشرع في غيرها وهكذا فهو يصرف زمناً طويلا قبل أن يبدأ بجد — أضف الى ذلك أن بدء الشئ صعب عادة لعدم المران أو لانه انتقال من راحة لذيذة الى عمل يشق عليه

وعلاج الامر الاول – وهو بم يبدأ – أن يفكر – قبل العمل – فى أولى الاشياء بالبدء، ويدرس وجوه الترجيح ثم يرتب مايليه وهكذا ثم يعزم عزما قويا لايشوبه تردد، ولايسمح لنفسه بتغيير ما عزم عليه مهما صادفه من الصعوبات، أما من يرى أن البدء صعب عليه ويرى نفسه منصرفة عن العمل فمما يفيده فى ذلك أن يقرأ فصلا من كتاب يشجعه على العمل، أو قطعة من الشعر تثير ميله الى الجد وتعيد اليه نشاطه، أو يستحضر فى ذهنه نتائج الكسل والجد، أو يتذكر أشخاصا جدوا فنبغوا فى الحياة – وعلى الانسان اذا بدأ العمل أن يبدأه بكل قلبه فيختار مكانا بعيداً عن الضوضاء، ليس فيه من كثرة المناظر مايشغله عن عمله وليس فيه من المغريات مايصده عنه

فاذا بدأ فقد قطع شوطا بعيداً للنجاح، بعد ذلك يجب أن يستمر، وانما يستمر بالعزم القوي الثابت، ويشجعه على ذلك أن يكون العمل الذى يختاره عملا يتفق مع نفسه أعنى أن عنده استعداداً له وميلا اليه ويشعر منه بفائدة ولذة – فأكثر أسباب الملل يرجع الى سوء اختيار العمل

أوقات الفراغ – ان استعمال أوقات الفراغ استعمالا حسنا من أهم مسائل الحياة التى يجب العناية بها والتفكير فيها، فان أكثر أعمارنا تذهب سدى لانا لانعرف كيف نستعمل أوقات الفراغ، يقضيها الاطفال فى الحارات والشوارع بلا فائدة ويقضيها الشبان

والشيوخ على القهوات حيث لاهواء نقيا ولامنظراً حسنا ولا رياضة بدنية ولا فكرية – أوقات طويلة تذهب فى كلام لاقيمة له، أو لعب لايفيد، ولا يقصد منه الا «قتل الوقت» – وأثر ذلك في أوقات العمل كبير، فمن لم يعرف كيف يلهو لم يعرف كيف يجد

لعل من أهم الاسباب لذلك أن الأمة والحكومة لم تتعاونا على ايجاد أندية للرياضة البدنية فى الاحياء المختلفة، ففى أكثر الاحياء لاتجد مكانا يرتاض فيه الا الشارع والقهوة – يجب أن تكون أندية اللعب والحدائق والمكاتب فى كل حى من الاحياء

أضف إلى ذلك أن جهل الأمة وعدم التربية الصحيحة يفسد ذوقها، وهذا هو السبب فى انك تجد القهوة والروضة والمكتبة والملعب في حى واحد ثم تجد القهوة وحدها هى العامرة بالزائرين

وسبب ثالث وهو أن فقدان السعادة المنزلية في بيوتنا جعل الرجال يفرون من البيوت – التى كان يجب أن تكون أعز شيء عندهم – الى الاندية العامة يمضون فيها أنفس أوقاتهم – وسبب فقدان السعادة المنزلية يرجع في الاغلب الى انتشار الفقر وجهل الزوجين – وعلى الاخص المرأة – وعدم معرفتهما «فن الحياة»

كيف ينبغى أن نقضى أوقات الفراغ (١) أول ما يقضي فيه أوقات الفراغ الالعاب الرياضية على اختلاف أنواعها في الهواء

الطاق والجو المفتوح فان ذلك يزيد فى الصحة ويجدد النفس ويشوقها الى العمل

(٢) الكتاب — ينبغي أن يكون الكتاب رياضة للناس فى بعض أوقات فراغهم ، لافرق فى ذلك بين عامل وموظف وطبيب ومهندس فانه نعم الجليس المفيد ، وينبغي من أجل ذلك أن تنشأ المكاتب العامة فى كل حى من أحياء المدينة — وينبغي أيضاً أن نتعلم كيف نقرأ الكتاب فان قصرنا في ذلك ضاعت الفائدة منه : يجب أولا أن نعمل الفكر فى اختيار الكتاب الذى يناسب أو نسترشد بذوى الرأى فى ذلك فاذا أتممنا الاختيار وشرعنا فى القراءة وجب الا نتحول عنه — مهما صادفنا من العقبات ومهما اعترانا من السآمة — حتى نتمه ولا ننتقل من صفحة إلى أخرى حتى نسيطر عليها وتصبح ملكا لنا قد هضمتها عقولنا. قال رسكن « قد تقرأ كل ما فى دار الكتب الانجليزية وتصبح بعدُ كما كنت ، انسانا غير متعلم ، ولكن اذا أنت قرأت عشر صفحات بامعان في كتاب طيب كنت — الى درجة ما — انسانا متعلما » وقال جون لوك « لا تفعل القراءة أكثر من تزويد العقل بالمعرفة أما التفكير فيما نقرأ فهو الذى يجعل ما نقرأ جزءاً من أنفسنا — ان من طبيعتنا أن ننعم النظر ونفكر ، وليس يكفى أن نثقل أنفسنا بالمعلومات الكثيرة نكدسها ؛ فما لم نمضغها ونهضمها لم تغذنا ولم تكسبنا قوة »

(٣) الجرائد — يصرف جزء من زمن الفراغ فى قراءة الجرائد ، وهذا باب حسن من أبواب صرف الزمن ، فهي معرض الافكار والحوادث ومنبهة الشعور والعقول ، بها يكون الانسان ابن يومه ، مطلعا على ما يجرى حوله ، — ولكن لا يصح أن يستكثر من قراءتها الى حد أن يصرفه ذلك عن عمله الواجب

(٤) السينما والتمثيل — لو أن الحكومة راقبت السينما والتمثيل ولم تسمح الا بالروايات المهذبة لكان ذلك من خير ما نصرف فيه أوقات الفراغ ولاصبحت دور السينما والتمثيل مدرسة لذيذة تعلم طبائع الانسان وتعرض أجمل المناظر وترقى الشعور وتهذب العواطف وتقدم صورة جميلة لآداب اللياقة وتشرح عادات الناس المختلفة ، الى كثير من أمثال ذلك

(٥) ومن خير ما يصرف فيه وقت الفراغ أن يكون للانسان هوى (غية) فى شيء مفيد كأن يكون له هوى فى تربية الطيور أو الزهور ، أو استعراض الآثار فى العصور المختلفة ومقارنة بعضها ببعض ففى ذلك لذة كبرى وفائدة عظيمة

وشر ما يصرف فيه الوقت « القهوات » والاندية العامة ، أن من يصرف كل يوم ساعة في هذه المحال يضيع خمسة عشر يوما — ليلا ونهاراً — فى السنة ، فيضيع خمسة أشهر فى عشر سنين ، وهى مدة كافية لتعلم لغة جديدة أو معرفة علم أو التضلع من علوم فكيف بمن ينفقون كل يوم ساعتين أو ثلاثا

العدل

العدل نوعان : نوع يوصف به الفرد فيقال انسان عادل ونوع يوصف به المجتمع ، ولنتكلم على كل قسم :

فالعدل فى الافراد اعطاء كل ذى حق حقه ، ذلك أن كل انسان لما كان عضواً من أعضاء الجمعية كان له الحق فى التمتع بنصيب من الخير الذى ينال المجتمع ، فأخذ الانسان نصيبه لا اكثر واعطاؤه الناس حقوقهم لا أقل هو العدل ، فالغصب والسرقة ظلم لان فى كليهما أخذ ما للغير ومنعه عن حقه ، والبائع الذى يكيل للمشترى أو يزنه أقل مما اتفقا عليه ظالم لانه لم يعطه حقه وهكذا

ومن أعدى أعداء العدل التحيز وهو ميل الانسان لاحد المتساويين ميلا يجعله يعطيه أكثر من حقه وينقص الآخر حقه فالقاضى مثلا يجب ألا يميز في سيره مع الخصوم بين غنى وفقير ، وأسود وأبيض ، وذى جاه وعديم الجاه ، لان عمله انما هو أن يطبق القانون على الافراد ، والناس أمام القانون سواء ، فيجب ألا يجعل مجالا لحبه أو كرهه ولا لغنى الخصم أو فقره ونحو ذلك

وكثيراً ما يتحيز الانسان لآخر ويخطىء فى أحكامه لتحيزه وهو مع ذلك غير شاعر بأنه متحيز ، ومعتقد الانصاف فيما يرى

ومن أجل هذا يجب على الانسان شدة مراقبته نفسه وحذره من الوقوع فى الخطأ

ويحمل على التحيز أمور :

(١) الحب فمن يحب انساناً يتحيز له كالوالدين قد لا يريان الخطأ فى عمل أولادهما

(٢) المنفعة الشخصية فاحساس المرء بأن أحد الجانبين يكسبه منفعة لا تكون فى الجانب الآخر يجعله يتحيز لاحد الجانبين

(٣) المظهر الخارجى فحسن منظر شخص وحسن هندامه وفصاحة قوله وآدابه فى الحديث كثيراً ما تبعث على التحيز وتبعد عن العدل

وواجب يقظة الانسان في حكمه واجتهاده ألا يتغلب عليه هوى أو ميل يصده عن العدل

وقد كان قدماء الرومانيين يمثلون آلهة العدل بامرأة معصوبة العينين ممسكة ميزاناً ذا كفتين بأحدى يديها وسيفاً باليد الاخرى ، ويرمزون بعصب عينيها الى أن العادل ينبغى أن يعمى عن الاعتبارات التى تجعله يتحيز من غير حق كغنى وجاه ، وبالميزان الى أنه يجب أن يزن لكل انسان حقه بالقسط ، وبالسيف الى أنه يجب أن يلجأ إلى القوة في تحقيق العدل عند الحاجة اليها

وفى ذلك يقول الله تعالى « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا

الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس »

وما يحمل على العدل :

(١) عدم التحيز فالذى ينظر إلى الشىء مجرداً عن الهوى أقرب إلى تحقيق العدل

(٢) توسيع النظر ورؤية المسألة من وجوهها المتعددة فعند الخلاف فى أمر يجب على كل من المتنازعين أن ينظر إلى محل النزاع من الجهة التى ينظر اليها خصمه أيضاً ، والقاضى عند فصله فى الخصومة يجب أن ينظر إلى وجهة كل خصم

(٣) أن نجعل مدار الحكم على الباعث للعامل على عمله لا على مظهره الخارجى فقد يكون ظاهر العمل سيئاً ومستفزاً للغضب ولكنه صادر عن باعث شريف ونية حسنة ، كالذى يقسو على ولده ليربيه

* *

والمجتمع العادل هو المجتمع الذى له من النظم والقوانين ما يسهل لكل فرد من أفراده أن يرقى نفسه على قدر استعداده فلا يكون المجتمع عادلا حتى تتوفر لكل طائفة من الناس وسائل رقيهم ، ففى الامة مثلا طائفة من التجار يحتاجون فى تجارتهم إلى تلغراف وبريد وسكك حديدية وهكذا ، وطائفة من الناشئين يحتاجون إلى مدارس يتعلم فيها كل من أراد أن يتعلم ، وفيها من

النظم والعلوم مايسد حاجة كل طالب ، وطائفة من المتخاصمين تحتاج إلى قضاة وقوانين تردع الجناة وتحفظ حقوق الناس وهكذا ، فاذا قامت الامة بكل هذا حق لها أن تسمى مجتمعاً عادلا والا فظالم

والمطالب بتحقيق العدل فى المجتمع كل فرد من أفراده ، فكل انسان مطالب أن يعمل لتحقيق العدل في مجتمعه على قدر استطاعته ، فاذا احتاجت مدينة الى مستشفيات مثلا فعلى الخطيب أن يخطب حاثاً على انشائها ، وعلى كتاب الجرائد أن يكتبوا ، وعلى الشعراء أن يشعروا ، وعلى الاغنياء أن يتبرعوا ، وعلى كل ذى قدرة وجاه أن يستعمل قدرته وجاهه فى مساعدة المشروع ، ثم على من في يدهم تنفيذه أن ينفذوا

فاذا لم يعمل كل فرد ما عليه فالامة كلها آثمة ظالمة حتى الافراد الذين أدوا ما عليهم ، لان المجتمع كما قدمنا جسم عضوى وذلك هو شأنه ، فلو أن القلب أدى ما عليه ولكن المعدة لم تؤده عوقب كل عضو فى الجسم حتى القلب

العدل والمساواة : كثيراً ما يقرن العدل بالمساواة ويعتقد أن العدل فى المساواة والظلم فى عدمها ، وقد أخذت هذه الكلمة محلا كبيراً في العقول من عهد الثورة الفرنسية ، فقد كان شعارها « الحرية والمساواة والاخاء » « كل الناس أحرار ، كل الناس

متساوون ، كل الناس اخوان »

فى الدنيا وسائل كثيرة من وسائل الحياة الطيبة ، كالتعلم والثروة التى لابد منها « للاكل الطيب والملبس الطيب والمسكن الصالح واقتناء الكتب النافعة والقدرة على الرياضة البدنيه والعقلية » ونحو ذلك فهل من الحق والعدل أن تتساوى الناس فى هذه الوسائل أو الحق والعدل فى عدم المساواة ؟ قد اختلف العلماء والفلاسفة في الاجابة على هذا السؤال ففريق يؤيد المساواة ويرى العدل فيها ، وفريق يدحضها ويرى فيها الظلم ، ونحن نورد هنا حجج الفريقين باختصار

حجج القائلين بعدم المساواة : (١) ان الناس مختلفون بطبيعتهم في قوائم وملكاتهم ، فمنهم الذكى والغبى والحاذق والابله والكفء وغير الكفء ، هكذا خلقهم الله وهكذا ولدوا ، فمن الخرق أن نمكن الاغبياء والبله وغير الاكفاء من ادارة الاعمال الواسعة وان نمنحهم منحاً كبيرة لايستطيعون أن يتمتعوا بها ، أنا اذا منحناهم ذلك أساءوا استعمالها ولم ينتفعوا بثمراتها مع اننا لو أعطيناهم ضروريات العيش فحسب وأعطينا ما زاد للكفء القادر سعد الجميع ، لذلك يجب أن نقصرهم على الضروريات باية طريقة ، وقد كانت الطريقة عند الاقدمين الاسترقاق وفى العصور الحديثة الاجور اليومية ونحوها

(٢) ان الاختلاف بين الناس يبعثهم على الجد ، فالفقير اذا

رأى الغنى يتمتع باكثر مما يتمتع به هو جد فى العمل ليكون مثله ، وحامل الشهادة الثانوية اذا رأى حامل الشهادة العالية يمتاز بميزات أكثر منه رغب وعمل ليكون مثله ، وتمتع بعض الناس بالملبس الجميل والمسكن العظيم والسيارات الفخمة يثير فى النفس حب العمل ليصل إلى النتيجة المنشودة ، ويبعث على الاختراع ويرغب المتزاحمين فى استكشاف خير الطرق لنجاح عملهم ، وفى ذلك خير عظيم للانسانية على العموم ، أما ان نحن سوينا بين الناس لم نجد ما يحملهم على الجد وقد فطر الناس — متوحشهم ومتمدينهم — على أن الامل يسيرهم والرغبة فى عيش خير من عيشتهم هى التى تشجعهم

(٣) لا يمكن انتظام شؤون الدنيا الا إذا وجدت طائفة تتخصص للعمل فى المزارع ولا تتمتع بالقراءة فى الكتب ودراسة العلوم بينما يتفرغ آخرون للشعر والعلم والفلسفة ونحو ذلك ، أما اذا اشتغل جميع الناس بالعلم على السواء لم نجد مواد الحياة الاولية كافية ، ولو كلفنا الناس جميعاً أن يكونوا عمالا ولو فى بعض أوقاتهم لحرمنا العلم الوافر والابحاث المفيدة ، فلا بد من التفاوت وعدم المساواة فى ذلك

وورد دعاة المساواة على هذه الحجج بما يأتى :

(١) ان الناس قد خلقوا متساوين ، قال شيشرون الخطيب الرومانى « الناس سواء ، وليس شيء أشبه بشيء من الانسان بالانسان ، لنا جميعاً عقل ولنا حواس ، وان اختلفنا فى العلم فنحن

مستوون فى القدرة على التعلم »

وقال هوبز Hobbes الفيلسوف الانجليزى « سوت الطبيعة بين الناس فى قواهم الجسمية والعقلية ، قد نرى بعض الناس أقوى جسما من بعض ، وبعضهم أذكى من بعض ، ولكن اذا نظرنا نظرة عامة لانجد هناك فرقا يخول لانسان حقا ليس للآخر ، خذ مثلا ضعيف الجسم فان عنده من القوة مايستطيع به أن يقتل القوى اما بمكيدة أو بمؤامرة مع آخرين يشعرون شعوره » وكذلك جاء جفرسن Jefferson واتباعه فأيدوا القول « بان الناس مخلوقون سواء »

وليسوا على ما يظهر يريدون أن يقولوا ان الناس لايختلفون فى كفاءتهم وذكائهم فذلك ظاهر البطلان ، فكل انسان يسلم بذلك ويختار لعمله من يصلح له دون من لايصلح ، وانما يريدون أن يقولوا ان الناس لم يخلقوا منقسمين الى طبقة أشراف وطبقة عامة ، وان ليس لاحد حق السيطرة على الناس بسبب مايجرى فى عروقه من دم ملوكى بقطع النظر عن كفاءته وذكائه ، بل خلق الناس طبقة واحدة ، أصلحهم أكفؤهم ، كذلك يعنون أن الناس متساوون فى الحقوق كحق الحياة وحق الحرية وليس لاحد حق أكثر مما للآخر

(۲) وردوا على الحجة الثانية بأن التزاحم واختلاف الناس باعث غير شريف وهى لا تصلح الا أن تكون باعثا للمتوحشين

والمنحطين ، أما الراقون المهذبون فيجب أن يحملهم على العمل شعورهم الطيب وحبهم للعمل ، وكثير من المستكشفين انما بعثهم على استكشافهم الرغبة فى خير الناس ونفعهم

(۳) وردوا على الثالث بأن ذلك كان فى الزمن القديم ، أما وقد استكشفت المخترعات الحديثة والآلات البخارية والكهربائية العديدة فانا نستطيع أن نسعد الناس جميعا وكثرة الحاصلات بواسطة هذه الآلات تمكننا من أن نعلم الناس جميعا

والظاهر ان المساواة المطلقة فى كل شىء لا تمكن وليست من العدل — خصوصاً بعد ظهور أن الناس مختلفون بالطبيعة — انما هناك أشياء تعقل فيها المساواة وهى عدل وعدمها ظلم ، من ذلك :

(۱) المساواة أمام القانون بمعنى أنه لافرق أمامه بين غنى وفقير وشريف ووضيع ، كل يعاقب على جريمته إذا أجرم ، وعند وضع القانون ينبغى ألا تفضل طبقة على طبقة

(۲) المساواة فى الحقوق ، فكل انسان له من حق الحرية وحق الحياة ونحو ذلك ما للآخر ، ليس لاحد الحق فى أن يخطب أو ينشر رأيه دون الآخر ، بل الكل فى ذلك سواء ، للامير من الحق ما لأحد الرعية وللغنى ما للفقير

(۳) المساواة فى المناصب ، أعنى أن ليست المناصب قاصرة على فئة خاصة بل كل من تتوفر فيه الصلاحية للمنصب له حق فيه وليس للاعتبارات الاخرى كالغنى والجاه دخل فى التفضيل

(٤) المساواة فى التصويت في الانتخاب فليس ذلك من حق الاغنياء دون الفقراء، وهذا النوع موضع خلاف بين العلماء ولم تتبع الامم نمطاً واحداً فى السير عليه

العدل والرحمة : كثيراً ما يقول الناس « الرحمة فوق العدل » يعنون بذلك أن العمل حسب ما تقتضيه الرحمة أفضل من العمل حسب ما يقتضيه العدل — وهذا ليس بصحيح على العموم بل قد يكون صواباً وقد يكون خطأ ونحن نذكر أمثلة مما تستعمل فيه هذه الجملة

(١) مدرس في مدرسة ليس كفؤا فى عمله، لا يحسن التدريس ولا يفيد تلاميذه، أريد الاستغناء عنه من أجل ذلك، ولكنه كبير في السن ورب أسرة وفقير فيقال « الرحمة فوق العدل » أي أن العدل يقضى بالاستغناء عنه والرحمة تقضى ببقائه في عمله وهذا صحيح ولكن يجب هنا أن نطبق العدل لا الرحمة فالعدل هنا فوق الرحمة، ذلك لان الضرر الذى ينال التلاميذ من المدرس مع كثرة عددهم كل سنة يفوق الضرر الذى ينال المدرس وأسرته، ولان المدرسة ليست ملجأ للاحسان يرتزق منها مع عدم كفاءته، بل هو يأخذ أجره فى مقابل عمله فيما لم يحسن عمله لم يستحق أجره، وكونه رب أسرة وفقيراً يجعله يستحق الاحسان لا من المدرسة ولكن من معاهد الاحسان

(٢) عامل ترام « كمسارى » تريد أن تشفق عليه فتعطيه ثمن التذكرة ولا تأخذها منه « لان الرحمة فوق العدل » وهذا أيضاً خطأ لان ثمن التذكرة ليس ملكك ولكن ملك الشركة ولا يصح أن تحسن من مال غيرك الا برضاه، فاذا أردت الاحسان فأعطه من مالك الخاص بعد أن تدفع ثمن التذكرة

(٣) لص قبض عليه وهو ينتشل « محفظة » فأخذ يستعطف الناس ويبكى ليفرج عنه فيقولون « الرحمة فوق العدل » وليس ذلك بصحيح لان معاقبة السارق من حق الامة فلا يملك العفو عنه بعض الافراد

(٤) مسجون سجن ظلماً وعدوانا يراد العفو عنه فيقال « الرحمة فوق العدل » وهو خطأ أيضاً لان العدل يقتضى كذلك ألا يسجن فالرحمة والعدل يتفقان في المطلب وليست الرحمة فوق العدل

نعم فى بعض المواضع يكون استعمال الجملة صحيحاً كما اذا كان لك دين على آخر فرحمته وتركت دينك أو أجلته حتى يوسر فالعدل أن تأخذه والرحمة أن تتركه أو تؤجله والرحمة فوق العدل

وجملة القول أن الجملة صحيحة اذا كان الذى يرحم هو الذى يملك حق العدل ثم هو يتنازل عن حقه فى العدل ويرحم، أما الرحمة حيث يكون العدل من حق غيره فخطأ بين كما مثلنا

الامراض الاخلاقية وعلاجها

حياة الانسان قد تتجه نحو تكميل النفس وطهارتها وهذا ما وجهنا اليه أكثر كلامنا في الفصول المتقدمة ، وقد تتجه نحو الشرور واقتراف الجرائم والآثام وهذا مانبحث فيه فى هذا الفصل

تنشأ الآثام والجرائم فى كثير من الاحيان عن ضيق العالم الذى تعيش فيه نفس الانسان ، فان من ضاق عالمه حتى لا يرى إلا شخصه وأقرب الناس اليه كان عرضة لارتكاب الجريمة عند ما يرى أن خيره فى ارتكابها ، فكثير ممن يسرقون يضيق نظرهم فلا يرون الا أن مايسرق يزيد فى خيرهم وخير أسرتهم، ولا يتسع نظرهم حتى يدركوا ما يحيط بالمسروق منه وأسرته وأمته من الضرر ؛ وقد يرتكب الجريمة لانه وقت ارتكابها كان ضيق العالم فاذا اتسع نظره بعدُ ندم لان عالمه وقت ندمه أوسع من عالمه وقت اقتراف الجريمة

ضيق النظر يجعل الانسان يرى أن مصلحته ومصلحة أمته تتناقض فيفضل مصلحته على مصلحتها ولكن واسع النظر يرى أن مصلحته فى مصلحة أمته وفى ضررها ضرره

وعلاج هذا أن يوسع نظره كما بيناذلك عند الكلام على الخلق

وقد تصدر بعض الشرور عن المصلحين وذوى الاخلاق القوية ؛ وسبب ذلك فى كثير من الاحيان انهم يحصرون نظرهم

فى جهة واحدة من جهات الاصلاح فيغفلون عن النظر الى جهات أخري، كالذى حكى عن سقراط أن اهتمامه باصلاح الناس جعله يهمل اصلاح بيته ، وكما نرى في تاريخ عظماء الرجال من أغلاط يرتكبونها ، ويجب لصحة الحكم عليهم ألا نقصر نظرنا على أغلاطهم بل ننظر الى جهات نقصهم وجهات كمالهم جميعاً ، ويجب هنا ألا ننسى ما أشرنا اليه قبل من وجوب النظر الى الباعث فقد يصدر عملان متشابهان من شخصين ويكون الباعثان مختلفين أحدهما طيب والآخر سيء ، فلا نحكم على الشخصين حكما واحداً

(الاثام والجرائم) يهتم الاخلاقيون بنية الانسان الباطنية وغرضه من عمله كما يهتمون بالعمل الخارجى ، وفي كلتيهما تبحث الاخلاق، فهى تبحث فى الصفات النفسية والنية ولو لم يترتب عليها عمل خارجى وتبحث في الاعمال الخارجية أيضاً

والعمل اذا كانت الاخلاق تستقبحه فهو اثم سواء كان عملا خارجياً أو نفسياً ولكن لايسمى جريمة الا اذا كان عملا خارجياً نهت عنه قوانين البلاد وعاقبت من ارتكبه ، فالآثام أعم من الجرائم

ولم توضع كل الآثام فى قوانين البلاد لاسباب عديدة أهمها:

(١) ان كثيراً من الاثام لايصح وضعها فى قانون كنكران الجميل وعدم الرحمة والشفقة اذلو وضعت لها عقوبة لقلل ذلك من قيمة

الفضائل المقابلة لها أعنى انه يقلل من قيمة الشكر على المعروف والرحمة والشفقة لأن قيمتها فى انها منبعثة عن القلب، فاذا عرف انها عملت خوفاً من عقوبة القانون ضاعت قيمتها

(٢) ان كثيراً من الآثام لايمكن تحديده حتى يوضع فى القانون وتحدد العقوبة له، فعدم الاحسان اثم ولكن مقدار ما يجب يختلف باختلاف الاشخاص فى الغنى وبمقدار ما يطلب منهم من النفقات ونحو ذلك

(٣) عندما تكون نتيجة الآثام عائدة على الشخص نفسه مباشرة وعلى المجتمع تبعاً لايصح تدخل القانون كمن يعمل عملا يتلف صحته، اذ لو تدخل القانون في هذا لسلب الناس حريتهم، ولما استطاع أن يستقصى ذلك

(علاج الجريمة): للجريمة علاجان: الاصلاحات الاجتماعية كانشاء الاصلاحيات للاحداث، ونشر التعليم العام، ومقاومة السكر والبغاء، ومنع التشرد واستئصال مايحرض الشبان على الفجور، وغير ذلك — والثانى العقوبة، وسنتكلم عليها كلمة

(العقوبة) للشر الذى يرتكب ضرران (١) ضرر يصيب فاعل الشر، وذلك هو انحطاط نفسه، ونزولها عن شرفها، وتوبيخ الضمير، والندم على ما حصل، فان من أتى بالشر يتسع خياله بعد صدور الشر عنه، فيتجلى له سوء عمله، فيألم ألماً يختلف شدة وضعفاً باختلاف وجدان الناس ومثلهم الاعلى، فكلما كان

الوجدان حساساً وكان العمل لايتفق مع مثل الانسان الأعلى كان الندم أشد، وقد يصل بالانسان الى حد أن يرتبك حاله، وتضطرب أعصابه، وينقبض صدره، فلا يرى ملطفاً لهذا الألم الا أن يتوب، أعنى انه يسترد ارادته ويسترجع نفسه الى موقفها، ويعزم على أن يحافظ عليها من أن تسقط سقطتها الاولى — أما من مات وجدانه وانحط مثله الاعلى فلا يندم كثيراً بل قد لا يندم أبداً كمعتادي الاجرام

(٢) وضرر يصيب المجنى عليه والمجتمع معاً — وقد كان الناس قديماً يرون أن المجرم جنى على المجنى عليه فحسب، فلما رقوا عدوه قد جنى على المجتمع كله أيضاً لان السارق مثلا اذا سرق أزعج الناس وهدد كل مالك وجعله يشعر بأنه عرضة لان يسرق منه كما سرق من غيره، أضف إلى ذلك ماتتكبده الامة للاحتياط من السارقين والنفقات التى تنفق فى سبيل ذلك، ومن أجل هذا قالوا أن صالح المجتمع يجب أن يقدم على صالح الافراد وأصبحت العقوبة من حق الهيئة الاجتماعية التى تمثلها الحكومة وصارت الجرائم تقاس بالضرر الذى ينشأ عنها للمجتمع

وقد كان الغرض أولا من عقوبة المجرم الانتقام منه، فلما ارتقى الناس رأوا أن الغرض ينبغى أن يكون:

(١) منع الناس من ارتكاب الجرائم فانهم إذا رأوا أن المجرم يعاقب على اجرامه خوفهم ذلك من ارتكابها

(٢) ايقاع ألم بالمجرم يتناسب مع لذته من اجرامه — لانه باجرامه قد آلم المجتمع فمن العدل أن نؤلمه كما فعل ، قد تلذذ هو فاجرامه لذة باطلة فيجب أن نسترد منه لذته بايلامه إيلاماً متناسباً للذته

(٣) اصلاح المجرم — وهذه النظرية أكثر مراعاة في أيامنا هذه — وعنها نشأ كثير من النظم مثل اصلاح السجون، وذلك بتقسيم المجرمين إلى أقسام بحسب قوة الاجرام عندهم وفصل كل قسم عن الآخر حتى لا يعدى مبتدىء الاجرام من معتاده ، وتعليم المجرمين صنائع يكتسبون منها فاذا خرجوا من السجن لا يلجئهم فقرهم وتشردهم إلى السرقة بل يتكسبون من الحرفة التي تعلموها ، وايجاد دروس وعظ وإرشاد ديني في السجون ، وانشاء اصلاحيات للاحداث تهذب من نفوسهم وتعدل بهم عن الاجرام وهكذا

*
* *

وقد تجرم المجتمعات كما تجرم الافراد ، فالامة التي تضع لنفسها من النظم ما ينشأ عنه وجود طائفة تعيش على حساب غيرها – لا تعمل أي عمل وتتمتع تمتعاً كبيراً – مجتمع قد أجرم ، ذلك أن الانسان انما خلق ليعمل ، فمن لم يعمل لم يؤد ما خلق له وكان عالة على من يعملون، وكان كالنبات الطفيلي يمتص ما أعده غيره من

غذاء ، فالكسالى والاغنياء الذين يتمتعون فحسب ولا يعملون أي عمل ، والمجرمون الذين يعيشون من السرقات ونحوها، والمتسولون كلهم قوة مستهلكة يتلفون جزءاً كبيراً مما يحصله العاملون ، ويسببون التعاسة والشقاء للعاملين ، والمجتمع اذا لم يتخذ الوسائل للاحتياط من هذا المرض كان مجرماً ، وموضع البحث في هذه الامراض وعلاجها علم الاجتماع



الكتب التي اعتمدت عليها واقتبست منها
ويرجع اليها من شاء التوسع في العلم

« الكتب العربية »

تهذيب الاخلاق لابن مسكويه

الاحياء للغزالي

أدب الدنيا والدين



« الكتب الانجليزية »

Mackenzie, Manual of Ethics.

Ryland, Ethics, an introductory manual.

W. R. Sorley The moral Life

Everett, Ethics for young People.

The Teacher's Text book of practical Ethics.

Moral Instruction Series.

Moral Education Series.

J. Howard moore, The New Ethics.

» » », The Universal Kinship.

» » », High School Ethics.

John Stuart mill Utilitarianism.

Spencer. Data of Ethics.